



المشروع القومى للترجمة



الولع الفرنسى بمصر

من الحلم إلى المشروع



مع « المخطوط السرى لغزو مصر »

النص غير المنشور الذى قدمه ليبتنز للويس الرابع عشر

تأليف : أحمد يوسف

ترجمة : أمل الصبـان

520


mohamed khatab

المشروع القومى للترجمة

الولع الفرنسى بمصر من الحلم إلى المشروع

مع «المخطوط السرى لغزو مصر »
النص غير المنشور
الذى قدمه ليبنتز للويس الرابع عشر

تأليـف : أحمد يوسف

ترجمـة : أمل الصبان



٢٠٠٣

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٥٢٠
- الولع الفرنسى بمصر من الحلم إلى المشروع
- أحمد يوسف
- أمل الصبان
- الطبعة الأولى ٢٠٠٢

هذه ترجمة كاملة لكتاب :

La Fascination de L'Égypte

du rêve au projet

Ahmed Youssef : تأليف

L'Harmattan : الناشر

1998

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 **Fax :** 7358084 **E. Mail :** asfour @ oncbox. com

تهدف إصدارات المشروع القومى للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

المحتويات

"فقدت نصف العالم، مملكة تلو الأخرى

وقطرًا تلو الآخر، وأوشك ألا أعرف

أين عسانى أضع أحلامى ...

لكن مصر هى أكثر البلاد التى أشعر بالمرارة

على طردها من خيالى لإسكانها للأسف فى ذكرياتى"

نرفال (رسالة إلى تيوفيل جوتييه ١٨٤٣)

مقدمة

شاءت سخرية الأقدار أنه في الوقت الذي كانت تضع فيه الملكة مارجريت دي بروفنس Marguerite de Provence مولودها، كان المماليك عبيد مصر يعرضون على زوجها الملك المسيحي لويس التاسع عرش بلادهم، وذلك بعد أن هزموا الملك نفسه وأسروه في السابع من أبريل عام ١٢٥٠م ؛ فبالفعل بعد أن قتل المماليك سلطانهم بوحشية قاموا بالبحث عن قائد له وزنه واحترامه. وقد عرض المماليك على لويس التاسع هذا العرض قيد شرط واحد هو إشهار إسلامه .. وبسبب إنهاك الملك وشعوره بالاستنفاذ من جراء هزيمته على أرض الفراعنة؛ فقد قابل عرضهم بصمت غريب مما دعاهم إلى اتخاذ قرار غير مسبوق في تاريخ الإسلام، وهو حمل امرأة إلى السلطة في القاهرة، وهي الملكة شجرة الدر.

وظل القديس لويس بعد عودته إلى فرنسا – بعد أن حصل على حريته بصعوبة – يجتر لمدة عشرين عاماً ذكرياته كمحارب صليبي .. وقد يكون قد أسف لعدم قبوله عرش مصر، ويفسر جوانفيل Joinville موقف الملك بعدم رغبته في حكم شعب قتل ملكه.

ولم تكن مدة عشرين عاماً مدة كافية لشفاء من أصبح فيما بعد القديس لويس من أعراض مرضه المصري، ولذا قرر أن يسلك مرة أخرى طريق الشرق الخطير لحرب صليبية أخيرة، وهو يجهل أن الأمور قد تغيرت كثيراً خلال تلك الأعوام العشرين في مصر! وكانت إحدى تبعات حملته الأولى وصول طبقة من العبيد العسكريين (المماليك) إلى السلطة، وذلك بعد حكم المرأة الوحيدة التي حفظت مصر ذكراها بعد كليوباترا، وهي الملكة شجرة الدر لفترة قصيرة.

أما سخرية القدر الثانية فتتمثل في إقصاء هذه الطبقة من المسرح السياسي على يد غازٍ فرنسي آخر نزل على أرض مصر هو نابليون بونابرت؛ فقد قاد نابليون في يوليو ١٧٩٨م جيشاً عظيماً، وقضى عند سفح الأهرامات في الحادي والعشرين من يوليو ١٧٩٨م على هؤلاء المماليك أنفسهم الذين وصلوا إلى السلطة منذ خمسة قرون ونصف قرن عن طريق حرب صليبية قادها أحد أبناء بلده.

ومن البديهى أنه لا يمكننا أن نطلق على حملة نابليون فى مصر اسم "حرب صليبية"، ويرجع ذلك لسببين: أولهما أن العصر لم يكن يتناسب مع فكرة الحروب الصليبية؛ فقد ذكر ليبنتز Leibniz للويس الرابع عشر أن تلك الحروب "ليست موافقة للموضة"، وثانيهما أن بونابرت الذى كان ابنًا باراً لعصر التنوير، صحب فى حملته صفوة علماء فرنسا فى ذلك العصر الذين تغذوا من علم "الموسوعة" وثقافتها. وقد أثمر عمل هؤلاء العلماء عن تحفة تماثل فى قيمتها قيمة الشعب المستثمر ألا وهى كتاب "وصف مصر"، وقد سمح هذا الكتاب بدوره بظهور علم عظيم هو «علم المصريات» بالإضافة إلى رافده الشعبى، وهو ظاهرة الولع بمصر.

شكلت العصور التى فصلت بين الحروب الصليبية والحملة معملاً خارقًا للعادة لأفكار الغزو ولعبة النفوذ بين القوى، وكان من نتائجه المباشرة إقامة وكالات تجارية أجنبية، وكذلك نظام القناصل.

وهكذا شكل السحر بمصر فى الذاكرة الجمعية الفرنسية منذ الحروب الصليبية إلهاماً لسلسلة من مشروعات غزو بلد الفراعنة، وهذا الغزو الذى تحقق أخيراً على يد بونابرت فى نهاية القرن الثامن عشر كان بمثابة تمهيد لأروع الأحلام وأمتع الأساطير.

سحر وولع بمصر:

فوجئ الباريسيون الذين مروا بشارع الكابوسين Bvd des Capucines فى الثامن من ديسمبر عام ١٨٤٤م بوجود - حول مسرح الإيطاليين - بعض الخيول العربية والجمال والأمراء الجزائريين الذين تم أسرهم مؤخراً، بالإضافة إلى بعض رجال الأدب المشهورين مثل تيوفيل جوتييه Théophile Gautier وجوستاف فلوبير Gustave Flaubert وماكسيم دى كامب Maxime de Camp .

وفى تلك الليلة كان المؤلف الموسيقى السان سيمونى (*) ، فيلسيان دافيد Félicien David يقدم للجمهور الباريسى ثمرة مقامه الطويل فى مصر ألا وهى النشيد

(*) السان سيمونيون: أنصار سان سيمون، وهو فيلسوف ورجل اقتصاد فرنسى (١٧٦٠ - ١٨٢٥)، وقد اهتم بالطبقات الفقيرة وأوصى بتحسين ظروف العمال، وسعى إلى تعريف اشتراكية منظمة أثرت تأثيراً بالغًا على بعض رجال الصناعة فى ظل الإمبراطورية الثانية (المترجمة).

السيمفونى "الصحراء"، وأدخل للمرة الأولى فى هذا العمل - كما سنرى - فى الموسيقى الغربية ابتكاراً لا يزال موجوداً حتى يومنا هذا، وهو الإغرابية الموسيقية.

بهذه النزعة الشرقية الباحثة عن الأصالة، أثَّر دافيد على كل الموسيقيين الفرنسيين والغربيين من سان سايين Saint Saens حتى رافيل Ravel، ومن كورساكوف Korsakov حتى كتلبى Ketelby .

وفيلسيان دافيد الذى لا تحفظه الذاكرة الباريسية سوى فى اسم شارع فى الحى السادس عشر، كان عاشقًا لمصر، ولكنه رفض أن يوصف "بمولع بمصر" عند تقديمه لأوبرا مأخوذة عن قصة ألكسندر ديما الأب Alexandre Dumas pèreبعنوان "موسى فى سيناء" "Moise au Sinai" .

وربما اتسع منذ ذلك الحين معنى كلمة "الولع بمصر" الشائع الاستخدام حاليًا - ليفيد مظهرًا جديدًا من مظاهر محبة مصر égyptophilie - ففى الواقع، كان دافيد - شأنه شأن الكثير من الغربيين - مغرمًا بصورة أكبر بمصر العربية، والإسلامية، والشرقية عن مصر شامبليون وماربييت، وقد تغذى بالثقافة القديمة ورموزها (أهرامات أو معابد، مسلات أو أبو الهول).

أما السحر فهو يغطي حيز الحلم الذى يدنو - بطريقة غريبة - من واقع وجود "الآخر"، والسحر يرتبط أيضًا بالبحث عن مثل أعلى فلسفى وغير جمالى كما هو الحال بالنسبة للولع بمصر. ويجسد هذا الولع - بامتياز - صراع الحضارات فى حيز جغرافى وزمنى جد ضيق بسبب الثورة الصناعية التى بدأت فى القرن التاسع عشر.

والحق أن الولع بمصر على النقيض من ذلك تمامًا؛ فكلما ابتعد الزمن تأسس "الولع"، وكلما انفصل الرمز عن الوقع، بدا "الولع" ضروريًا. ويتسنى لنا فى النهاية القطع بأن الولع بمصر هو ظاهرة قريبة الصلة بالسحر دون أن يكون مماثلاً لها.

ولا يعالج هذا العمل الولع بمصر، ولكنه يتناول بالدراسة ظاهرة سحر مصر فى الذاكرة الجمعية الفرنسية، ودورها الفاصل فى وضع مشروعات سياسية ضخمة، وكذلك فى ظهور حركات فلسفية وثقافية مهمة، كما يحاول هذا العمل إثبات أن السحر عادة ما يوحى "بمشروع شخصى" عظيم يؤدى عادة إلى ارتباط ممتد على مدى الزمان؛ فقد ارتبط رجال مثل القديس لويس Saint Louis أو نابليون فولنى Volney

أو شاتوبريان Chateaubriand، وأخيراً جوزيف بالسامو Joseph Balsamo وديليسبس بأفق واحد؛ فقد كانت مصر هى محور اهتماماتهم فى لحظة من لحظات حياتهم، ولم يكن هؤلاء الرجال مولعين بمصر، ولكنهم كانوا ببساطة مسحورين بها، ثم بعد ذلك سحرة لمصر التى تصوروها "كفكرة" لا "كمادة لمتحف".

ولذا لن يجدنا القارئ نتحدث عن شامبليون أو مارييت أو رمسيس أو كليوباترا؛ بيد أنه سيكتشف فى المقابل مصر أخرى، أقرب لنا، ملهمة مشاريع عظيمة وفتوحات لا عسكرية فحسب، ولكن أيضاً عاطفية وأدبية وفنية ..

وكل هذه الأمور يتم سردها وفك رموزها وتحليلها من وجهة نظر مصرية .. وهذا نادراً ما يحدث فى فرنسا.

نظرة مصرية:

السابعة من مساء ٢٦ يوليو ١٩٥٦م ، كانت الشمس تلقى بحرارتها الخانقة وضوئها على ميدان المنشية الكبير (ميدان القناصل سابقًا) بمدينة الإسكندرية، وكان الجمع العظيم يشهد مراسم الطلاق بين مصر ومحدثيها الأوروبيين عندما أعلن الرئيس ناصر تأميم قناة السويس.

واختار ناصر لهذا الحدث مدينة الإسكندرية لا القاهرة. والأكثر من ذلك اختار الميدان الذى كان يطلق عليه "ميدان القناصل"، وهو ميدان ضخم مستطيل الشكل وتتوسطه الحدائق المسماه بالحدائق الفرنسية التى يرتفع فيها حتى يومنا هذا تمثال محمد على وهو يعتلى حصاناً.

ومن أعلى شرفة فى بورصة الإسكندرية الشهيرة التى كانت تطل على الميدان، خطب ناصر فى هذا الجمع المتحمس بخطابه المشتعل الكلمات، ومن ثم فقد اختار أبو القومية المصرية أن يدلى بقراره بتأميم قناة السويس باستخدام كل الرموز الممكنة، وكانت كل الأماكن والإيماءات تتخذ قرنين من العلاقات الصاخبة مع الغرب مرجعية لها. وقد تأكدت رمزية الرئيس بصورة أكبر عندما كرر مراراً اسم "فرديناند ديليسبس"؛ فقد كان هذا الاسم هو علامة الإنذار لرجال الشرطة الذين كانوا قد تلقوا مسبقًا الأمر باحتلال مقر شركة قناة السويس بمجرد نطق ناصر باسم أبى القناة. وفى هذا السياق

الحماسى تلقيت، وأنا صغير، أولى إدراكاتى عن الغرب، وسمعت الناس يتحدثون عنه باستخدام ألفاظ مرعبة مثل: "إمبريالية" و"استعمار"، وبصورة بديهية "رأسمالية". وكان هذا التعبير الأخير شائع الاستخدام فى وسائل الإعلام التى لم تكف طوال ثلاثين عاماً عن تعريفه بهذه الكلمات: "تعد الرأسمالية ابتكاراً غربياً لا يستهدف سوى استغلال الإنسان للإنسان". وبعد ثلاثين عاماً، اكتشف الناس أن الاشتراكية تمثل "النقيض". ولنعد إلى سنوات الطفولة تلك فى مصر، عندما أدى تأميم قناة السويس والحرب التى استتبعت هذا القرار إلى محو كل ما كان يمكن أن يذكر مائتى عام من العلاقات الوطيدة مع الغرب؛ فقد تم فك التماثيل، وتعريب أسماء الشوارع، وتأميم كبرى محلات الأزياء الأوروبية ... إلخ.

ومع ذلك، حافظت السلطة المصرية – أثناء الفترة شديدة المناهضة للغرب – على بعض شوارع تحمل أسماء مونج Monge وكافاريلى Caffarelli وشامبليون Champollion وماربيت Mariette وكلوت Clot وغيرهم؛ فمونج كان عالمًا جليلاً من علماء حملة بونابرت، وكافاريلى كان هو الآخر عالمًا، وكان زميلاً لمونج فى معهد مصر وجنرالاً كبيراً فى الجيش الفرنسى. أما شامبليون فهو بديهياً أبو علم المصريات، بينما ماربيت هو أحد أعظم رواده .. وبالنسبة لكلوت فهو ببساطة الرجل الذى عرَّف مصر بالطب الحديث.

وبعد سنوات طويلة اكتشف الناس أن حكومة ناصر لم "تنس" محو ذكرى هؤلاء الرجال، ولكنها بالأحرى لم تبغ ذلك؛ فالحق أن هؤلاء الرجال المفتونين، كانوا بمثابة النبيين الذين يمارسون على أرض هذا البلد حب تاريخه وآثار العلم الحديث. ألم يقل السان سيمونيون – كما سنرى – "انبعثت الأنوار من مصر، ونحن نردها إليها .. !".

وبوصفى مصرياً أشعر بحماس عميق يرتبط بهؤلاء الرجال. وعلى الرغم من أنهم كانوا يتحدثون لغة مختلفة عن لغة مصر، ويحملون ثقافة مختلفة عن ثقافتها؛ فقد أصبحوا مصريين أكثر من المصريين ذاتهم، فقد اقترنوا بالبلد لا بطريقة خرافية، ولكن بطريقة ملموسة، تحدوهم رغبة عميقة لا فى تغييره، ولكن أيضاً فى تغيير العالم.

والتحليل الذى سأقوم به والحكم الذى سأطلقه على هؤلاء الرجال المسحورين بمصر، سيحترمان ببساطة وجهة نظرهم حول المشروعات التى أعدوها لإعادة بنائه بطريقة حديثة، والتى بدونها ما وصل إلى هويته الخاصة.

وأخيرًا، فإننى أعترف أن هؤلاء الرجال العظام الذين بحثوا عن مجدهم الخاص فى الحب الذى استشعروه نحو مصر قد أثاروا عندى نوعًا من عمق المشاعر تجاه فرنسا، وتبدو لى اللغة التى اخترتها لكتابة هذا الكتاب أروع إشادة أستطيع أن أشيد - عن طريقها - بهذا البلد.

الجزء الأول

الجذور

الفصل الأول

نشأة ولع سياسى

يبدو من الصعوبة بمكان التأريخ للاهتمامات التى كانت توليها فرنسا لمصر قبل حملة بونابرت. ومع ذلك، فقد احتل هذا البلد مكانة عظمى فى السياسة الخارجية للمملكة اعتباراً من نهاية القرن العاشر.

ومع ذلك يمكننا اكتشاف آثار لهذا الاهتمام فى فرنسا منذ زمن بعيد؛ فكلنا يعلم أن لاجول (*) كانت جزءاً من الإمبراطورية الرومانية شأنها فى ذلك شأن مصر، وكان الجيش الرومانى يضم وحدات عديدة من طيبة، وكانت إحدى هذه الوحدات تعسكر فى إيطاليا، ومن ثم كان هناك مصريون ضمن القوات التى كانت تحتل لاجول.

وحافظت الإسكندرية التى كانت آنذاك عاصمة مصر على خاصيتها الثقافية، وأحدثت تأثيراً غير عادى ومطلقًا على العالم المتوسطى سواء كان ذاك عن طريق التطور الكبير لثقافتها أو أهمية مينائها؛ فقد اقتصرت أهمية البحر المتوسط آنذاك على وجود موانئ مزدهرة مثل مارسيليا ونابولى وتير (**) .

ولم تتحول طبيعة العلاقات بين الشرق والغرب إلا فى العصر المسيحى.

وتعد الأصول المصرية للرهبانية فى الغرب أمراً لايمكن إنكاره؛ فكلنا يذكر القديس إثناسيوس السكندرى Saint Athanase d'Alexandrie، وهو كاتب سيرة القديس أنطونيوس Saint Antoine، الذى كان من بين أوائل ناسكى الصحراء. و قد زار مدينة

(*) الاسم الذى كان يطلق فى العصور القديمة على المناطق الواقعة بين الراين وجبال الألب والبحر المتوسط والبيرينيه والمحيط الأطلنطى (المترجمة).

(**) ميناء صور الحالى بلبنان (المترجمة).

آرل أول مرة عام ٣٣٥ وهو قادم من روما. وما بين عامى ٣٣٩ و٣٤٥ شرع فى تعريف الغرب بحياة الرهبانية، وذلك بصفة خاصة بفضل ناسكين قبطيين كانا يتبعانه، وأثارا إعجاب اللاتينيين بفضل تقشفهما الورع.

وفى عهد الكارولنجيين (٧٥١ – ٩٨٧)، أسست فرنسا للمرة الأولى سياسة متشددة نوعًا ما، معنية بصورة طبيعية بأوروبا وصراعاتها.

وعلى الرغم من أن بيبان لى بريف Pépin le Bref قد استقبل فى ميتز بعثة عباسية، فإن ابنه شارلمان Charlemagne هو الوحيد الذى أولى أهمية خاصة للشرق، ربما يرجع ذلك إلى أن العلاقات الدولية كانت تنذر بمجابهة وشيكة مع الشرق، ولاسيما بعد الفتوحات الإسلامية.

وأرسل شارلمان بعثة إلى هارون الرشيد عام ٧٩٧، وحمل مبعوثو الملك الفرنجى عند عودتهم الهدايا من قبل أبى العباس. وقدمه آخر الأحياء من بين هؤلاء المبعوثين – وهو اليهودى إسحاق – إلى الملك فى آكس لاشابيل Aix la Chapelle ، وكان شارلمان قد تلقى أيضًا آسدًا من أمير تونس الأغالبى.

ويتمثل أهم حدث فى حكم هذا العاهل فى وصول بطريرك القدس عام ٨٠٠ ليهدى الإمبراطور مفاتيح قبر السيد المسيح والتل الذى صلب به، وتعنى هذه المبادرة – بصورة واضحة – طلب حماية كارلونجية للأماكن المقدسة. وفى عام ٨٠٣، اقترحت بعثة شارلمان الدبلوماسية – لدى الخليفة – إرسال ممثليه الخصوصيين فى فرنسا ليحملوا للملك الفرنجى ساعة رائعة. ومن المؤكد أن هذه العلاقات دعمت الحماية الفرنجية وموقفها المتميز فى الأماكن المقدسة.

ويتسنى لنا بهذه الطريقة استخلاص ما يلى:

١ – غياب مصر عن الساحة السياسية الكارولنجية.

٢ – هذه "العلاقات الحميمة" وتلك الهدايا لم تمنع بطريقة بديهية حدوث المواجهة الفظيعة والتى لا يمكن تجنبها، بين الغرب المسيحى والشرق المسلم.

أقام لويس التقى – ابن شارلمان – علاقات طيبة مع العباسيين، ولاسيما مع الخليفة المأمون الذى انتهج سياسة سيئة فى مصر. وبدا آخر الملوك الكارولنجيين عاجزين عن الحفاظ على هذا الوفاق لا مع الشرق فحسب، ولكن مع أوربا أيضًا.

وقد فتح وصول الكابسيون (*) إلى الحكم (٩٨٢ - ١٣٢٣) فصلاً جديداً فى العلاقات مع الشرق ولاسيما مع مصر؛ فقد وجد أوائل الكابسيين صعوبة فى فرض سلطانهم فى فرنسا فى مواجهة كبار الإقطاعيين من جهة وإنجلترا من جهة أخرى. وفى ذلك الحين بدأت العلاقات بين الشرق والغرب فى التدهور، وبدأت أول حرب صليبية عام ١٠٩٩، وانتزع المحاربون الصليبيون القدس من أيدى سادتها وهم المصريون الفاطميون.

(*) الأسرة التى حكمت فرنسا من ٩٨٢ حتى ١٣٢٣

الفصل الثانى

القديس لويس فى مصر
(نشأة أسطورة)

«أمضى القديس لويس، هنا، ثمانية شهور فى
الصلاة، و كان الأجدر به أن يقضيها فى السير
والحرب والاستقرار فى البلاد».

(بونابرت إلى جنده عند استيلائه على الإسكندرية) .

كما حدث فى عهد شارلمان، اضطرت الملكية الكابسية إلى انتهاج سياسة شرقية ولكن فى ظروف أكثر تعقيداً . ومدفوعًا بطموحاته السياسية، شارك فيليب أغسطس مع ريتشارد قلب الأسد فى الحرب الصليبية الثالثة، واستولى الاثنان على عكا عام ١١٩١، وقد أجبرت عودة فيليب أغسطس إلى فرنسا وعدم استقرار السلطة الكابسيين إلى إعادة تقييم الموقف.

ويبدو أن فيليب أغسطس قد أخذ قرار غزو مصر فى فرنسا، وكان الغربيون قد فهموا منذ قرن ونصف أن الحملات المباشرة فى بلاد الشام لم تكن فاصلة، وأنه يتعين إخضاع مصر أولاً.

وقدم فيليب أغسطس مساعداته للحرب الصليبية الرابعة والخامسة الموجهتين ضد القاهرة ... وأجبر الفشل الذريع لهاتين الحملتين الصغيرتين والصراعات الداخلية الكابسيين على التخلى عن هذا الغزو، ونجح حفيده لويس التاسع (الذى أصبح فيما بعد القديس لويس) فى تحقيق مثال الكابسيين الأعلى؛ فقد جهز بعناية فائقة الحرب الصليبية السابعة ضد مصر [1]. وأعلن عن الفكرة فى المجمع الدينى لمدينة ليون فى يوليو ١٢٤٧، ومنحت الكنيسة الامتيازات التقليدية (حصانة سرية للمحاربين الصليبين، إسقاط الديون الخاصة، ... إلخ).

ولم يجد نداء القديس لويس مستمعين له فى أوروبا سوى بعض الفرق النرويجية ووحدة إنجليزية، وفضل العديد من البارونات تعويض غيابهم عن طريق دفع أموال للملك، ولم تأخذ الحرب الصليبية قط الطابع الأوروبى الذى أراده لها الملك المقدس، ومع ذلك فقد تم جمع مبالغ مالية طائلة فى كل أنحاء أوروبا.

وكان القديس لويس قد قرر سلك الطريق البحرى، ولذا فقد أمر ببناء سبع سفن فى مصنع سفن بمارسيليا، وأصدر أمره بتجديد "المونجوا" Montjoie التى أصبحت سفينة أميرالية. كما اشترى سفنًا أخرى من نابولى وجنوة، وأنشأ ميناء إيج مورت Aigues - Mortes ليكون قاعدة للتموين بين الموانئ الفرنسية الأخرى.

كما قام الملك باستعدادات أخرى للحملة؛ ففى عام ١٢٤٦ أبرم مع فريدريك الثانى أمير هوهنستوفن اتفاقية تسمح له بالحصول على أسلحة ومؤن وخيول بثمن معتدل. وفى أغسطس ١٢٤٦، ركب من مينائه الجديد على رأس أسطول عظيم: ٨٣ سفينة و٢٠,٠٠٠ رجل .. وكانت هذه الحملة بمثابة نموذج لبونابرت بعد ذلك بخمسة قرون.

وكانت مصر فى ذلك الحين تعيش فترة من الفوضى السياسية، وأرادت سخرية القدر أن يبلغ فريدريك الثانى - الذى كان قد وقع لتوه اتفاقًا مع القديس لويس - مصر بالنوايا العسكرية لحليفه.

وفى قبرص - حيث اتخذ الجيش الملكى مقره الشتوى - بدأت الاتصالات مع مبعوثى جنكيز، وهو خان المغول الكبير. وقد اقترح جنكيز خان مشروعًا ضخمًا للتحالف العسكرى يقوم بمقتضاه المغول بالهجوم على بغداد، بينما يهاجم المحاربون الصليبيون مصر.

وقد تردد الملك "المقدس" قبل رفض هذا الاقتراح حتى لا يقلص قواته العسكرية أمام المغول الذين كانوا يتمتعون آنذاك بقوة عظيمة، وفى مايو ١٢٤٩ نزل المحاربون الصليبيون ميناء دمياط واستولوا عليه فى الحال. وعلى الرغم من هذا النجاح، رفض ملك فرنسا فكرة سلك سبيل مباشر نحو القاهرة.

وتقدم الجيش ببطء بمحاذاة فرعى مصب النيل، ولكن عندما عسكر أمام مدينة المنصورة فى ٨ فبراير ١٢٥٠، لقى روبير دارتواه Robert d'Artois مع ٣٠٠ فارس حتفه على يد مماليك بيبرس، الذى أصبح فيما بعد سلطان مصر. وقد أدى هذا الفشل بالملك

أن يقرر سحب قواته بعد أن هلك الجزء الأكبر منها على أثر وباء حمى ودزنتاريا. وفى السابع من أبريل، تم أسره مع ١٢,٠٠٠ من رجاله بعد حصار مماليك توران شاه – سلطان مصر الجديد – له فى المنصورة. وفى ١٣ مايو غادر مصر مقابل فدية قدرها ٤٠٠,٠٠٠ قطعة ذهب والانسحاب من دمياط. والجدير بالذكر أن مماليك بيبرس – بعد قتلهم توران شاه – عرضوا السلطنة على القديس لويس، ولكن إزاء تردد الملك، تخلوا عن الفكرة خوفًا من اضطرارهم اعتناق المسيحية.

ويبدو الآن مناسبًا استخلاص بعض النتائج من هذه المحاولة السابقة لأوانها والفاشلة لغزو مصر .

بيان حالة سياسى :

من المؤكد أن المحاربين الصليبين قد كشفوا عن أهمية مصر الجغرافية السياسية. وقبل هذه الحملة، لم ير فرنسيو العصور الوسطى فى مصر سوى مقاطعة بيزنطية استولى عليها الكفار بطريقة غير عادلة، ولكن اعتبارًا من حملة القديس لويس تحولت مصر إلى الأرض المفتاح للمدينة المقدسة.

بيان حالة ثقافى:

انتظرت فرنسا ملكها طيلة ستة أعوام، وعند عودته بدأت قوى الخيال الجماعى للعصور الوسطى ومغزى الأسطورة فى الانتشار. وأصبح أسر القديس لويس فى مصر بالفعل، موضوعًا يستهوى كتّاب وفنانى العصور الوسطى وعصر النهضة؛ فاعتبارًا من هذه الحملة تحديدًا، دخلت مصر فى التاريخ الفرنسى، وقدمها جوانفيل بوصفها أرضًا ذات طابع خاص وفريدة.

وجهز البابا جرجوار العاشر Grégoire X حملة صليبية كبيرة أخرى على مصر، وكان فيليب الثالث، ابن لويس العاشر مصممًا على تحقيق حلم جده، ولكن عمه شارل دانجو Charles d'Anjo قد أقام علاقات وطيدة مع بيبرس سلطان مصر، وأدرك الملك أن حملته غير مقدر لها حظ كبير من النجاح، فألغى الفكرة. وحذا حلفاؤه حذوه، ولكن

بداية حرب المائة عام ضد إنجلترا واعتناق المغول للإسلام واختفاء الدول اللاتينية الصغيرة فى الشرق جعلهم يتخلون نهائيًا عن هذا المشروع.

وأخيرًا فإذا كان لحملة القديس لويس السبق فى كونها أول مشروع لغزو مصر، وإذا كان خلفاؤه لم ينجحوا فى تنفيذه، فقد ظلت الفكرة مثيرة. وإزاء أهمية مصر الاقتصادية المتزايدة فى فترة ما بعد الحملة، فإن طموح فرنسا السياسى لم يتحول عنها حتى حملة بونابرت.

وبالإضافة إلى الحروب الصليبية، هناك عاملان غيرا بصورة جذرية طبيعة القوى بين الشرق والغرب، وبالتالى بين فرنسا ومصر :

١- النهضة الاقتصادية لحوض البحر المتوسط.

٢- ظهور الإمبراطورية العثمانية، كقوة جديدة متعطشة للتوسع.

وكما سنرى، تعد حملة بونابرت النتيجة المباشرة للتهيج المتولد عن هذين العاملين لما يزيد عن ثلاثة قرون، وكان نمو التجارة بين الشرق والغرب فى البحر المتوسط أحد النتائج الإيجابية للحروب الصليبية؛ فبالفعل كانت السفن التى تقل المحاربين الصليبيين تعود محملة بمنتجات هذا الشرق الذى اكتشف مؤخراً: وخلق نقل السجاجيد، والسكر، والبن، وخاصة التوابل نوعًا من العلاقات المنتظمة بين موانئ البحر المتوسط، بل وأبعد من ذلك فى قلب أوروبا وآسيا.

ومن وجهة نظر جغرافية تعد مصر نقطة اتصال بين عالمين: الشرق والغرب، وقد فهم المماليك – حكام مصر ، بعد مقتل توران شاه – هذه الحقيقة الجغرافية السياسية، ولذا فرضوا الضرائب على باقى القوى الاقتصادية، وكلنا يعلم أن نظام ضرائبهم كان قاسيًا شأنه شأن عاداتهم. وعانى التجار الأوروبيون الذين يعملون فى موانئ مصرية مثل الإسكندرية، ودمياط، والسويس طويلاً من إذلال المماليك لهم وكيدهم المرير.

الفصل الثالث

من تجارة الدين إلى دين التجارة

بدأ الأوروبيون فى الفترة التى تمتد من نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر فى التسلل تدريجيًا إلى مصر، وكان هؤلاء التجار الشجعان الذين يصحبهم أحيانًا المبشرون أو العلماء الجغرافيون أول الوجوه الأوروبية غير العسكرية التى التقى بها المصرى. وفى المقابل، فقد أصبح هذا الشخص الذى قابله التجار الأوربيون فى موانئ البحر المتوسط أو البحر الأحمر هو "المصرى" الحقيقى، أى الساكن الذى ترجع أصوله إلى وادى النيل ؛ فهو ليس مملوكيًا ولا بدويًا.

وأدت هذه الطفرة الاقتصادية بين الشرق والغرب إلى إنشاء شركات تجارية كبيرة فى فرنسا، وهولندا، وإنجلترا. وزاد إنشاء هذه الشركات التى كانت غالبًا عملاقة من أهمية مصر زيادة كبيرة؛ فقد انتعش اقتصادها، وأصبح اقتصاداً جد قوى.

"كانت مصر تحتل – على محاور التجارة المتوسطية والتجارة الشرقية – مكانة مميزة بفضل موقعها الجغرافى فى ملتقى قارات ثلاث، وسيطرتها على جزء من طرق التجارة الشرقية، وأخيراً لتمتعها بعمالة يدوية نشطة؛ فعلى سبيل المثال فى مجال إنتاج النسيج حتى نحو منتصف القرن السابع عشر، كانت مصر تصدر النسيج أكثر مما تستورده، وهى حقيقة أساسية يتم أحيانًا إغفالها" (١).

وفى العصور الوسطى زرع المماليك الحدائق الواسعة، وأقاموا القصور المنيفة والمساجد الرائعة ولاسيما فى القاهرة، مما يدل على انتعاش الاقتصاد المصرى آنذاك. وعرفت المدن الساحلية الإيطالية نفس هذا الازدهار الذى شكل – علاوة على ذلك –

أصول الحركة الفنية والفكرية العظيمة التى عرفت بعد ذلك باسم النهضة، وولدت هذه النهضة تقدمًا فى شتى المجالات. وشهد الغرب بالفعل ظهور حضارة جديدة، بينما دخل الشرق فى حالة ركود، ولاسيما بعد اكتشاف البرتغاليين لرأس الرجاء الصالح.

علاوة على ذلك استولى العثمانيون على مصر عام ١٥١٦ فانغلقت على نفسها فى حالة من التعتيم التام لمدة ثلاثة قرون، ولا يقتضى الأمر فى هذا المقام سرد تاريخ الإمبراطورية العثمانية، ولكننا سنشرح، كلما اقتضى الأمر، آثار ظهور هذه القوة السياسية على العلاقات بين مصر وفرنسا.

وكلنا يعلم أن قسطنطينية البيزنطية استسلمت لهجمات العثمانيين فى ٢٩ مايو عام ١٤٥٣ . وبتهديد العثمانيين للغرب المسيحى فى أوروبا وللعالم العربى فى المشرق، تحولوا إلى عامل لعدم الاستقرار السياسى والاقتصادى على الساحة الأوروبية وفى البحر المتوسط. وفى ١٥١٦ وقع حدث مهم: هزيمة المصريين أمام الأتراك على أرضهم الوطنية ودخول العثمانيين منتصرين القاهرة – عاصمة إمبراطورية المماليك.

وبعد عشرين عامًا، نجح فرانسوا الأول François Ier فى إخضاع سليمان الثانى وأجبره على الاستسلام.

وتظهر المراسلات بين فرانسوا الأول والبابا ليون Léon قلق الأول وخوف الثانى عند هزيمة مصر وسقوطها بين أيدى الأتراك.

وكتب البابا: "إذا كان ما كتبه ابن الطاغية – سليمان الثانى – صحيحًا، إذا كان (سليم) قد هزم أعداءه الأزليين فى مصر؛ فالحق أنه قد آن الآوان لنستيقظ من غفوتنا، وأن نقف خوفًا من أن نختنق بينما نحن نائمون وفى حالة سبات عميق" (٢).

واستمرت السياسة الفرنسية فى اعتبار مصر واقعًا دينيًا مزودًا بآخر سياسى واقتصادى مهم.

ومنذ التوقيع على "معاهدات الاستسلام" أخذ دخول الأجانب فى مصر طابعًا أكثر تنظيمًا؛ فقد أعاد تجار مارسيليا فتح الوكالات التجارية الأجنبية فى الإسكندرية ورشيد، ولم يتبعوا بعد ذلك للسلطات الأجنبية ولكن لقناصلهم؛ ففى عام ١٥٦٣ فتحت فرنسا أول قنصلية لها فى الإسكندرية، وهى الفترة التى كف فيها الخلط بين الفرنسيين ومجموع الأجانب المقيمين فى الشرق، ومن ثم تمتعت فرنسا بوضع متميز. علاوة على

ذلك، قام الملك اعتباراً من ١٥٧٠ بتعيين رجاله فى الشرق بنفسه، مشيراً بهذه الطريقة إلى الأهمية التى يوليها التاج الفرنسى لممثليه فى مصر والمشرق.

وشهد منتصف القرن السابع عشر ظهور ما أطلق عليه "خطة المشروع الكبير" للفيلسوف الألمانى الشهير ليبنتز "Leibniz" .

الهوامش

(١) André Raymond, le Miroir Egyptien", sous la direction de Robert Ilbert et Philippe yout-tard), éd. du Quai jeanne lafitte, Marseille 1984, p. 102 .

(٢) J. Ussu, la Politique Orientale de François er (15115 - 1547)éd. Honoré Champion, Paris, 1908, p. 9 .

الجزء الثانى

المشروعات

الفصل الأول

مشروع غزو مصر فى عهد لويس الرابع عشر
(لغز مخطوط ليبنتز)

"تعد الحملة على مصر وسيلة للسيطرة على مصالح عامة وأهم مصلحة يمكن أن تشغل الملك، يمكن أن يوظفها فى مصر تحديداً".

(ليبنتز إلى لويس الرابع عشر)

يعد "مخطوط ليبنتز" لغزاً فى تاريخ العلاقات الفرنسية – المصرية.

ما الموقف الذى اتخذه أبو الجوهر الفرد ومخترع حساب التفاضل فى مجال سحر مصر؟ مم يتكون هذا المخطوط الذى يتحدث الناس عنه كثيراً ولكن دون أن يعرفوا عنه الكثير؟

وقد رأينا، فى الفصول السابقة، ظهور أسطورة مصرية فى الخيال الجمعى الفرنسى منذ أسر القديس لويس وحتى تطور العلاقات بين الشرق والغرب. وفى سياق صراعات دينية بداية، ثم من التنافس التجارى بعد ذلك كان يمكن للأمور أن تسير فى نفس هذا الاتجاه وبنفس درجة الغليان اللذين يؤذنان بظهور مذهب المركنتيليه (*) ، إذا لم تظهر الإمبراطورية العثمانية، على أبواب أوروبا لتبعث من جديد الاستيهامات العاطفية القديمة المتعلقة بالحروب المقدسة بين عالمين لم تضمد بعد جراحهما من أثر سبعة حروب صليبية قاتلة.

(*) مذهب التجاريين ، ولع بالربح (المترجمة).

وكان ليبنتز مشهوراً وهو فى الثامنة عشرة من عمره، وكان حاصلاً على الدكتوراه، عندما انتصرت جيوش الإمبراطورية النمساوية انتصاراً ساحقًا على الأتراك فى سان جوتار. وقد أقنع وجود وحدة عسكرية فرنسية فى ساحة القتال الفيلسوف بأن الوحدة المسيحية - كما استخدم أيضًا تعبير وحدة أوروبية - هى أفضل متراس فى مواجهة الخطر العثماني.

وانبهر ليبنتز بأداء الجنود الفرنسيين، وولع بالارتقاء السريع لملكهم لويس الرابع عشر، ومن ثم كرس نفسه لكتابة نص يدعو إلى "مشروع كبير" أوروبى مسيحى يقوم أساسًا - كما سنرى - على غزو جيوش الملك لويس الرابع عشر لمصر.

ولكن قبل الاستطراد فى عرض قصة هذا النص، يتعين علينا أولاً دراسة حالة الحساسية الفرنسية إزاء مصر فى ذلك الحين.

فغداة وفاة لويس الثالث عشر عام ١٦٤٣، عينت الملكة آن ملكة النمسا مازاران Mazarin رئيسًا للوزراء، وظل يحتل هذا المنصب حتى وافته المنية فى عام ١٦٦١ . وكان أسقف إيطاليا قد استعد لتكوين دولة قوية لملك المستقبل الملك الشمس، وعندما تولى لويس الرابع عشر الحكم، ألغى وظيفة رئيس الوزراء، وعين كبار رجال الدولة من الطبقة البرجوازية، وكان أهمهم كولبير Colbert الذى حل محل فوكيه Fouquet كوزير للمالية، وظل فى الحكم لفترة تجاوزت العشرين عامًا. وقد استطاع إعادة التوازن المالى وتغطية مصاريف الحرب الضخمة، ومول بناء منشآت كثيرة مثل قصر فرساى.

كانت سياسة كولبير الخارجية ناجحة للغاية؛ فقد ربط الوزير النشيط اسمه بسياسة تجارية تقوم على ضرورة زيادة الصادرات إلى الحد الأقصى مع خفض الواردات. ولتحقيق هذه السياسة، اهتم كولبير بتطوير الصناعة ولاسيما فى شكل "مصانع"، وحسن نظام الشركات التجارية الكبيرة وجدد البحرية الملكية ومد الإمبراطورية حتى الهند ولوزيانا.

أوجبت هذه السياسة الطموحة قاعدة، جد كبيرة، من الاستثمارات والبحوث العلمية، وقد شجع الملك الشمس ووزيره مستشرقين مجتهدين للقيام بأبحاث: دوريار Duryer قنصل مصر السابق - وأول من ترجم القرآن (١٦٤٧)، وملشيسيدش سيفونود Melchisedech Thévenot وهو أمين مكتبة الملك، وفاتييه Vattier مدرس اللغة العربية

بمدرسة فرنسا، وأخيراً ديربولو d'uerbelot الذى وضع الموسوعة المسماة: "المكتبة الشرقية" (١٦٩٧).

وقد أرسل هذا الوزير العظيم إلى مصر وآسيا أول بعثة تنقيب أثرية، كما شكل أعضاء هيئة مترجمى الملك للغات الشرقية، وسارع - للمرة الأولى - إلى تقديم صورة عن الشرق أكثر علمية عن صورته فى العصور الوسطى، ففى العصور الوسطى لم تكن مصر سوى مادة للتفكير الميتافيزيقى أو الاستيهامى المرتبط بقصص التوراة؛ فكانت الأهرامات - على سبيل المثال - مخازن قمح سيدنا يوسف فى العهد القديم.

وهناك رجل آخر ساهم فى ظل حكم الملك الشمس - بصورة كبيرة - فى معرفة الشرق العلمية، وهو الأسقف والكاتب الشهير بوسويه Bossuet ؛ فقد تلقى بوسويه تعليماً دينياً تقليدياً لمدة طويلة، ثم أصبح رئيس شمامسة ميتز .Metz وعندما رحل إلى باريس فى عام ١٦٥٩ أخذت حياته مساراً آخر؛ فقد أصبح بعد بضع سنوات الواعظ الأكثر صيتاً فى فرنسا ومعلم ولى العهد الذى عهد به إليه فى ١٦٧٠

وليقوم على أحسن وجه بالمهمة الموكلة إليه، ألّف "خطاب عن التاريخ الكونى العالمى" الذى نشر عام ١٦٨١، وهو نفس عام تعيينه مطران مدينة مو Meaux .

وتناول بالدراسة فى كتابه العناصر الطبيعية التى هيأت عظمة الحضارة المصرية ولاسيما الأرض والنيل، وتحدث عن معارف المصريين فى مجال علم الفلك والطب والهندسة، وحلل اتحاد السياسة والدين وتأثير كل منهما على الآخر، وبعبارة أخرى البديل الأزلى: الفرعون الإله أو الإله الفرعون، وشكل هذا العمل الأساس للنزعة الجديدة التى اتخذتها الإغرابية فى فرنسا فى القرن السابع عشر، وهى إغرابية تقوم على حقائق علمية، ومعارف، ورحلات حقيقية أكثر منها خيالية.

وهكذا - بطريقة لا شعورية - كانت فرنسا تستعد لاكتشاف مصر أخرى، وكانت كتب الرحلات فى ذلك الوقت نادرة، ولكن أظهرت العلاقات السياسية بين التجار والقناصل ورجال الدين أن مصر كانت لؤلؤة التاج العثمانى، وأن سيد هذا البلد هو بالضرورة سيد ثلاث قارات واقتصاد البحر المتوسط كله.

وانطلاقاً من كل هذه المعطيات التاريخية والسياسية والاقتصادية ظهرت خطة "المشروع الكبير" الذى كان يعنى وضعاً لليد على الشرق، وحماية وتحريراً للأماكن المقدسة بالإضافة إلى احتلال بلد الآلهة المقدس، وذلك بغية تتويج كل هذه الخطوات.

وفى هذا السياق وصل ليبنتز إلى باريس عام ١٦٧٢، ومعه – فى أمتعته – مخطوط موجه للويس الرابع عشر، وقد أثار عنوان هذا المخطوط حلم أجيال من المؤرخين ورجال الدولة فى فرنسا وأوروبا، وهذا العنوان هو "مذكرة عن غزو مصر" "Le Consilium Aegyptiacum" .

وأراد لغز التاريخ أنه فى اللحظة التى تطأ فيها قدم ليبنتز الأرض الفرنسية ليعرض مشروعًا عن الوحدة المسيحية، يكون الملك الشمس قد أرسل جيوشه إلى هولندا.

ولم تتم المقابلة بين العاهل والفيلسوف! ومع ذلك فقد أودع المخطوط فى مكتب الملك كما تشهد بذلك المراسلات العديدة بين آرنودى بونبون Arnault de Pamponne، ووزير خارجية الملك والبارون بوانبور Boinebourg وزير ماينس Mayence وحامى ليبنتز.

وقد حاول الفيلسوف فى "مذكرة عن غزو مصر" أن يغوى الملك، بتفصيله لأهمية مصر السياسية والاقتصادية.

وقال: "إذا كانت مصر هى هولندا الشرق، فإن فرنسا هى هند الغرب، وتتفوق مصر ولاسيما بثرواتها الطبيعية على هولندا بنفس قدر تفوق فرنسا على الصين".

ولكن كان لدى الملك الشمس – على النقيض من كل المسيحيين (من يدينون ديانته) – طموحات توسعية، ولذا أخذ رده على ليبنتز شكل رد رجل دولة واقعى، فقد أكد: "هذا المشروع، يا سيد ليبنتز، لا يتوافق مع ذوق العصر منذ زمن القديس لويس".

وبالفعل لم يكن الملك يستشعر الرغبة فى الإساءة إلى الأتراك، الذين كان قد جدد معهم لتوه نص "الاستسلامات".

ومع ذلك، لم يكن مقام ليبنتز فى باريس بلا جدوى؛ فقد أمضى وقته فى الدعوة إلى غزو بلد الفراعنة فى الصالونات والاجتماعات وأثناء استقباله فى أكاديمية العلوم والآداب الجميلة.

ولكن ازدادت الشائعات حول موضوع المخطوط المودع بمكتب الملك، ولما كان الفيلسوف قد تنبأ برفض الملك للمشروع؛ فيبدو أنه أخفى الوثيقة الحقيقية التى تشتمل على ٣٠٠ صفحة تحتوى على الخطوات والخطط اللازمة لغزو مصر، ولم يهتم ليبنتز بتقديم تفاصيل ثمينة ومعلومات للملك طالما أن هذا المشروع لم يلق دعمه ..

وبالفعل، لم يكن المخطوط الذى تسلمه آرنودى بونبون سوى ملخص من خمسين ورقة. بيد أن مكتبة هانوفر كانت تضم نسختين من هذه الوثيقة المكتوبة باللغة اللاتينية، وقد أرسل ممثل نابليون فى هانوفر العقيد إدوار مورتيه Edouard Mortier إليه بواحدة منهما بعد ذلك بما يزيد عن قرن.

وانتشرت الإشاعات حول مشروع ليبنتز، بالفعل اعتباراً من ١٧٩٧ – أى قبل عام من حملة بونابرت فى مصر – حتى اتهم الإنجليز نابليون فى ١٨٠٢ – بعد استسلام جيشه فى مصر بانتحاله للمشروع.

والمؤكد أن بونابرت كان على علم بوجود هذا المشروع، ولكنه لم يقرأه إلا فى ١٨٠٣؛ فقد طلب فى ذلك الحين من صديقه مونج العظيم – الذى كان كبير علماء الحملة الفرنسية – ترجمته وتلخيصه.

وفى ١٨١٥، أودع مونج المخطوط فى مكتبة المعهد مع مراسلات نابليون ومورتيه.

وبعد ذلك بخمسة وعشرين عاماً، قدم جروهراور Gruhrauer – وهو علامة ألمانى مولع بليبنتز – إلى نفس المعهد أبحاثًا مهمة حول "مذكرة عن غزو مصر" بالإضافة إلى ترجمة غير كاملة، ولم تتم ترجمة المذكرة كاملة إلا فى عام ١٨٤٢ عندما نشرها عضو الأكاديمية الفرنسية فاليه دى فيريفيل Vallet de Viriville فى عدد "جريدة الاستقلال" Re-vue indépendance الصادرة أول مارس عام ١٨٤٢ .

ونقوم بدورنا بنشر هذه الترجمة اليوم فى ملحق الكتاب.

ومازال بعض الغموض يحيط بقصة هذا المخطوط: مثل ما يرويه بعض الباحثين عن موقف أمناء مكتبة هانوفر ورغبتهم فى إخفاء المخطوط وعدم تقديمهم لإدوار مورتيه وغيره من الفضوليين إلا ملخصات. ومن ناحية أخرى لم يعثر المؤرخون والباحثون قط على المخطوط الذى تم إيداعه فى مكتب لويس الرابع عشر ولا جواب على السؤال الذى ثار عن وجود المخطوط نفسه. كيف استطاع ليبنتز – فى هذه الحقبة – جمع هذا الكم من المعلومات والخرائط والرسومات عن مصر؟

الفصل الثانى

مشروع الغزو فى عهد لويس الخامس عشر ولويس السادس عشر

(البارون دى توت Le Baron de Tott «جاسوس» فرنسى فى الشرق)

لم يتم تنفيذ خطة ليبنتز فى عهد لويس الرابع عشر، ولكنها استهوت لفترة الملك لويس الخامس عشر؛ فقد أراد هذا الأخير نقل عامود السوارى من الإسكندرية إلى باريس ليضعه فى أحد ميادين العاصمة.

وكانت حرب السنوات السبع بين فرنسا وإنجلترا (١٧٥٦ - ١٧٦٣) قد انتهت بمعاهدة باريس عام ١٧٦٣، والتى قضت بمنح الإنجليز الجزء الأكبر من المستعمرات الفرنسية فى العالم الجديد (كندا والهند) بالإضافة إلى السنغال، وقد تأثرت فرنسا كثيراً من جراء هذه الهزيمة، وسعت إلى استفزاز أعدائها التقليديين على جبهات أخرى، وكانت إنجلترا حتى ذلك الحين بعيدة عن التفكير فى مصر، وجذبت فرنسا انتباهها نحو هذا البلد باتخاذها قرار قطع الطريق الذى يربطها بالهند التى تعد جوهرة التاج البريطانى.

وفى نفس الحقبة تضاعفت الرحلات، كما تطور البحث العلمى، واتخذ دور القناصل طابعاً سياسياً أكثر منه تجارياً. وأذاع فلاسفة ذوو اتجاهات متناقضة صيت مصر، وحللوا مبادئ الحضارة والسلطة القائمة فيها، ولاسيما ظاهرة الطغيان المعممة - كما سنرى بعد قليل - فى كتابات فولتير Voltaire . وسيطرت على وزير خارجية لويس الرابع عشر الدوق شوازيل Choiseul الشهير فكرة غزو مصر، وأصدر تعليماته عدة مرات لفيرجين Vergennes سفيره فى تركيا لإعداد دراسة عن سقوط الإمبراطورية العثمانية المحتمل وسبل الإفادة منه.

ويبدو أن فيرجين لم يرحب بهذه الفكرة، وقام خليفته فى القسطنطينية سان بريست Saint - Priest بالدور الأهم فى هذا المشروع، وأرسل إلى رئيسه تقارير مهمة عن حالة الإمبراطورية العثمانية ومزايا إرسال حملة إلى مصر.

وبعد نفى شوازيل ووفاة لويس الخامس عشر، احتفظ السفير سان بريست بوظيفته فى ظل حكم لويس السادس عشر، وقدم تقارير عديدة تؤكد أهمية إرسال حملة إلى مصر وضرورته. بيد أن لويس السادس عشر ووزيره فيرجين رفضاها من جديد، وحكما عليها بأنها سابقة لأوانها.

وقال فرنسوا شارل رو François Charles - Roux : "بتوقع سقوط الإمبراطورية العثمانية؛ إذ إن سان بريست هو السفير الذى اختاره وعينه شوازيل، وبالإضافة إلى أن مهمته فى القسطنطينية قد امتدت لمدة ثلاثة عشر عاماً بعد سقوط الوزير الذى عهد إليه بها. ويتعين اعتباره متفقًا حول مسألة الشرق وسياسة فرنسا فى الشرق مع الوزير الذى عينه فى هذا المنصب، والذى كان له معه قبل تركه لمنصبه حوارات سرية وتبادل وجهات نظر مصحوبة دائمًا تسليم أوامر كتابية" (١).

وكان سان بريست مؤمنًا بأنه فى حالة سقوط الإمبراطورية العثمانية ستستفيد كل من النمسا وروسيا وإنجلترا، وأن هذا القسم سيهدد الموقف التجارى المميز لفرنسا فى مراكز الشرق. والتعويض الوحيد الذى كان يمكن أن يناسب فرنسا، كان فى رأيه اختيار مصر كتعويض. وفى تحليل فرنسوا شارل رو لسياسة سان بريست، رأى أن دوافع هذا السفير النشيط كانت متعددة الجوانب: جغرافية واقتصادية وحتى دينية، وذلك عندما تحدث عن "ذكرى حرب القديس لويس الصليبية" (٢)، شأنه فى ذلك شأن ليبنتز الذى تحدث عنها مرارًا فى المذكرة التى قدمها للويس الرابع عشر. والمثير هو أن وزير خارجية هذا الأخير وسفراءه لم يكونوا الوحيدين الذين اهتموا بمصر، ولكن هناك أيضًا وزير بحريته. وفى أواخر عهد لويس الخامس عشر، كلف الكونت دى بوان De Boynes سكرتيره بإعداد تقرير عن الموقف فى الشرق، وبالفعل أعد دراسة جادة حلل فيها مرة أخرى ضعف الإمبراطورية التركية وضرورة احتلال مصر.

وقال: "وبناءً على هذه الفرضية، أقترح غزو مصر كخطة محتملة، مع ذلك يجب أن تجذب الآن، اهتمام الحكومة كله، وذلك بغية مناقشة مزايا وعيوب هذا المشروع، ولم أتمكن اليوم – لضيق الوقت – من الدخول في أي تفصيل حول المزايا التي يقدمها غزو مصر. ولم يرد مولاي سوى الاستماع إلى عرض بسيط وموجز لأسلوب تفكيري حول الموقف الذي يتعين على فرنسا اتخاذه في الحالة المتوقعة لثورة في الإمبراطورية العثمانية. وإذا بدا أسلوب تفكيري له في حاجة إلى تعميق، سأتناول المسألة بصورة أكثر اتساعًا، وسأكتفي بأن أجعله يلحظ بصفة عامة أن غزو مصر يقدم لي الوسيلة الأكثر ضمانًا لإفشال، أو على الأقل لإقامة نوع من التوازن أمام الرؤى الطموحة لروسيا وإنجلترا، لتتحكم فرنسا بصورة طبيعية في تجارة الهند دون إطلاق النار، وليسيطر آل بوربون على إمبراطورية البحر المتوسط وأخيراً لإقامة مستعمرة تنتج السكر والنيلة، مستقلة عن أمريكا وعن القدر الذي يمكن أن يجهزه المستقبل لأوروبا فيما يخص العالم الجديد. وسأضيف فقط أن احتلال مصر لا تعترضه صعوبات كبيرة، إذا ما اقتصر الأمر على هزيمة المماليك والأتراك الموجودين فيها، ولكن الصعوبة تكمن في الحفاظ على هذا البلد، وهو أمر يتعين النظر إليه قبل الشروع في الغزو، حتى لا نتعرض في لحظة لخطر فقد ثمرة العناية والمصاريف" (٣).

وأخيراً، في عهد لويس السادس عشر، تعطل ملف مصر بين وزير خارجية فرنسا ووزير بحريتها. واتفقت التقارير الواردة من القسطنطينية ومراكز الشرق التجارية وحتى من مصر في الدعوة إلى مشروع الغزو، وتغير الوضع تمامًا عندما قدم بارون يدعى توت Tott – وهو سياسي فرنسي ورحالة ومغامر وعارف أيضًا بأمور الشرق – في ١٧٧٦ إلى فيرجين مذكرة تفصيلية وطموحة تحت عنوان "دراسة لشكل الإمبراطورية العثمانية وسياستها والرؤى التي تحددها بالنسبة لفرنسا". ولما كان البارون على دراية – على ما يبدو – بضعف إرادة فيرجين، قدم نسخة من مذكرته لوزير البحرية الكونت دي سارتين De Sartine، وهو خليفة الكونت دي بوان. ولاهتمام سارتين بالفكرة، كلف سكرتيره بالوزارة سان ديديه Saint Didier الشهير بتقديم تحقيق كامل عن المشروع، ولأن الفكرة لم تكن غريبة عنه، فقد سارع هذا الأخير بتجهيز مذكرة تحمل عنوان: "رؤى عن مصر".

وكلف وزير الحربية البارون دي توت بالمهمة، فرحل إلى مصر في سرية تامة ليدرس على أرض الواقع إمكانية إرسال حملة كبيرة، وسيطر المشروع على فكر الكونت

دى سارتين فأرسل عدداً من العملاء لنفس هذا الغرض فى بلدان البحر الأحمر، مع إقامة الاتصالات مع دبلوماسيين آخرين تستهويهم الفكرة مثل القديس بربيست.

ويبدو مفيداً - فى هذا الصدد - ذكر بعض موضوعات الدراسة التى اقترحتها باريس، وأرسلتها إلى بعض مبعوثيها فى القاهرة:

١ - يبدو أن أفضل موقع للنزول من السفن على طول الساحل بين دمياط والإسكندرية يقع بالقرب من الإسكندرية. ومن الواضح أنه يقع بالتحديد بين هذه المدينة وأبو قير، ولذا يتعين الحصول على معلومات أكيدة عن كل هذه المنطقة من الساحل ومعرفة إلى أى مسافة يمكن للسفن الاقتراب منها، ومعرفة مدى الصعوبات التى ستواجهها الزوارق، وإلى أى درجة يعلو الساحل عن البحر.

٢ - معرفة إذا ما كان هذا الساحل مكشوفًا أو متصلاً أو إذا ما كان يمكن أن يوفر غطاءً مميزًا لمن يريدون حمايته، وذلك عن طريق وجود أخوار أو أودية صغيرة أو كثبان أو غابات أو سياج أو منازل، وذلك لأنه عند الوصول أمام الميناء يمكن للوقت أن يؤجل الإنزال مما يهيئ الفرصة للأعداء للتجمع بين الإسكندرية وأبو قير لمنع الزحف.

٣ - الحصول على خريطة للإسكندرية وشوارعها وحرمها وطبيعة الأرض التى تحيط بها وإذا كانت متصلة أو منفصلة أو منحدرة، مغطاة أو مكشوفة، خصبة أو جدباء [٤].

وتعكس هذه الأسئلة اهتمامات حكومة لويس الرابع عشر وقلقها إزاء موضوع هذا المشروع. وفى عام ١٧٧٧، أودع البارون دى توت فى فرساى تقريره، مشفوعًا بخطة للعمليات الحربية. ومن ثم يمكننا اعتبار البارون النشيط أول "جاسوس" فرنسى فى مصر، وتتسم خطة عملياته العسكرية بالدقة المدهشة، كما تتسم تصوراته عن القوى السياسية القائمة فى معظم الأحيان بالصحة. والحق أننا نجهل الكيفية التى قدرت بها حكومة الملك التقرير، وكذلك فحوى مداولات أعضاء المجلس، فقد أحيط كل ما يتعلق بهذا الموضوع بسرية تامة، ويمكن تفسير هذا الموقف بحذر الحكومة الفرنسية إزاء الإنجليز، ويمكن أن يكون هذا الموقف نوعًا من الأمل فى التحقيق المحتمل للمشروع فى وقت أفضل.

وختامًا، لم يكن لتقرير توت - الذى تم اعتباره سرًا من أسرار الدولة - نفس صدى مشروع ليبنتز الذى يعد دراسة فلسفية أكثر من كونه نصًا سياسيًا.

ويبدو لنا أن رجالاً من نوع سارتين أو القديس ديديه أو باحثًا مثل توت كان عليهم التوجه بالحديث إلى ملك طموح مثل لويس الرابع عشر. أما لويس السادس عشر، فنحن لا نعتقد أنه كان من الممكن أن يرفض المشروع بيد أن المعطيات السياسية لذلك الحين لم تكن لتسمح بتوفير أنصار له سواء في فرنسا أو في أوروبا.

ونفذ بونابرت كل هذه المشروعات عندما نزل في الإسكندرية صباح الأول من يوليو عام ١٧٩٨ .



الفصل الثالث

نابليون فى مصر
(نور المدافع وحكم المصريين)

بونابرت: العزة لله! لا إله إلا الله، محمد رسول الله ، وأنا من أصدقائه.

إبراهيم: لتكنس ملائكة النصر التراب على طريقك ، ولتغطك بأجنحتها! واستحق المملوك الموت:

شاتوبريان Chateaubriand

Mémoires d'outre - Tombe, 1848

كيف كان يمكن لأسطورة نابليون أن تكون دون مصر؟ والحق، نادراً ما يقيم المؤرخون علاقة بين بونابرت حاكم مصر، ونابليون إمبراطور فرنسا . وبالفعل راق لقائد جيوش الشرق بصورة قاطعة فى مصر الحكم السياسى ومزايا حكم أمة، والأهم من ذلك دفعها نحو الحداثة. وقبل دراسة مغامرة نابليون المصرية، لنعد قليلاً للخلف لمتابعة الأحداث والأبحاث عن مصر بعد مشروع ليبنتز ومهمة توت.

فقد أثار اندلاع الثورة الفرنسية وإعلان الجمهورية، بعد اثنى عشر عاماً من تقرير توت الغامض، عداء أوروبا تجاه فرنسا .

وحقق جنود العام الثانى مراراً النصر على قوات التحالف، أما إنجلترا فقد ظلت منيعة؛ فقبل ذلك جرحت هزائم حرب السنوات السبع وخسائرها الفادحة وطنية الفرنسيين وسلطتهم.

وقررت حكومة المديرين (١٧٩٥ - ١٧٩٩) ضرب إنجلترا فى قلب إمبراطوريتها البحرية.

وقد تم تكليف بونابرت - قاهر النمساويين والإيطاليين - بتجهيز حملة على مصر فى سرية تامة. والحق أننا لا نعلم إذا ما كان هو الذى دفع حكومة المديرين نحو هذا المشروع، أو أن الحكومة هى التى اقترحت على الجنرال الشاب فكرة هذا الغزو، لإرساله بعيداً وإشباع طموحاته، وربما لإقصائه نهائيًا من الساحة السياسية.

وقد أثر عاملان على سرعة تطوير الأحداث بين قطبى اللعبة السياسية آنذاك: دور تاليراند Talleyrand وتفاقم العلاقات بين فرنسا الجمهورية وإنجلترا عدوتها المنيعة، وذلك بالإضافة إلى التحالفات الأوروبية.

فعندما تولى تاليراند وزارة الخارجية، وجد مجموعة من التقارير والتحقيقات حول موضوع مصر، كان أقدمها تقرير ليبنتز فى عهد لويس الرابع عشر.

ويقول بونوا ميشان Benoit Méchin : "لقد لاحت له على الفور الفائدة التى يمكن جنيها. وكما يقال كانت الفكرة فى الهواء، ولم يكن لازمًا لتنفيذها سوى تحين الوقت المناسب". (٥)

وفى ١٣ فبراير عام ١٧٩٨ قدم لحكومة المديرين "تقريراً حول موضوع مصر"، وبغية توعية الأعضاء بدأ تقريره بسلسلة من المتناقضات:

- أدى غزو الرومان إلى انحطاط مصر - هذا البلد الجميل - أما غزو الفرنسيين له فسيكون سببًا فى رخائه.

- اغتصب الرومان مصر من ملوك مشهورين فى مجال الفنون والعلوم، ... إلخ، أما الفرنسيون فسيأخذونه من أسوأ طاغية فى التاريخ.

- تغذت حكومات فرنسا لفترة طويلة بمشروع الغزو، ولكنها كانت أضعف من تحقيقه.

ومن جانبها لم تكن حكومة المديرين قادرة على مواجهة الأزمات الاقتصادية المتزايدة، وكانت بحاجة إلى تحويل اهتمام الشعب عن المشكلات الداخلية، وبحثت الحكومة عن رجل عسكرى لتنفيذ هذا المشروع، وكان المرشح الوحيد ذلك الجنرال الشاب الذى كان الناس يمدحونه علانية ويبغضونه سراً. وكان بونابرت قد استخلص، منذ وقت طويل، الكراهية المقنعة التى يحملها أعضاء حكومة المديرين له، وكان قد وصفهم "بالعجزة" و"الحسودين".

وهكذا كان على بونابرت تجسيد حلم فرنسا القديم فى الغزو، والذى يرجع إلى قرنين من الزمان. ولم يكن يستشعر بانجذاب خاص تجاه مصر حتى ذلك اليوم الذى قابل فيه فى كورسا Corse عام ١٧٩٢ – الأديب المغامر فولنى Volney ، وكان فولنى قد حقق نجاحًا عظيمًا عند نشره عام ١٧٨٧ لكتابه "رحلة فى مصر وسوريا"، وكان يتحدث فيه عن رحلته البحرية فى هذين البلدين، وكان هذا الكتاب يقدم بالفعل تقريراً مفصلاً عن مصر وشعبها متضمنًا تفاصيل مدهشة تتناول حتى أنواع التجارة الصغيرة، وجيشها المملوكى، وأقلياتها، ودفاعاتها، واقتصادها ... إلخ.

ومما لاشك فيه أن وصف فولنى لوادى النيل قد دفع بنابليون إلى الحلم، كما استخدمه جنود جيش الشرق بعد عشر سنوات كمرشد لهم ...

وأصبح فولنى أحد الأصدقاء المقربين لنابليون، وقد شرع نابليون يلتهم بنهم كل الأعمال المتوفرة عن الشرق عمومًا وعن مصر خاصة؛ فقد قرأ "خطابات" سفارى Sa-vary ، و"محمد" لفولتير، والقرآن والإنجيل، وتقارير القناصل، ولاسيما تقارير ماجلون Magallon وشوازيل جوفييه Choiseul - Gouffier ، واستكمل قراءاته عن مصر فى السفينة الإمبراطورية "الشرق"، وهو فى طريقه إلى مصر.

ومع ذلك فمن بين كل قراءاته ظل كتاب فولنى بالنسبة له مرجعًا بامتياز على الرغم من الصورة القاتمة – ورغم اتسامها بالواقعية – التى كان يعطيها عن مصر، وكان كتاب سفارى Savary (١٧٥٠ – ١٧٨٨) المعنون "خطابات عن مصر" يرسم صورة رومانسية وأنيقة عن مقامه فى مصر (١٧٧٧) وعن البلد نفسه. وسريعًا ما توارى الكتاب ومؤلفه بداية بسبب وفاة مؤلفه المفاجئة ثم بسبب نجاح كتاب فولنى. وتقول الأسطورة إن بونابرت قد أصدر الأوامر لجنرالاته بقراءة كتاب فولنى ولجنوده بقراءة كتاب سفارى.

وعندما عينت حكومة المديرين – في السادس والعشرين من أكتوبر ١٧٩٧ – بونابرت قائداً عاماً "لجيش إنجلترا"، رفض بونابرت قيادة جيش لا يبدو له أرقى مستوى من جيش البريطانيين. وقد أدى رفضه إلى تفاقم العلاقات – التى كانت فى الأصل متوترة – مع الحكومة، وقد دفع ذلك الرفض تاليراند إلى تقديم حل توفيقى وجه اختيار الحكومة نحو شن الحرب لا ضد أيرلندا، ولكن ضد مصر.

ففى الأول والثانى من مارس ١٧٩٨ خلال جلستين لم تذكر المحاضر موضوعها، قررت حكومة المديرين التنفيذية تأجيل مشروع الحملة على السواحل الإنجليزية، ودرست مبدأ حملة على مصر. وفى الخامس من مارس قدم نابليون إلى الحكومة مذكرة تفصيلية حول عدد القوات والتسليح والوسائل المالية التى تبدو له لازمة لتحقيق النصر، وفى اليوم نفسه تم اتخاذ قرار الحملة" (٦).

وعلى الفور وفى سرية تامة عمل بونابرت بهمة لتجهيز جيشه الذى كان سيقوده مقتفياً أثر الإسكندر الأكبر ويوليوس قيصر والقديس لويس.

وفى التاسع عشر من مايو ١٧٩٨، اتجه أسطول كبير مكون من مائتى سفينة وحوالى ثلاثين ألف رجل عرض البحر. وبعد أربعين يوماً وبعد هزيمة مالطا السريعة، وصل الأسطول ميناء الإسكندرية. ولنعط الكلمة للمؤرخ المصرى عبد الرحمن الجبرتى (٧) الذى يعد المصرى الوحيد الذى قدم للتاريخ تأريخاً للحملة باللغة العربية، وقد وصف ذعر الشعب عند اقتراب "الفرنسيس" من القاهرة وعلى رأسهم زعيمهم الذى يدعى "بونابرت".

"وخرج أعيان الناس وأفندية لوجاقات وأكابرهم ونقيب الأشراف، وبعض المشايخ القادرين، فلما عاين العامة والرعية ذلك اشتد ضجرهم وخوفهم، وتحركت عزائمهم للهروب واللحاق بهم، والحال أن الجميع لا يدرون أى جهة يسلكون، وأى طريق يذهبون، وأى محل يستقرون، فتلاحقوا وتسابقوا وخرجوا من كل حدب ينسلون، وبيع الحمار الأعرج أو البغل الضعيف بأضعاف ثمنه، وخرج أكثرهم ماشياً أو حاملاً متاعه على رأسه وزوجته حاملة طفلها، ومن قدر على مركوب أركب زوجته أو ابنته ومشى هو على أقدامه، وخرج غالب النساء ماشيات حاسرات وأطفالهن على أكتافهن يبكين فى ظلمة الليل، واستمروا على ذلك بطول ليلة الأحد وصبحها، وأخذ كل إنسان ما قدر على حمله من مال ومتاع" (٨).

ويصف لنا المؤرخ الأزهرى اللقاء الأول بين الجنود الفرنسيين وسكان القاهرة :

"ولما عدى كبيرهم وسكن بالأزبكية كما ذكر، استمر غالبهم بالبر الآخر، ولم يدخل المدينة إلا القليل منهم، ومشوا فى الأسواق من غير سلاح ولا تعد بل صاروا يضاحكون الناس، ويشترون ما يحتاجون إليه بأعلى ثمن، فيأخذ أحدهم الدجاجة، ويعطى صاحبها فى ثمنها ريال فرانسه، ويأخذ البيضة بنصف فضة قياسًا على أسعار بلادهم، وأثمان بضائعهم؛ فلما رأى منهم العامة ذلك أنسوا بهم، واطمأنوا لهم، وخرجوا إليهم بالكعك وأنواع الفطير والخبز والبيض والدجاج، وأنواع المأكولات، وغير ذلك: مثل السكر والصابون والدخان والبن، وصاروا يبيعون عليهم بما أحبوا من الأسعار، وفتح غالب السوقة الحوانيت والقهاوى" (٩).

وتشكل هذه الانطباعات الأولى بصورة لا تقبل الجدل أول بريق ألقته الحضارة الغربية على ضفاف النيل، وهذه الاتصالات الخجولة تحولت بعد عدة أيام إلى نقطة انطلاق لاشعورية لساغة (*) كبيرة بين المصريين والفرنسيين تداخلت فيها المصالح الاقتصادية والسياسية والتأثيرات الثقافية. ولنقرأ أيضًا ما يرويه الجبرتى عن حالة مدينة القاهرة بعد بضعة أيام من وصول العسكريين إلى مصر:

"ثم إن عساكرهم صارت تدخل المدينة شيئًا فشيئًا، حتى امتلأت منها الطرقات، وسكنوا فى البيوت، ولكن لم يشوشوا على أحد، ويأخذون المشتروات بزيادة عن ثمنها، ففجر السوقة وصغروا أقراص الخبز وطحنوه بترابه، وفتح الناس عدة دكاكين بجوار مساكنهم يبيعون فيها أصناف المأكولات: مثل الفطير والكعك والسمك المقلى واللحوم والفراخ المحمرة، ... وغير ذلك.

وفتح نصارى الأورام عدة دكاكين لبيع أنواع الأشربة وخمامير وقهاوى، وفتح بعض الإفرنج البلديين بيوتًا يصنع فيها أنواع الأطعمة والأشربة على طرائفهم فى بلادهم، فيشترى الأغنام والدجاج والخضارات والأسماك والعسل والسكر وجميع اللوازم، ويطبخه الطباخون، ويصنعون أنواع الأطعمة والحلاوات، ويعمل على بابه علامة لذلك يعرفونها بينهم، فإذا مرت طائفة بذلك المكان تريد الأكل دخلوا إلى ذلك المكان.

(*) حكاية تاريخية أو ميثولوجية من الأدب السكنديناڤى.

وهو يشتمل على عدة مجالس دون وأعلى. وعلى كل مجلس علامته، ومقدار الدراهم التى يدفع الداخل فيه، فيدخلون إلى ما يريدون من المجالس وفى وسط دكة من الخشب، وهى الخوان التى يوضع عليها الطعام، وحولها كراسى فيجلسون عليها، ويأتيهم الفراشون بالطعام على قوانينهم، فيأكلون ويشربون على نسق لا يتعدونه، وبعد فراغ حاجتهم يدفعون ما وجب عليهم من غير نقص ولا زيادة ويذهبون لحالهم" (١٠).

ولكن كانت أعظم أعمال الفرنسيين فى القاهرة هى إنشاء "الديوان"، وهو مجلس يحكم المدينة، يتكون أعضاؤه من الأعيان وشيوخ الأزهر. وللمرة الأولى منذ قرون يقوم رجال من أصول مصرية بإدارة بلادهم بدلاً من الأتراك والمماليك، وشكل ذلك - دون جدال - نقطة انطلاق حركة قومية مصرية شكلت بعد ذلك عملية تحديث البلد منذ محمد على وحتى ناصر. وبالنسبة لمحمد على، فقد كانت علاقاته مع نابليون بونابرت وخلفائه عميقة للغاية وتتسم بالعاطفية وحتى بالبنوة؛ حتى إنه فى عام ١٨٤٨، عندما شاخ محمد على وعانى من أزمة جنون الشيخوخة، ادعى إرسال جيوش مصرية إلى فرنسا لاستعادة عرش صديقه لويس فيليب Louis-Philippe . ولم ينس نائب الملك أنه قبل ذلك بعدة سنوات قام بإهداء مسلة الأقصر لملك الفرنسيين كعنوان للصداقة الحميمة التى تربط بين الشعبين.

وفى هذا الصدد، يستحق ناصر بعد هذا التاريخ بمائة عام عناية خاصة؛ فالحق أن أبا القومية المصرية والعربية كانت له "فكرة خاصة" عن بونابرت.

فناصر الرجل الذى جسد لمدة عشرين عامًا المقاومة ضد الغرب عامة وفرنسا بصفة خاصة، كان أحد كبار المعجبين بالثورة الفرنسية ومدركًا للدور الذى اضطلع به نابليون فى تحديث مصر. وكتب فى شبابه رواية بعنوان "ثمن الحرية" مستوحاة بدرجة كبيرة من رواية "عودة الروح" لمؤسس الأدب العربى الحديث توفيق الحكيم، وقد اعترف ناصر نفسه لتوفيق الحكيم بإعجابه بأعماله وهو كما نعلم شديد الحب لفرنسا. وبعد ثورة ١٩٥٢، كان ناصر يسعد بعقد المقارنة بين الثورتين الفرنسية والمصرية ليؤكد الطابع الدموى للأولى خلافًا للثانية التى كانت كما - يطلق عليها - ثورة "بيضاء"، وكان يعرب بطريقة طبيعية عن إعجابه بقيم "الثورة الفرنسية"، ولاسيما مبادئها المتعلقة بالإخاء والمساواة والحرية.

"عندما عرف الجنرال ديجول اتخاذه لموقف، فإنه لم يقم فى رأينا سوى بتطبيق الأهداف التى كانت فى الأصل أهداف الثورة الفرنسية" (١٠).

بيد أن أكثر الوثائق التى تظهر حكم ناصر على حملة بونابرت هى "الميثاق الوطنى" الصادر عام ١٩٦٢ ؛ فقد اعترف فيه بالطابع المفيد للحملة على مصر، مع وصفه لها بأنها "محتلة" و"استعمارية"، كما يرفض فى الميثاق أيضًا رأى المؤرخين الذين يرجعون الصحوة القومية المصرية إلى حملة بونابرت فقط ، ويقول فى الميثاق: "لم تكن الحملة الفرنسية على مصر فى مطلع القرن التاسع عشر هى التى صنعت اليقظة المصرية فى ذلك الوقت – كما يقول بعض المؤرخين – فإن الحملة الفرنسية حين جاءت إلى مصر وجدت الأزهر يموج بتيارات جديدة تتعدى جدرانه إلى الحياة فى مصر كلها، كما وجدت أن الشعب المصرى يرفض الاستعمار العثمانى المقنع باسم الخلافة، والذى كان يفرض عليه دون ما مبرر حقيقى تصادمًا بين الإيمان الدينى الأصيل فى هذا الشعب وبين إرادة الحياة التى ترفض الاستبداد.

لقد وجدت هذه الحملة مقاومة عنيفة لسيطرة المماليك وتمرداً مستمراً على محاولاتهم لفرض الظلم على الشعب المصرى (...).

على أن الحملة الفرنسية جاءت معها بزاد جديد لطاقة الشعب الثورية فى مصر فى ذلك الوقت. جاءت ومعها لمحات عن العلوم الحديثة التى طورتها الحضارة الأوروبية بعد أن أخذتها عن غيرها من الحضارات، والحضارة الفرعونية والعربية فى مقدمتها.

كذلك جاءت معها بالأساتذة الكبار الذين قاموا بدراسة أحوال مصر وبالكشف عن أسرار تاريخها القديم" [١١].

وفى الواقع، يعتبر غالبية المصريين فى القرن العشرين أن أعمال نابليون فى مصر كانت ذات طابع تجديدى، ولا يقتصر ذلك على المجال العلمى فحسب، ولكن يظهر هذا الطابع بصفة خاصة فى الروح الجديدة التى منحتها هذه الأعمال للقومية المصرية بعد قرون اضطرت مصر خلالها إلى الانصهار داخل الكتلة العثمانية.

ويرى هؤلاء المؤرخون أيضًا أن أعمال محمد على، سواء فى مجال التحديث على الطراز الفرنسى أو فى مجال سعيه وحروبه لانتزاع استقلاله من الباب العالى، لم تستهدف سوى زرع جذور الأفكار الداعية إلى القومية التى بذرها نابليون فى مصر.

ولكن فيما يتعلق بأصول القومية المصرية، فقد شهدت الخمسينيات والستينيات ازدهار مشاعر أخرى ترفض قصر رد هذه الأصول إلى نابليون، وتعتبر أن مصر كانت

بالفعل مستعدة لهذه الانتفاضة القومية قبل بونابرت، وإلا فكيف يتسنى لنا فهم وتفسير التمردات الدامية لأهل القاهرة ومحافظات أخرى فى مواجهة الجيش الفرنسى؟ وعلاوة على ذلك، كيف يتسنى لنا قصر دور الأزهر على اعتباره مجرد مؤسسة دينية، بينما هو فى الواقع المكان الذى تلقى فيه شيوخه الأجلاء التعليم ودرسوا للطلاب، كما قاد هؤلاء الشيوخ أنفسهم فى عهد محمد على عملية تحديث البلاد؟

ومؤخراً، وافق المستشرق الفرنسى الكبير أندريه ريمون على نفس هذا الرأى (فى حديث مع الأهرام إبدو بتاريخ ١٩٩٧/٤/٢٢ - عدد ١٣٧). ونحن نعرف أن نابليون كان يخطط لمشروعات كبيرة لمصر: قناة السويس، سد على النيل، رخاء زراعى ... إلخ. وقد تحولت كل هذه المشروعات إلى حقيقة بعد عودته إلى فرنسا ببضع سنوات.

وكما فعل القديس لويس فى زمنه، اجتر نابليون ذكرياته فى مصر خلال منفاه فى سانت هيلانة Sainte Hélène .

ويقول نابليون: "كنت أشعر وأنا فى مصر أننى متحرر من قبضة حضارة مزعجة. كنت أحلم بكل شىء .. كنت أبتدع ديانة، وكنت أرى نفسى على الطريق صوب آسيا وأنا أركب فيلاً وفوق رأسى عمامة وفى يدى قرآن جديد ألفته وفقًا لهوى نفسى. وكان من المفترض أن أجمع فى مشروعاتى تجارب العالمين، بعد أن أكون قد نقبت لتحقيق مصالحى فى مجال كل التواريخ، وأهاجم قوة الإنجليز فى الهند لأعيد بهذا النصر علاقاتى مع أوروبا القديمة. لقد كان الوقت الذى أمضيته فى مصر أجمل أوقات عمرى؛ لأنه كان بمثابة المثل الأعلى" (١٢).

وانتهى هذا المشروع الذى تم إجهاضه إلى التحول إلى حلم عظيم اعتباراً من الأجيال التالية.

ورسم فيكتور هوجو Victor Hugo نطاق هذا الحلم فى "شرقيات" "Les Orientales":

فى النيل، أجدنى لا أزال أراه

تتألق مصر بأنوارسناه

وسطع كوكبه الإمبراطورى فى الشرق ..

فاتحًا، متحمسًا، محاطًا بالجاه

معجزة، فأذهل الأرض بالمعجزات

بجل الشيوخ المسنون هذا الأمير الشاب الحذر

وخاف الشعب من أسلحته العجيبة

رائعًا، حتى بدا للقبائل المنبهرة

وكأنه محمد الغرب .

الهوامش

(١) François. Charles. Roux, Le Projet François de la Conquête de l'Egypte sous le Règne de Louis XVVI" éd. Imprimerie de l'Institut François d'Archéologie Orientale, le Caire, 1929, p. 11.

(٢) Ibid. p. 13.

(٣) Ibid. pp. 15 - 16.

(٤) Le projet français de la conquête de l'Egypte sous le" :Voir le reste due texte dans règne de Louis XVI" pp. 54 - 55.

(٥) Bonaparte en Egypte, ou le Rêve inassouvi", éd. Librairie Acadé- :Benoît Méchin mique Perrin, Paris 1978, p 24.

(٦) Ibid., p. 37.

(٧) عبد الرحمن الجبرتى – عجائب الآثار فى التراجم والأخبار – الجزء الثالث – الطبعة الأولى ١٩٦٤ – لجنة البيان العربى – ص ٢٩٨

(٨) المصدر نفسه ص ٣٠١

(٩) المصدر نفسه ص ٣٠٣ – ٣٠٤

(١٠) Le Gaulle et la politique de la France vue d'Egypte 1967 - 1970" éd."Armand Pignol CEDEJ. Le Caire p. 29.

(١١) جمال عبد الناصر – الميثاق – قدمه الرئيس جمال عبد الناصر للمؤتمر الوطنى للقوى الشعبية ٢١ مايو ١٩٦٢ – الدار القومية للطباعة والنشر – ص ٢٥ – ٢٦

(١٢) Napoléon et l'Egypte ou le rêve inassou-"Cité par Benoît Méchin dans son ouvrage vi" p. 316.

الجزء الثالث

الأحلام

الفصل الأول

السحر بالصوت والضوء
(مصر فى زمن رامو Rameau وفولتير Voltaire) [(١)]

"ربما لا يوجد سوى أمرين مقبولين فى هذه الأمة: أولهما، أن الذين يعبدون العجل لم يستشعروا قط الرغبة فى إجبار من يعبدون القردة فى تغيير ديانتهم، وثانيهما أنهم كانوا يجعلون الأفراخ تفقس فى الأفران"

فولتير Voltaire

يتعين علينا أن نذكر مجدداً أنه قبل أن تثير مصر الأهمية السياسية التى مثلتها، قدم القرن الثامن عشر عن الشرق – بصفة عامة – صورة معينة؛ فقد كان الشرق بالفعل موضوعًا لدراسات دقيقة فى كتابات فلاسفة عصر التنوير، ذلك لأن الاستبداد الشرقى كان يمثل بالنسبة لهم نموذجًا صارخًا لعدم المساواة والتعتيم – التخلف.

وقد رأينا أن ظهور "الدراسات العالمية الكونية" "Les Discours Universels" لبوسويه Bossuet وأول ترجمة "لألف ليلة وليلة" التى قام بها جالان Galland فى ١٧١٤ – ١٧١٥ قد أسهمتا فى دراسة هذا الشرق ومعرفته، كما بذل الوزير شوازيل جهوداً لإعطاء طابع رسمى لهذه الدراسات وهذه الأبحاث. ومن ناحية أخرى كانت هناك ظاهرة جديدة فى ذلك الوقت هى تزايد الرحلات التى قام بها كُتّاب إلى مصر. وقد تحدثنا بالفعل عن تأثير أعمال سفارى وفولنى على بونابرت، ولكن هناك رحالة فرنسى ثالث زار مصر، وتعدت أعماله اهتمام الدوائر السياسية لتصل إلى جمهور أكبر، وهذا

الرحالة هو فيفان دونون Vivant Denon مؤلف كتاب عظيم يحمل عنوان: "رحلة فى مصر السفلى والعليا خلال حملات الجنرال بونابرت". وقد نشر هذا العمل غداة عودة جيش الشرق عام ١٨٠٢ . وانطلاقًا من كونه فنانًا أصيلاً ورجلاً من رجال التنوير، فقد جاب مصر التى لاحظها بعناية ثم رسمها ووصفها. وقد أهمل بصورة نسبية الآثار الفرعونية القديمة بسبب غياب علومها، واهتم بصورة خاصة بمصر القبطية والإسلامية، وقدم كتاب دونون خلاصة الصورة الجميلة أو بالأحرى الفردوسية لكتاب سفارى بالإضافة إلى الدقة العلمية لكتاب فولنى.

وأخيرًا، لم تسهم ترجمة "ألف ليلة وليلة" (١٧١٤ – ١٧١٥) وقصص الرحالة الفرنسيين قط فى رسم صورة حية عن مصر العربية المعاصرة؛ فكانت هذه الأعمال عبارة عن مزيج من مكونات الشرق كله، والذى كان يمتد من مصر إلى أرض الهلال الخصيب حتى اليونان وتركيا.

وإذا كانت مصر قد قدمت لفرنسا فى القرن الثامن عشر أسطورة فرعونية، فإنها مع ذلك لم تقدم صورة عربية واضحة أو خصائص محددة؛ فقد كانت منغمسة فى الشرق بصفة عامة، وقدمت صورة مماثلة لصورة فرنسا المسيحية فى الخيال الجمعى المصرى خلال فترة الحروب الصليبية.

أما فيما يتعلق بكبار كتاب عصر التنوير وفلاسفته، فقد تحولوا بأنظارهم أيضًا صوب الشرق، واستخدموه لنقد مواقف معاصريهم السياسية أو الفلسفية.

تلك هى صورة الشرق فى الخيال الجمعى لهذا العصر كما استخدمه مونتسكيو Montesquieu فى "رسائل فارسية" فى ١٧٢١، وفولتير فى كتابه "الصديق" عام ١٧٣٢، و"محمد" عام ١٧٤٢، و"سميراميس" عام ١٧٦٨

ويمكننا ملاحظة أن الصورة التى قدمها الفلاسفة كانت شديدة التأثر بالتوراة؛ فقد كانت قصة سيدنا موسى وهجرة سيدنا يوسف والإشارة إلى ثراء وادى النيل فى بؤرة الحوارات الفلسفية للعصر، وأسهمت فى تغذية الصراعات بين العقلانيين ورجال الدين.

وفى مقالة: "بعض مظاهر الأسطورة الفرعونية فى فرنسا فى القرن الثامن عشر"، يحلل هنرى كوليه Henri Coulet بطريقة تفصيلية – كتابات الفلاسفة والكتاب الفرنسيين فى ذلك العصر، واستخلص أن مصر كانت مادة لموقف مزدوج: الإعجاب والازدراء.

فنجد الإعجاب لدى بوسويه Bossuet وديدرو Diderot وزولان Rollin ؛ فيطرح ديدور المسألة المستنتجة من تفكير بوسويه عن التماسيح المقدسة: كيف يمكن لمثل هذه الحكمة ومثل هذه الخرافة أن تتعايشا معًا؟ فمصر هى البلد الذى بلغت فيه الحكمة الإنسانية أعلى درجاتها، ولكنها مقترنة بعبادة أوثان مثيرة للسخرية.

وهذا التناقض الذى لاحظه فلاسفة القرن الثامن عشر استمر حتى فى أدب القرن التاسع عشر وفلسفته.

ومن ثم استقى الكُتّاب الفرنسيون أفكارهم وفلسفتهم من هذين المظهرين لمصر: من ناحية: الحكمة والعلم، ومن ناحية أخرى: الاستبداد والجهل.

وكان فولتير أول من تحدث عن هذه المعضلة فى مقال فى كتابه "المعجم الفلسفى" يحمل عنوان "أبيس"، وقد هدم فيه الفيلسوف الصرح المصرى فى الخيال، وقال فى هذا الصدد:

"هل كان العجل أبيس معبودًا فى ممفيس بوصفه إلهًا أم رمزًا أم عجلاً؟ والواضح أن المتعصبين كانوا يرون فيه إلهًا، والحكماء كانوا يرون فيه رمزًا، أما الشعب الغبى فكان يعبد العجل، وهل فعل قمبيز خيرًا عندما دخل مصر وقتل بيده العجل؟ ولم لا؟ فقد جعل الدهماء يدركون أنه يستطيع أن يقتل إلههم، دون أن تتسلح الطبيعة لتنتقم من هذا التدنيس للمحرمات. ولطالما تم إطراء المصريين، ولكنى لم أكن أعرف قط شعبًا يستحق الازدراء أكثر منه؛ فالمؤكد أن طابعهم وحكومتهم تتضمن خطأ جذريًا جعل منهم دائمًا عبيدًا خسيسين. وأوافق على أنهم فى الأزمنة البعيدة فتحوا كل بلاد العالم، ولكن فى أزمنة التاريخ وقعوا تحت سيطرة كل من حاول احتلالهم مثل الآشوريين والفرس واليونان والرومان والعرب والمماليك والأتراك .. أخيرًا احتلهم العالم كله باستثناء محاربينا الصليبيين، ويرجع ذلك لأن هؤلاء كانوا عديمى الفطنة، بينما لم يكن المصريون جبناء، وكان جيش المماليك هو الذى هزم الفرنسيين.

وكثيرًا ما يمجد الناس أهراماتهم، ولكنها لا تعدو كونها آثارًا لشعب من العبيد؛ فالمؤكد أنه تم تسخير الأمة كلها لبنائها، وإلا لما تم الانتهاء من تشييد هذه الكتل القبيحة، وفيم تستخدم هذه الأهرامات؟ فى حفظ - فى غرفة صغيرة - مومياء أمير أو حاكم أو مسئول ينبغى أن تعود إليها الروح بعد ألف سنة، ولكنهم إذا كانوا يأملون فى

هذا البعث للأجساد، فلماذا يجردونها من أمخاخها قبل تحنيطها؟ أمن المفروض أن يعود المصريون إلى الحياة دون أمخاخ؟" (٢).

ومع ذلك، فإن فولتير نفسه، ظل طوال مؤلفه "المعجم الفلسفى" يحط من شأن الشعب اليهودى القديم، ويعلى من شأن المصريين وحضارتهم فلنستمع إلى حديثه عن إبراهيم فى مصر:

"وقع الملك - ويقصد الفرعون - فى غرام الشابة سارة، وأعطى لأخيها المزعوم عدداً كبيراً من الخراف والعجول والحمير والجمال والخدم والخادمات، وهذا ما يؤكد بالدليل القاطع أن مصر منذ ذلك الحين كانت مملكة جد قوية ومتحضرة، وبالتالى جد قديمة .. وأنه كان يتم مكافأة الإخوة الذين كانوا يقدمون أخواتهم إلى ملوك ممفيس بسخاء" (٣).

وأخيراً، استشعر الفيلسوف الرغبة فى مقاومة الخرافات والديانات، ووضع دائماً مصر فى مقدمة برهانه التاريخى والفلسفى، وكان يملك معرفة تامة - بالنسبة لعصره - عن تاريخها ودياناتها، وكذلك تفاصيل الحياة اليومية فى العصور القديمة، مثل الدور الذى تقوم به الحيوانات أو تفضيل الشعب لبعض أنوا ع الخضراوات مثل البصل، ويبدو أن معرفته ربما كانت تصل إلى بعض المعارف عن اللهجة العربية المصرية؛ إذ كان يكتب بعض الكلمات كتابة صوتية دقيقة.

وفى مقالة "القديس لويس فى مصر" (٤)، أثنى على شجاعة الجيش المصرى، ورفض الفكرة الشائعة فى ذلك الحين، والتى تقول بأن المصريين قد عرضوا عرش مصر على القديس لويس، وينتقد حتى نفع حملته الصليبية فى مصر، ومن جديد يستخدم هذه الفكرة لمحاربة التعصب الكاثوليكى للعصر.

ومن هنا نستطيع القول بأن القرن الثامن عشر قد رسم صورتين لمصر: الصورة التى أعطاها الفلاسفة، والصورة التى نقلها الرحالة؛ فلم يكن هناك وجود لأدب - بمعنى الكلمة - عن مصر فى ذلك الوقت، ولكن بالأحرى - وهذا هو العنصر الأهم - مجموعة من الصور التى تحدث خلطاً بين الحروب الصليبية والتوراة والشرق.

وتعد رؤية القرن الثامن عشر بالفعل نتيجة لرؤية القرون الوسطى، بينما تعلق فكر التنوير بصورة العصور القديمة لنقد حاضر من التعصب السياسى - الدينى.

وقد أثر الإغراب الشرقي تأثيراً كبيراً على الموسيقى كما كان الحال بالنسبة للأدب والرسم، وترجع أهميته إلى أنه في مجال الموسيقى يترك العنان للخيال بصورة أكبر مما يحدث في الأدب والرسم، وذلك لأن الملحن لا يملك مادة مباشرة لخلق عمله؛ فهو لا يستخدم سوى الخيال، ولاسيما إذا لم يكن قد التقى مباشرة بموضوعه، وهو الشرق في هذه الحالة.

وكان كاتب كفولتير يملك مادة خصبة للموضوع، وذلك بفضل الموسوعات وقصص الرحلات، وكان يمكن للرسم والأدب أن يستوحيا من الشرق الموصوف في القرنين السادس عشر والسابع عشر، وكذلك الموصوف في التوراة. وبدا وصف شرق مشابه للواقع والحديث عنه أمراً ممكناً، بينما لم يكن من السهل على الملحنين تصور موسيقاهم إلا اعتباراً من صور مستوحاة بصورة قليلة من الأدب والرسم.

وفي مقالها تحت عنوان: "ملحوظات عن أصالة الإغراب الموسيقي، أوهام وحقائق" تتحدث ماري كلير بيتييه Marie Claire Pitier المتخصصة في علم الأصول الموسيقية Eth-nomusicologie عن الصعوبات التي كانت تواجه الموسيقيين آنذاك فتقول:

"إذا ما قبلنا علاقة الذاكرة بالخيال الجمعي، لاستطعنا التوصل إلى تفسير؛ فقبل القرن التاسع عشر - عصر التوسع الاستعماري - كانت الاتصالات بالدول البعيدة نادرة، ولم تسنح الفرصة قط للموسيقيين بصفة خاصة - لأنهم ليسوا من كبار السياسيين أو المحاربين - لتجديد صورهم الصوتية؛ فكانوا من ثم مقتصرين على نشاطهم الإبداعي، بسبب عدم استطاعتهم تصور إلا ما يعرفونه. إنه نفس الوضع الصعب لمؤلفي الشرائط الصوتية لأفلام الخيال العلمي" (٥).

ولم يكن "للشرق" مع ذلك في موسيقى القرن الثامن عشر الفرنسية نفس قدر الأهمية الذي يحتله في الأدب والفلسفة؛ فقد كان ملحنو هذا العصر أكثر شغفاً بالعصور القديمة اليونانية - الرومانية، وتعلقوا بها أكثر من عالم الشرق الخلاب، وذلك دون شك تحت تأثير مذهب الإنسية Humanisme الذي اعتنقه مؤلفو الموسوعة والفلاسفة.

كان عمل جان فيليب رامو Jean - Philippe Rameau "الهند اللطيفة" Les Indes Ga-lantes أول عمل فرنسي مستوحى من "الاستغراب" (الشرق الشمال الأفريقي والشرق التركي)، وكانت أسماء شخصيات هذه الأوبرا البالية أكثر شرقية من هيئتهم. وفي

المداخل الأربعة التى تشكل العمل هناك العديد من الموضوعات وثيقة الصلة بأدب القرن الثامن عشر، ويبدو أن رامو قد علق عليها أهمية قليلة؛ "إذ اهتم فقط أن يجد فيها ذريعة لسلسلة من اللهو الموسيقى" (٦).

وفى مقالها عن "الهند اللطيفة" تعطى مارى كلير بيتييه مثالين نموذجيين عن إغراب المؤلف الذى لا توحى موسيقاه إلا بنبرات بولندية وبروفنسية، وتقول:

"ففى الواقع كان يمكنه معرفة الموسيقى البولندية والبروفنسية؛ فكلنا يعلم أن بولندا وفرنسا كانتا مرتبطتين فى القرن الثامن عشر. وإن اللورين، وهى منطقة نفوذ ستانيسلاس لسزنسكى Stanislas Leszczynski تعد للحضارة البولندية. أما مقاطعة بروفانس فهى ليست بالطبع بلدة بعيدة بالنسبة للفرنسيين، حتى فى القرن الثامن عشر. وفى المقابل، لم يجد رامو تعبيراً خاصًا للأتراك والفرس و"البدائيين"، وهناك جدل حول هذين الأخيرين" (٧).

ومع ذلك، نجد قطعة موسيقية نسبت إلى الشعب المصرى، وتحمل اسم "مصرية" egiptienne (sic)(٨). والحق أن هذا العمل لم يتضمن أى شىء مصرى خاص بذلك العصر.

والحق أن صورة مصر – كما وردت فى التوراة، والتى نقلها الأدب – تركت آثاراً فى الموسيقى الأوروبية لدى هندل Haendel وموزار Mozart بصفة خاصة. وتذكر موسيقى وديكور الأوبرا التى ألفها "الناى المسحور" (١٧٩١) بعدد من العناصر المصرية، ويعكس موضوعها الماسونى – على سبيل المثال – بعض الأفكار الباطنية الخاصة بمصر. وفيما يتعلق بموزار، فللأسف لا يمكننا أن نقول أكثر من ذلك؛ فيتعين الاكتفاء بعمليه المستوحيين من الشرق: "حادث اختطاف من السرايا" L'Enlèvement au Sérail (١٧٨٢) "والناى المسحور". ومن البديهى أن هذا المؤلف الموسيقى ليس فرنسيًا، ولكننا لا نستطيع تجاهل تأثير فنه على الموسيقى الفرنسية والصورة التى تقدمها عن مصر.

ويضاف إلى ما سبق رائعتان لهندل "قيصر فى مصر" (١٧٢٤) و"يوسف فى مصر" (١٧٤٣)، ولا يمكن الشك فى تأثير هذه الأعمال التى كانت تعطى صورة معينة عن مصر فى الموسيقى الفرنسية فى القرن الثامن عشر.

وبعد ذلك بدأت الصورة التى تقدمها التوراة فى الاندثار لصالح مصر عربية وإسلامية متميزة عن باقى الشرق الذى امتزجت به طوال القرن الثامن عشر، وكان لزامًا انتظار القرن التاسع عشر لنرى ظهور "ولع بمصر" حقيقى، سواء فى المجال الأدبى أو الموسيقى.

ومع ذلك يعد "البخيلان وقافلة القاهرة" عنوان الأوبرا الفرنسية الوحيدة التى تتعلق مباشرة بمصر، وكان مؤلفها أندريه موديست جريترى André Modeste Grétry (١٧٤١ - ١٨١٣) يتمتع فى نهاية النظام القديم بصيت ذائع، وتدلل لغته الموسيقية على أنه كان متأثرًا بالأوبرا الإيطالية أكثر من الأوبرا الألمانية أو الإنجليزية، ونحن لا نعتقد أنه قد أخذ شيئًا عن موزار أو هندل، وتصور الأوبرا المصرية التى ألفها لوحة جدارية تمتزج فيها العناصر التركية والزنجية - الآسيوية.

الفصل الثانى

شاتوبريان أو السحر في أربعين صفحة

"بدت لى مصر أجمل بلد على وجه الأرض"

شاتوبريان

عانت فرنسا فى القرن التاسع عشر التبعات العديدة لثورتها وحروبها وغزواتها، وظهر جيل جديد من الكُتّاب أكثر حساسية بأحداث الإنسان وتطوراته فى المجالات العلمية والسياسية والاجتماعية. وعادة ما كان هؤلاء الكُتّاب يغادرون أرض الوطن ليبحثوا – بعيداً عنه – عن أماكن للتجديد يمكنهم فيها تحقيق ذاتهم. وأصبح السفر بصفة عامة والسفر إلى الشرق بصفة خاصة بالنسبة إليهم خط سير تقليدياً، وهكذا التقى الكُتّاب والفنانون والفلاسفة وعلماء الآثار والموسيقيون والعلماء فى بلاط محمد على فى مصر، وعندما كان الأمر يتعلق بفرنسى ذى شهرة، كان الباشا فى القاهرة لا يتردد فى استقباله وإغراقه بأفضاله.

وغداة رحيل جيش بونابرت، كانت مصر أيضًا قد تغيرت. ولنترك لجان مارى كاريه Jean - Marie Carré أن يصف لنا المناخ العام الذى ساد فى القاهرة تحت حكم القائد الجديد:

"وفى ذلك الوقت كان باشا القاهرة يقود صراعًا ثلاثيًا ضد تركيا وإنجلترا لتحقيق استقلال مصر، وضد منافسيه – المماليك – لتحقيق سلطته الشخصية ، وكانت البلاد محكومة بقبضة قوية، ولم يعد من الممكن فيها مصاحبة المسافرين الفرنسيين دون المطالبة معهم بجلسة فى قصر القلعة الذى كان لا يزال ملطخًا بدماء مذبحة المماليك (١٨١١). إنه استنتاج يفرض نفسه علينا، فى اللحظة التى نستعد فيها لمتابعة فى أسواق القاهرة وعلى ضفاف النيل زوار مصر القديمة.

وتتحرر مومياء الفرعون العظيم من أربطتها، وتلقى بقناعها الذهبى لتجلس على مقعدها؛ فتتركنا نتخيل صورتها البارزة الملامح فى ليل المقبرة.

أما الآن فهناك مصر ثانية تأتى إلينا بخطى نشيطة وواثقة، وهى ترتدى ملابس على الطراز التركى، وتنظر بإعجاب إلى زينا الغربى وتقاليدنا الأوروبية، وبجرأة، تتجه - بصفة خاصة - صوب فرنسا لتطلب منها تأثيث منزلها وزراعة أرضها وتدريب جندها (٩).

وخلال أيام الانقلاب تلك، وصل شاتوبريان إلى مصر فى ٢٠ أكتوبر ١٨٠٦ بالضبط، وفى كتابه "خط سير من باريس إلى القدس" تحتل مصر ٤٠ صفحة من مجموع صفحاته التى تبلغ الألف. ومع ذلك، فإن المؤلف وهو يركب السفينة من مدينة رشيد متجهًا إلى القاهرة قد وجد الوقت ليثنى على سحر النيل الروحانى وعلى الريف الذى كان يمتد عبر الدلتا.

وقال: "كان النيل فى ذلك الوقت كبحر صغير، فخليط رمال الصحراء والخضرة وأشجار النخيل، والجميز، والقباب والجوامع، ومآذن القاهرة، وأهرامات سقارة البعيدة التى يبدو النيل وكأنه يخرج من خزاناتها الضخمة .. كل هذه الأشياء كانت تكوِّن لوحة لا مثيل لها على الأرض" (١٠).

ولم يلتق بمحمد على، ووصف بطريقته التى لا مثيل لها المشهد البانورامى للقاهرة الذى نراه من فوق جبل المقطم.

وفى اليوم التالى، زار جزيرة الروضة الجميلة وتابع:

"ووسط الخضرة ومجرى النهر وأشجار النخيل والجميز، كانت هناك رياح منعشة تدفع بالسحاب الأبيض صوب النوبة محدثة بعض التجاعيد على سطح مياه النيل .. وقد بدت لى مصر أجمل بلاد الأرض" (١١).

وعند عودته إلى الإسكندرية هاله فظاظة وغلظة الجند الألبان، وكذلك العلاقات المأسوية بين المماليك والألبان، وقد ترك هذا المناخ المزعج الذى كان يخيم على الإسكندرية - عند مقامه بها - انطباعًا سيئًا عن المدينة، والتى قال عنها "المدينة الأكثر حزنًا على وجه الأرض".

وفى تلك الصفحات الأربعين، لم يبد الكاتب قط بوصفه سائحًا، فقد بحث بالأحرى عن الأماكن التى شهدت ميلاد الأنبياء، وكان مؤلف "عبقرية المسيحية "Le Génie du Christianisme

قد تحدث عن مصر التوراة فى "الشهداء" دون أن يراها، والآن كان يجوب فى أماكن التاريخ نفسها.

ويبدو لنا نقد جان مارى كاريه الشديد لهذه الصفحات الأربعين من كتاب شوتريريان صحيحًا؛ فقد أخذ على الكاتب عدم رؤيته لأى شىء فى مصر، واتهمه بالنقل وباعتناق الأفكار المسبقة وبعدم الفهم وحتى باللامبالاة (١٢).

وبالفعل صدمت هذه الصفحات عدداً من الباحثين الفرنسيين والمصريين: فشاتوبريان المسيحى متشدد وشديد المحبة للحضارة اليونانية - الرومانية، لم يختر مصر بوصفها مصدراً للصور أو للإلهام، ولكنه كان يرى فيها موقعًا على خريطة التوراة؛ فلم يأت إليها لرؤية الشعب أو الأرض، ولكن ليرى التاريخ القديم.

ومازلنا فى بداية القرن التاسع عشر، ومؤلف "أتلا" Atala لا يزال يحمل بعض آثار عقلانية القرن الثامن عشر ، ولم تعدل الثورة بأى حال مشاعره الدينية ومعتقداته السياسية ؛ فهو من أشد أنصار الملكية، ويقال إنه كلاسيكى : "فهو يرى سريعًا، ويرى بوضوح" ، كما يقر بذلك جان مارى كاريه.

وترجع أهمية هذا الوصف بصفة خاصة إلى أن الذى قام به هو كاتب عبقرى، وبالفعل يقدم هذا الوصف للمرة الأولى صورة أدبية عن هذا البلد رغم افتقاده للحرارة ، وهو يختلف عن التقارير شبه القنصلية التى كتبها الرحالة الفرنسيون فى القرن الثامن عشر.

وتطابق هذه الصورة عن مصر تلك التى رسمها الكُتّاب الفلاسفة فى القرن الثامن عشر فى فرنسا ؛ فتظل مصر رأسمالاً تاريخيًا ، لأكثرهم ترحالاً، وكما رأينا ، كانت ساعات شاتوبريان الأخيرة فى الإسكندرية عصيبة للغاية ، ولا يبدو أنه كان ينوى البقاء فيها ، وبعد ذلك بفترة طويلة ، كتب فى ١٨٢٦ "مغامرات آخر أبنسيراج" "Les Aventures du Dernier Abencérage" موضوعًا مستوحى من القبيلة العربية الشهيرة بالأندلس، ذكرى قديمة لاتصاله بالشرق.

وقبل أن نترك مؤلف "أتلا" ، يتعين علينا الاعتراف بأنه يرجع إليه الفضل فى رسم الطريق لجيل من الكُتّاب المسحورين بالشرق وبمصر بصفة خاصة .. وبعد ذلك ، سيجوب مؤلفون مشهورون آخرون فى وادى النيل مثل جيرار دى نرفال ، وجوستاف فلوبير ، وماكسيم دى كان ، وتيوفيل جوتيه . أما برليوز فقد ألف غنائية " موت كليوباترا" التى ستشكل موضوع دراسة الفصل القادم.

الفصل الثالث

برليوز أو السحر الموسيقى

لم يؤثر الانقلاب الرومانسى فقط على الأدب أو الموسيقى، ولكنه أحدث انقلاباً فى مجالات أخرى. ويتسم القرن التاسع عشر الموسيقى عن القرن الثامن عشر الثرى بالندرة الملحوظة لعدد السيمفونيات؛ فقد أبعد الاندثار التدريجي للحماية والدعم الممنوحين للأنشطة الثقافية، وكذلك العوز المالى للفنان المنفصل - مثل حالة بيتهوفين - أحياناً الملحنين عن الصيغ الموسيقية المكلفة.

وغطت شدة الضمير الفنى على الطابع التجارى للسيمفونية فى القرن الثامن عشر. والمؤكد أن هذه النتيجة قد تولدت من التغير الذى أحدثته الأفكار الثورية فى ممارسة الفنون.

وفى هذا الجو المتوتر والواعد وصل الشاب هيكتور برليوز إلى باريس فى عام ١٨٢١

وكان مزاج برليوز الذى يتسم بالإبداع والتجديد السبب فى عدم فهم معاصريه له. ويتمتع معاصراه وصديقاه ليست Liszt وشوبان Chopin بقدر أكبر من النجاح، ومع ذلك فقد ظلا يدافعان عنه بضراوة .. وقد واجه برليوز الفقر والاضطرابات العاطفية والعائلية، وعانى من سلسلة متصلة من سوء الحظ والفشل، واضطربت حياته الشخصية بسبب علاقات عاطفية فاشلة، وكانت شخصيته شديدة التعقيد حتى وصفه أحد معاصريه بأنه "عنيف وساذج ومتهور ولكن صادق صدقاً مطلقاً وأساسياً حتى ليصعب أن يشعر بالسعادة أو السلام".

وتنبع عبقرية برليوز من قدرته على تحويل تعاسته وإحباطاته إلى روائع موسيقية: "السيمفونية الخيالية" Symphonie Fantastique (تصف الحياة المضطربة لفنان)، و"هلاك

فوست الأبدى" La Damnation de Faust والرائعة الغامضة "روميو وجولييت" (وتعد إحدى الأعمال النادرة التى لاقت نجاحًا فى حياته). وفى عام ١٨٦٠، أرسل فاجنر إليه إحدى أولى توليفات مقطوعته "تريستان" Tristan، وعليها هذا الإهداء المعبر: "إهداء إلى روميو وجولييت من تريستان وإيزولد العارفين بالجميل"، ولم تكن مثل هذه التصرفات معتادة من فاجنر.

وتزامن وصـــول برليـوز إلى باريس عـــام ١٨٢١ مع النجـــاح المدوى "لموسـى فى مـصـر"، آخر تحف روسـينى Rossini الفنيـة، وتأمل المؤلف الشـاب المكانة المميزة التى يحتلها روسينى فى فرنسا، والتى ترجع – بدرجة كبيرة – إلى إغراب الفنان الإيطالى، وكان بالفعل قد قدم فـى باريس من قبل أوبراتين "التركى فى إيطاليا" Le Turc en Italie (١٨١٧) و"الإيطالية فى الجزائر العاصمة" L'Italienne en Alger (١٨٢٠).

ونحو ١٨٢٠ بدأت فكرة مصر تتجدد فى الأذهان، ومما دفع برليوز هو الآخر إلى تناولها. وشكل كشف شـامبليون الرائع وحرب الاسـتقلال اليونانية بالإضـافة إلى نشـر كتاب "وصف مصر" مصادر إلهام مفيدة له. وعند بحثه عن مـوضـوع تقليدى لتقديمه للمرة الرابعة لجائزة روما، وجد برليوز فى شـخصية كليوباترا الشـخصية الخلابة التى كان يبحث عنها، ولم تكن المهمة سـهلة، فلم يكن هنـاك أى مـوسـيقى فرنسـى قد تناول هذا الموضوع الفرعونى.

وكانت شـخصـية كليوباترا مصـدرًا لإلهام العديد من الأعمـال الأدبية الأوروبية، ولاسـيما قبل القرن التاسـع عشـر؛ فـقـد كان إيتين جودال Etienne Jodelle (١٥٣٥ – ١٥٧٢) أول من عالجها فى مسرحيته "كليوباترا أسـيرة" Cléopatre Captive عام ١٥٥٢، وكما تناول بيير كورنى Pierre Corneille نفس هذا الموضـوع فى "مـوت بومـبيه" La Mort de Pompée عام ١٦٤٣ .

وبعد ذلك نشـر جوتيه دى كوست دى لاكالبرنيد Gautier de Costes de Calprenide الاثنى عشـر جزءًا لرائعته "كليوباترا" فى الفترة ما بين ١٦٤٧ و١٦٥٨، وأخيرًا نشـر جـان فـرنسـوا مـارمـونتـيل Jean - François Marmontel (١٧٢٣ – ١٧٩٩)، وهو تلميـذ فولتير الوفى، نفس الموضوع فى مسرحية تحمل نفس الاسم.

ولم تلق كل هذه الأعمال نفس نجاح مسرحية شكسبير الشهيرة "أنطونيو وكليوباترا" Antony and Cleopatra التى ألفها عام ١٦٠٦؛ فقد كانت هذه المسرحية مصدراً لأول عمل موسيقى فرنسى مستوحى من شخصية كليوباترا.

واكتشف برليوز الشخصية عام ١٨٢٢؛ فعندما كانت إحدى الفرق الإنجليزية تقدم بعض مسرحيات شكسبير، وقع برليوز فى حب الممثلة الأيرلندية هاريت سيمثون Har-riet Smithon. ومنذ ذلك الحين شرع فى تعلم الإنجليزية وهو يقرأ شكسبير. وفى مقاله المهم عن تأثير شكسبير على برليوز، يقول جان بول رينو J. P. Reynaud (١٣) : "ويمكننا بسهولة تعديد الأمثلة؛ فقد صاحب نص شكسبير منذ ذلك الحين برليوز طوال حياته. نجده يقرأ أول صفحة فى ذكريات ماكبث لينقل اليأس الميتافيزيقى، ويقرأ آخر صفحات هاملت لينقل الحزن العميق والثورة العارمة ضد وضاعة الإنسان. وبفضل ظاهرة حدثت لا أعرف من نماذجها سوى القليل، استوعب برليوز نص شكسبير واستبطنه؛ فأصبح يتكلم بطريقة شكسبير، ويفكر بنهج شكسبير، ويعيش بأسلوب شكسبير؛ فقد أصبح هاملت مفتاح تفسير حياته وسأمه، وآريل Ariel وجه أحلامه السماوية، وأوفيليا وجولييت وديدمونه وجوه الحب النسائية الوحيدة؛ لأن برليوز لا يستطيع أن يحب إلا بوصفة شكسبير. وبنفس الطريقة، لا يتسنى له التفكير فى الموسيقى إلا عبر شكسبير، وكل موسيقاه كانت مهداة سراً أو علانية لهاملت أو روميو؛ لضباب إلسينر ELseneur وأشباحه أو ليالى فيرون العطرة وجنياتها. ويصرخ ليليو Lélio قرين شكسبير الموسيقى بطريقة دينية "فليحمنى شكسبير"، وذلك فى اللحظة التى يذهب فيها ليسمع للمرة الأولى خياله المبدع عن الريح، وليضع بذلك كل إبداع موسيقى فى طى الشخصية الشكسبيرية (١٤).

ويجد الباحثون فى مجال الموسيقى وكتاب السيرة الذاتية نوعاً من المتعة فى عقد مقارنة بين قصة أنطونيو وكليوباترا التى تقدمها غنائية برليوز وروميو جولييت. ورغم ذلك، فهناك عشر سنوات تفصل بين العملين، والعامل المشترك الوحيد بينهما هو دون شك ظل شكسبير، أو ما يطلق عليه جى. بى. رينو J. P. Reynaud "الوجود الحقيقى لعمل شكسبير" (١٥).

والعمل الذى نقصده يحمل عنوان "موت كليوباترا"، وهو عبارة عن فصل غنائى للأصوات والجوقة.

ومن الضرورى أن يتخذ مثل هذا العنوان صورة كمرجعية له، وذلك لإثارة مناخ كئيب. وهذه الصورة منحوتة فى ذاكرة الشاب هيكتور: إنها الفصول الأخيرة من عمل شكسبير، وبالتحديد أبيات الشعر التى نطقت بها كليوباترا قبل موتها. بيد أن الكتيب الفرنسى، العادى المستوى، الذى كتبه شخص يدعى ب. أ. فيار P. H. Veillard، لا يعكس قط الصورة العظيمة التى عبر عنها برليوز فى مشهد موت آخر ملكة فرعونية حفظت مصر ذاكرتها. (١٦)

وليتسنى لنا الحكم على ذلك؛ فلنعد قراءة كليوباترا لشكسبير:

قد أقوم بعمل نبيل! إننى املك ناحية القرار، ويالها من حرية تنزع عنى ثوب الأنثى ! لم أعد ذلك المخلوق الذى مد من رخام أسيل - لم يعد ذلك الكوكب البراق دارى، لم أعد أسكن القمر.

وتموت كليوباترا كواحدة من الآلهة، بطريقة تتسم بالعظمة:

"ناولينى ثوبى،

وضعى التاج فوق رأسى

إن شوقًا خالدًا يستبد بى

لقد حرمت من رحيق العنب المصرى

لن يبلل شفتى ذاك الرحيق

إلى الأبد" .

وقد سحر برليوز بالمشهد التاريخى الذى يصف نهاية ملكة عظيمة، إنها ليست نهاية عاشقة مخزية، كما يعبر عنها نص الغنائية.

وهنا نكمن الصعوبة التى يستشعرها الملحن، وتتمثل فى تقديم هذه العظمة الطاغية بطريقة ملموسة باستخدام وسائل موسيقية بحتة.

ومن هذه الغنائية، هناك أربعة عناصر يتعين لفت النظر إليها:

١ – المقدمة الموسيقية تتسم تارة بالعصبية والحزن، وتارة أخرى بالهدوء والاستسلام. وتجهز عصبية المقدمة المستمع لاستشعار "السقوط" الظالم لسيدة جليلة والنهاية المؤلمة لقصة حب. وفى مناخ هذه المقدمة القصيرة، تأخذ مصر طابع معبد كئيب تقتل فيه الملكة نفسها وهى تتأمل خزيها.

٢ – الغنائية فى مجملها ضعيفة، وبالرغم من ذلك فإن النغمة الرائعة "آه! كم هى بعيدة هذه الأيام التى تدور بذاكرتى تعد لحنًا مشحونًا بالحساسية، وتسبقه جملة موسيقية جد حزينة تذكرنا "بتريستان وأيزولد" Tristan et Isolde لفاجنر Wagner .

٣ – يسبق الجزء الثانى للغنائية "تأمل" يهيئ لاحتضار الملكة، وتطور فن التأمل مع الموسيقيين الرومانسيين والألمان، وقد أوحت لهم مصر بتأملات جميلة تتسم تارة بالحزن والكآبة كما هو الحال فى "كليوباترا" لبرليوز، وتارة أخرى بالروحانية والتأمل والتفكر كما هو الحال بالنسبة لتاييس "Thais" لماسينيه.

٤ – تنتهى الغنائية بخاتمة ذكية تعوض ضعف الجزء الثانى.

"وسنحضر هذه اللحظات الأخيرة، ويسيطر إيقاع عنيد على أعماق الجوقة. وعلى هذه الخلفية، تظهر فجأة نغمات متباعدة، يفصل بينها صمت طويل تمتد فيه آخر أعضاء الجمل التى تنزل تدريجيًا حتى أكثر أصواتها انخفاضًا، وهى تنبعث من فم الملكة. وعند نبسها بآخر كلمة، تمد الجوقة لفترة طويلة وبطريقة غير محسوسة تقريبًا – نوعًا من نبض قلب يكاد يتوقف عن الدق .. ويستتبع ذلك صمت طويل، وأخيرًا نغمة أخيرة – نشاز – تتضخم ثم تخبو" (١٧).

وقد أدى نفس مصدر الإلهام ببرليوز، بعد ذلك بثلاثين عامًا – فى ١٨٥٠ – إلى تأليف "الهروب إلى مصر" La Fuite en Egypte المدمجة فى رائعته "طفولة المسيح" L'Enfance du Christ .

وإذا كان الشاب هكتور برليوز قد لجأ إلى شكسبير فى "كليوباترا"؛ فقد بحث الملحن عندما تقدم به السن أيضًا عن صورة مصر فى التوراة ليلحن موشحة دينية بعنوان "طفولة المسيح" عام ١٨٥٤

وقد صنف هذا العمل ضمن التقليد المسيحى للرومانسيين الفرنسيين، ونجد فيه الذوق الألمانى والنعومة الإيطالية. ولن نصدر حكمًا هنا على "طفولة المسيح"؛ فنحن نهتم

بما يحتويه هذا العمل الشعرى من "مصرية"، ولا يعد وصف بلد أو تقديمه بطريقة بديهية الهدف الذى ينشده ملحن. وبالفعل أخطأ برليوز عندما أشار إلى أن مدينة سايس تقع "عند مخرج الصحراء"، بينما تقع فى قلب الدلتا .. وهو يرى المصريين - وفقًا لتعبيره - "كأنهم متشردون ومصابون بالجذام، ومع ذلك فهم فى غاية الكرم وحسن الضيافة، ولاسيما المسلمون منهم".

وتحتفظ مصر بصورة تقليدية فى العملين "موت كليوباترا" و"طفولة المسيح".

وظل هذا التناول المتأثر بشكسبير والتوراة هو أسلوب الموسيقيين الفرنسيين، ولكن تطور هذا الأسلوب مع الأعمال التى قدمها الكتاب المحبون لمصر على غرار تيوفيل جوتيه وجيرار دى نرفال، ومع موسيقيين مثل فيليسيان دافيد أو هنرى ريبر الذين كان لديهم الشجاعة لزيارة مصر، ولتصور أعمالهم وتلحينها فى سياق سياسى وفنى جديد ومعقد .. ومن ثم لن نغفل المقابلة بين هذه الصورة لمصر القديمة وبين صورة أحدث وأكثر وضوحًا فى التاريخ، ألا وهى مصر العربية والإسلامية التى ستكون لهؤلاء الفرنسيين بمثابة باب الهروب ومعين لا ينضب للإلهام الرومانسى، وسنرى ذلك مع موسيقى فيلسيان دافيد وأعمال نرفال.

الفصل الرابع

فيلسيان دافيد أو السحر حتى الحياة

"إننى على خير حال هنا، أمارس الصيد والموسيقى، وأشعر بالسعادة"

فيلسيان دافيد

(خطاب لم يتم نشره - كتبه فى مصر لصديقه لامى)

قدم برليوز عام ١٨٢٩ غنائية "موت كليوباترا"، وأدى الاختمار الذى حدث فى كل المجالات إلى التغيرات التى شهدتها كل من مصر وفرنسا فيما بعد؛ فقد كانت مصر فى عهد محمد، على، وكانت تعيش حالة من التجديد والتحديث، بعد أن ضاعف الباشا - بمساعدة الفرنسيين ودعمهم - الإصلاحات الاقتصادية والسياسية. وقد أدت هزيمة نفارين (٢٠ أكتوبر ١٨٢٧) إلى تدهور العلاقات بين محمد على والباب العالى، وقد لاحظ بالفعل المسافرون الذين التقوا بالباشا ازدراءه لسلطات تركيا.

ولم يكن محمد على يطمع فى انتزاع استقلاله السياسى فحسب، ولكن أيضًا أن ينافس مولاه، سلطان تركيا، وربما حتى أن يحل محله. وبعد عدة سنوات استولى الجيش المصرى بقيادة العقيد سيف Séve - الذى أصبح سليمان باشا - على فلسطين وسوريا، وتوقف فقط على مقربة بضع ساعات من السير من القسطنطينية نفسها.

وقد حظى الباشا خلال حروبه وإصلاحاته بتأييد فرنسا وتعاطفها. ومع ذلك، لم تشأ إنجلترا أن تترك لفرنسا فرصة الإفادة من انتصارات نائب ملك مصر من منطلق أن سياسته كانت قادرة على الإخلال بتوازن علاقات القوى فى أوروبا.

ولم تنجح الإنذارات المتعددة الموجهة سواء من إنجلترا وحلفائها فى إقناع الباشا بالتخلى عن غزواته؛ فقد شجعه تأييد تييه Thiers رئيس مجلس النواب الفرنسى فى متابعة زحفه نحو القسطنطينية، وقامت إنجلترا – بناء على ذلك – بإصلاح التحالف المقدس لعام ١٨١٤ – ١٨١٥ . وأراد تييه شن هذه الحرب، ولكن عارضه لويس فيليب، واستعاض عنه بجيزوه Guizot .

وبخسارة الباشا لحليفه الرئيسى، اضطر – وهو يشعر بالأسى – إلى الانكماش داخل حدوده. وأدى به هذا الكبت إلى أزمات جنون طويلة؛ فلم يكن ليفهم أن فرنسا قد تغيرت، وأنها كانت تتحمل التبعات الاجتماعية والسياسية للثورة التى قامت بها فى ١٨٣٠؛ فقد عانى الجيل الذى ولد فى عهد الإمبراطورية من خيبة الأمل، وتحطمت أحلامه المرتبطة بملحمة نابليون العظيمة، وتسبب هذا الاستعداد فى اضطرابات عميقة ذات طابع اجتماعى نفسى، وولد ما نطلق عليه اليوم بالرومانسية أو "داء القرن".

ولكن كيف تسنى لفرنسا استعادة مكانتها كقوة صناعية غداة انهيار الإمبراطورية وثورتين (١٨٣٠ و١٨٤٨)؟ كان من البديهى أن يقوم هذا النجاح على أساس تقليد حِرفى وزراعى عريق يضرب بجذوره فى المجتمع الفرنسى منذ قرون طويلة.

وخلال الثورة الصناعية الفرنسية، أسهمت السكك الحديدية – التى تعد أول أروع أعمالها – فى تحويل عميق للبنية الاجتماعية والاقتصادية للبلاد. والمؤكد أن تلك التغيرات التى حدثت بصفة خاصة نحو نهاية الإمبراطورية الثانية انتهت إلى تطورات عظيمة، ولكن مقابل ثمن كبير.

فقد حشدت هذه الثورة فى ضواحى المدن عدداً عظيماً من البروليتاريا للعمل فى ظروف قاسية والسكن فى أكواخ قذرة. وسعياً وراء العائد والربح، ألزم أصحاب العمل العمال بمن فيهم النساء والأطفال بأيام عمل تصل إلى ثمان عشرة ساعة فى ورش غير صحية وفى مناجم خانقة، بل وفى بيوتهم مقابل أجور زهيدة.

وبالإضافة إلى ذلك أصبحت النقود قوة دفع جديدة فى المجتمع، ويكفى الحديث عن العالم الذى وصفه بلزاك: "كان أول المجنى عليهم هم الكتاب والفنانون، وبعضهم ممن كانوا ذوى شأن عظيم أصبحوا فى أغلب الأحيان على وشك الإفلاس".

ولتأثر غالبية هؤلاء الفنانين – الذين عاشوا فى عهد عودة الملكية إلى الحكم ومملكة يوليو والإمبراطورية الثانية – بتحول المجتمع؛ فقد شعروا أنهم يعيشون فترة حرجة فى تاريخ تطور الإنسانية، وهذه العقيدة التى ترجمت فى أعمالهم فى شكل استسلام أو حنين أو ضيق أو حماس يكفى لوضعهم فى عالم جد مختلف عن الذى عرفه كُتَّاب القرن السابق، الذين كانوا يعتقدون بأن الحقيقة والجمال منفصلان عن تقلبات التاريخ.

وهؤلاء الكُتَّاب الذين تأثروا بداء التاريخ والواقع هذا، والذين أصيبوا أيضًا "بداء العصر"، تحولوا بعزم وتصميم نحو القصص التاريخى للتعبير عن خيال جمعى منتقص بسبب طغيان الاهتمامات المالية، ويعد الظهور المدهش لأدب الفروسية ولأدب الإغراب فى هذه الفترة خير دليل على ذلك.

وإزاء عبادة رموز التاريخ وبسبب التأثر بحالة القلق السائدة، أراد البعض – ولاسيما السان سيمونيون – أن ينصبوا أنفسهم "كمصلحين"، وسعوا لربط النافع بالجميل، وكان السان سيمونيون يؤمنون بأن مثال المادية والميتافزيقية يلتقيان فى جسم الإنسان وروحه، وجمعوا فى الوقت نفسه بين الرومانسية العميقة والآلية الدينية، وعدلت مشروعاتهم مصير بعض البلدان ومن بينها مصر.

وفى هذا الجو المشحون بالمتناقضات الذى يختلط فيه الأمل بالإحباط، ولد الملحن السان سيمونى فيليسيان دافيد، وكلنا يعلم أنه أعطى فى رائعته السيمفونية "الصحراء" صورة فولكلورية عن مصر كان لها أبلغ الأثر على جيرار دى نرفال Gérard de Nerval .

وقد ولد فيليسيان دافيد فى الثالث عشر من شهر أبريل عام ١٨١٠، وكان والده عازف كمان ثريًا [١٨] يعيش فى سان دومينج. ومنذ نعومة أظافره، أظهر فيليسيان ولعًا شديدًا بموسيقى والده كما يؤكد كاتب سيرته سيلفيان سانت أتيان [١٩] Sylvian Saint Etienne .

وقد توفى والده عام ٥١٨١ بعد إفلاسه بسبب ثورة الزنوج فى سان دومينج، وقد عهد بالطفل فيليسيان اليتيم إلى رهبان كاتدرائية القديس سوفور Saint Sauveur فى مدينة أكس أون بروفنس Aix en Provence . وبعد سبع سنوات أنهى دراسته فى مدرسة

اليسوعيين بنفس المدينة، وبين الكاتدرائية والمدرسة تعلم فيلسيان دافيد الموسيقى، وشارك فى الأنشطة الموسيقية - ولاسيما الدينية منها - بطريقة تتسم أساساً بالتجريبية كما لاحظ جى. بى. بارتولى(٢٠) J. P. Bartoli .

واضطره البؤس إلى قبول وظائف صغيرة مثل مساعد رئيس فرقة موسيقية بمسرح فودفيل(*)، ثم كاتب صغير فى مكتب محام، وبعد بضع سنوات نجح فى الحصول على وظيفة مهمة، وهى مدرس موسيقى فى كاتدرائية أكس أون بروفنس.

والحق أننا نجهل أسباب تخلى المدرس الشاب عن وظيفته، ولكنه قرر المقام فى باريس. وفى هذه المدينة بالتحديد فى يناير ١٨٣٠، كانت حياته مليئة بالبؤس وسوء الحظ، وبفضل دعم حفنة من أصدقاء دافيد وأساتذته له، قضى ثمانية عشر شهراً فى معهد الكونسرفتوار بباريس.

وبين عامى ١٨٣٠ و١٨٣٣ وهى فترة سفره إلى الشرق، تلقى أولى أفكاره المستوحاة من الشرق، حتى قبل ذهابه إلى مصر، وهذا ما يتجاهله عادة كُتّاب سيرة دافيد القليلين، ويتعين فى هذا الصدد ملاحظة تأثير أستاذه أنطونين ريخه Antonin Rei-cha ، والذى يعد أحد كبار الأساتذة فى مجالى الموسيقى والتعليم، وهذا الموسيقى الذى ولد فى مدينة براج عام ١٧٧٠ وتيتم وهو طفل صغير، بحث عن ملجأ له فى أوروبا؛ فتنقل من براج إلى بون ومن بون إلى هامبورج ومن هامبورج إلى باريس ومن باريس إلى فيينا. والتقى بهايدن Haydn وبيتهوفن، ثم استقر به المقام نهائياً فى باريس فى عام ١٨٠٨ وعمل كمدرس بالكونسرفتوار، وذلك قبل أن يخلف بولديو فى المعهد l'In-stitut ببضع سنوات عام ١٨٣٥ . وتوفى بعد ذلك بعام مخلفاً وراءه عملاً نظرياً ضخماً وحفنة من الطلبة أصبحوا فيما بعد أساتذة عظاماً فى مجال الموسيقى الفرنسية، نذكر من بينهم برليوز، وليست Liszt وفرنك Franck، وجونود Gounod .

وكانت المرة الأولى التى يقيم فيها ريخه فى باريس ما بين عام ١٧٩٩ و١٨٠٢ . وبدأت فرنسا فى عام ١٨٠٢ استشعار التبعيات السياسية والثقافية لفشلها العسكرى فى الشرق، وعندما قرر ريخه الاستقرار فى باريس عام ١٨٠٨، كان فى أغلب الظن

(*) مسرحية هزلية خفيفة .

مغرمًا بملحمة نابليون فى مصر. وتولد عن هذا العشق مشروع ضخم "عبادى أو الفرنسيون فى مصر"، وهى أوبرا شاملة تحكى هذا الحدث التاريخى، بيد أن هذه الأوبرا لم تعرض قط على المسرح، ونحن نجهل حتى يومنا هذا السبب وراء ذلك.

وعانى فيليسيان دافيد وأستاذه - رغم موهبتهما - من البؤس وسوء الحظ نفسه، وربما يدين دافيد لريخه بعشقه العظيم للإغراب، وهو نوع من الإغراب الحزين وجد فيه الملحنون المغمورون والبؤساء مصادر أحلام وتعويض ضخمة.

وكان أثر البؤس مؤلمًا بالنسبة لدافيد، وكانت إقامته الأولى فى باريس غير مثمرة وتعيسة، وعندما حرم من المساعدة الزهيدة التى كان يقدمها عمه له، كتب لصديقه سانت إيتيان وهو فى مدينة إكس يقول:

"أما فيما يتعلق بالمال - بما أننى لا محالة سأتحدث عن هذا الأمر - فإن الأمور تتدهور؛ فالأمور تأخذ شكل منحنى تنازلى، والمؤكد هو أننى سأصل قريبًا إلى القاع. لقد كنت مريضًا لمدة حوالى ثلاثة أسابيع، كنت أعانى من آلام فى الكلى، وارتفعت درجة حرارتى، وشعرت بآلام فى كل جسدى. وقد أصبت بهذا المرض أثر أحزان داهمتنى بسبب الطعام السيئ فى مطاعم باريس والرطوبة المستمرة التى تغلف المكان. والسؤال الذى يثور هو لماذا لم أكن أكثر ثراء بقليل؟ وأعتقد أن تمتع الفنان بقدر معقول من اليسر يعود عليه بالنفع الكبير، وأنا لا أتحدث على المستوى الجسمانى - وإن كان الجسم جزءًا منا، ويؤثر مع ذلك علينا تأثيرًا كبيرًا - ولكن على المستوى العقلانى؛ فكيف يمكن لعقل مشغول دائمًا بالاحتياجات المادية أن يتصرف بحرية؟ يا عزيزى، أعتقد أن البؤس يقتل الخيال" [٢١].

وخلال إقامته الباريسية الأولى، ألف السوناتات "لحن المساء L'Air du Soir"، و"آف فروم Ave Verum"، و"الأحلام Les Rêveries" . وقدمت هذه الأعمال فى إكس أون بروفنس، ولكن رفضها الناشرون الباريسيون جميعًا. وفى ديسمبر عام ١٨٣١ - كما يروى سيلفيان سانت إيتيان [٢٢] - اعتنق مذهب السان سيمونية، ووجد لدى إخوانه فى المذهب التفهم والتشجيع اللذين كانا ينقصانه منذ وصوله إلى باريس، وربما وجد فى المذهب الجديد وسيلة لنشر موسيقاه؛ والشىء الذى جذب انتباه الملحن الشاب بصفة خاصة هو فكرة السان سيمونيين عن دور الفنان الاجتماعى.

فقد كان المذهب السان سيمونى بالفعل من بين أولى الحركات الاجتماعية التى تقيس أثر الدعاية الذى تحدثه أغنية جميلة.

ولحن الشاب دافيد فى مدينة منيلمونتان Menilmontant أغنيات تحث العمال على اعتناق السان سيمونيه؛ كما كوّن جوقات لاقت قدراً من النجاح، ولكن فى دائرة السان سيمونيين الضيقة. ولحن فى هذه الفترة "الدائرة Ronde"، و"نوم باريس Le Sommeil de Paris"، و"رقصة الكواكب La Danse des Astres" وبعض كتب الطقوس للصلوات السان سيمونيه. وتتسم أعماله بتنوع الألحان الجماعية ومن ناحية الأسلوب واضطلاعها بمهام أيديولوجية محددة.

وعقب سجن الأب أنفنتان Le Père Enfantin – الأب الروحى للحركة – بتهمة المساس بالآداب العامة، قررت مجموعة من السان سيمونيين – من بينها فيلسيان دافيد – السفر إلى الضواحى والشرق لمواصلة التبشير هناك. ولم نعثر على أية سيرة حقيقية عن إقامة دافيد بمصر باستثناء كتاب صغير وبعض الإشارات هنا وهناك. أما مراسلاته القليلة فهى لا ترسم صورة كاملة عن أنشطة الملحن فى مصر.

فقد حمل معه بيانو فى رحلته إلى مصر التى بدأت فى ٢٣ مارس عام ١٨٣٣ مع مجموعة السان سيمونيين دى بارو والمعروفين "برفقاء المرأة".

وبعد توقف صاخب فى القسطنطينية ثم فى أزمير؛ حيث قدم الملحن عدداً من الحفلات العامة قامت السلطات العثمانية بطرده؛ فتوجه إلى يافا ثم إلى القدس، ومنها إلى الإسكندرية بعد بضعة أيام. وبمجرد وصوله، قدم تحت عمود السوارى عدداً من الحفلات التى حققت نجاحاً أكبر من الذى حققته حفلات أزمير.

وبعد فترة قصيرة قضاها فى الإسكندرية، انتقل إلى القاهرة، واختلط بالأوساط الشعبية، ولكنه لم يقدم موسيقاه إلا فى سهرات خاصة أو فى مواقع العمل الكبيرة لسد النيل وذلك لتشجيع العمال.

والحق أن دافيد قد حقق فى مصر قسطاً من الشهرة يفوق الذى حققه فى بلده الأصلى، حتى عرض عليه أن يصبح موسيقى قصر محمد على، وأن يعطى دروساً فى الموسيقى لحريمه.

وعلى عكس ما يعتقد غالبية كاتبى سيرة فيلسيان دافيد الذاتية، فإن عمله فى مصر لم يكن عقيماً، والحياة التى عاشها لم تكن مجردة من العواطف أو الإلهام؛ ففى خطاب وجهه لصديقه لامى نجده يقول:

"أنا على خير حال هنا .. أمارس الصيد والموسيقى، وأشعر بالسعادة – ولم تنجح بعد قياسات الدوائر بالنسبة للدواوين. وسيكون كل شىء جاهزاً عند وصول السيدة روجيه Rogé . إذا كانت هناك خطابات لى برجاء إرسالها.

وأفتقد الجميع وحتى الصغار . لقد سافرت لأننى لم أكن قادراً على فعل شىء، ولكنكم أصدقاء غاية فى الروعة .. قبلاتى الحارة.

وداعاً .. فأنا ألحن مقطوعة فى الوقت الحالى، ويقول لى جرانال إنها تشبه كوردوفا Cordofa . والواقع أنها مستوحاة منها، وبهذه المناسبة قبلاتى الحارة للآنسة ... [٢٣].

ومن ثم نستطيع الجزم بأن إقامته فى مصر كانت مثمرة. أما بالنسبة لإلهام الإغراب، فقد وجده فى القاهرة وما حولها: فى الصحراء، وشوارع القاهرة الضيقة، ومساجدها، وحريمها، وراقصاتها الشهيرات اللائى يطلق عليهن "العوالم"، وأخيراً فى أسواقها التى يمر بها عدد لا حصر له من القوافل. وقد أجبره وباء الطاعون الذى انتشر فى مصر إلى العودة إلى فرنسا فى التاسع عشر من ١٨٣٥، ولنسجل هذا التاريخ: فلم يؤلف "الصحراء" إلا بعد عشر سنوات من هذا التاريخ، وبالتحديد فى الثامن من ديسمبر عام ١٨٤٤ . وخلال المدة التى فصلت بينهما عانى من أسوأ أنواع الإحباط؛ فعند عودته إلى باريس – وبينما كان يفيض بالشرق والموسيقى، ويحمل صوراً متدفقة وانطباعات – ظل الجمهور بارداً إزاءه.

وكان دافيد فى مارسيليا عندما اقترح عليه صديقه تيودور دى سايس Théodore de Seyes تأليف بعض الألحان. ومتأثراً بذكرياته الأخيرة، ألّف "رحلة على النيل La Promenade Sur le Nil"، و"جوقة بحارين Un Choeur de Bateliers" .

وعند عودته إلى إكس Aix حيث كان يلتقى ببعض الأصدقاء القدامى، اقترح عليه البعض أن يقضى بضعة أيام للراحة فى بيرول Peyrolles .. وهناك وجد نفسه محاطاً بطبيعة جميلة وبريف هادئ يشبه الريف المصرى. ولنترك لصديقه سيلفان سانت إيتيان عناية وصف النشوة التى كان يشعر بها دافيد بعد بضعة أيام من عودته من مصر:

"خلال كل نزهاتنا وأحاديثنا فى كل ساعة ولحظة كان ينقل كل ما اكتسبه من إلهام وشعر فى بلد الشرق الجميل، كان يشعر بنشوة وهو يتحدث عن النيل ذى المياه العذبة التى تخصب الصحراء، هذا المحيط الضخم من الرمال، والذى يعكر طميه وحده - ذلك الطاغية الرهيب - بهديره الصمت العظيم. كان يرسم لى الشفق والليل الملىء بالهدوء والغموض والحب" (٢٤).

كان الملحن الشاب يشعر بأنه نضج بفضل هذا الكنز العظيم من الصور الموسيقية التى اختزنها فى مصر؛ ولم يكن من الممكن أن يستقر به المقام فى بيرول ولكن فى باريس، ولذلك قرر للمرة الثانية أن ينتقل صوب العاصمة.

وفى صيف عام ١٨٣٥، كان الشرق هو الموضوع الرئيسى للفنون الفرنسية، وبلغ الإغراب ذروته فى باريس. وفى الحال بدأ فيلسيان دافيد العمل؛ فقد كان الوقت قد حان ليظهر للجمهور الفرنسى الجامد الموسيقى الإغرابية الحقيقية. وبعد ذلك بعدة شهور، وفى بداية عام ١٨٣٦ نشر "الأنغام الشرقية Les Mélodies Orientales"، وفشل فشلاً ذريعًا. وقد أثر فيه هذا الفشل فكتب لصديقه سيلفيان سانت إيتيان: "إذا كان هناك ضرورة للحكم على قيمة أعمالى بمقدار النجاح الذى حققته، فيتعين علىّ أن أعزى نفسى تعازى حزينة .. ولكننى *اتخذت قرارى الآن*، فأنا أعمل من أجل المتعة؛ لأنى أشعر بالحاجة إلى العمل وأشعر بالمتعة عند ممارسته، وسوف تعرف أعمالى عندما يأذن الله بذلك، ولكن لتحقيق هذا الغرض لن أريق ماء وجهى لأناس لا يريدوننى لأستجدى حمايتهم.

هل من المفترض أن أشعر بالفخر؟ .. إنك تحدثنى عن المجد الذى يجب أن يكون الهدف الدائم لأعمالى، كما تحدثنى عن الأجيال القادمة التى ستحكم على بصورة أفضل فى يوم ما، ولكن يا *صديقى العزيز*، فيم يعنينى المستقبل إذا كنت أموت اليوم أثناء حياتى، شأنى فى ذلك شأن كل العباقرة العظام. إن المجد بعد الموت ما هو إلا كلمة جوفاء، وربما كان لها معنى إذا ما استطاعت تعويضنا عن الآلام التى تحملناها من أجلها" (٢٥).

وكان لفشل محاولته الباريسية الثانية أسوأ الأثر على مزاجه النفسى؛ فقد أصيب بداء الخوف المرضى من الأماكن المغلقة، بينما تدهورت علاقته سريعًا برفاقه بصورة عامة وبالأب أنفنتان بصورة خاصة، وتشهد الخطابات التى وجهها للأب عن حالة

نفسية لإنسان شبه مدمر، ورحل إلى فيليكس تورن Felix Tourne إنيي Igny بالقرب من فرساى. وفى هذه العزلة، بدأ يجتر ذكرياته المصرية، ولحن بعض المقطوعات التى تدل عناوينها عن حالته الذهنية مثل: "الأمطار "La Pluie، و"فكر الموتى La Pensée des Morts"، و"المحيط ونونينو"، وهى أعمال نحاسيات فى مصر.

وأكسبته عزلته الطويلة فى إنيي Igny بعض الصلابة، فقرر العودة إلى باريس، ونزل بها فى بداية عام ١٨٤٤، وهو مزود ببعض المقطوعات الجديدة منها "الملاك المتمرد L'Ange Rebelle"، و"الراين الألمانى Le Rhin allemand"، و"المصرية L'Egyptienne"، و"الحدايات Les Hirondelles".

ولاقت هذه المقطوعات نجاحًا على استحياء، ولكنه كان كافيًا لبعث روح جدباء متعطشة للنجاح، وكان الحديد لا يزال فاتراً، ولكن دافيد قرر أن يطرقه بكل قوته. وخلال ثلاثة أشهر من أبريل حتى يوليو، لحن قصيدة غنائية سيمفونية "الصحراء" كتبها على (دفتر – كراس) لأوجست كولان Auguste Colin .

وفى الثامن من ديسمبر عام ١٨٤٤، بمسرح الكونسرفتوار، أحدثت موسيقى دافيد نجاحًا عظيمًا، واستقبلت قصيدته الغنائية السيمفونية بنجاح عظيم بفضل الإغراب الذى كان طابعًا غير معتاد للجمهور الفرنسى، وفى قلب هذا الإغراب سادت صورة مصر.

"تستحق "الصحراء" نظراً لتكوينها الاسم الذى أعطاه المؤلفون لها: قصيدة غنائية سيمفونية؛ فهى قصيدة غنائية لأن البعد الشعرى مبحوث عنه، وهى فى نفس الوقت سيمفونية أكثر من كونها لحنًا غنائيًا أو موشحة دينية؛ لأن هذين الشكلين يفترضان جواً يتسم بالدرامية أكثر من الوصفية، ويتركان بسهولة تخيل سيطرة الصوت على الأوركسترا. وفى هذا المجال، فإن "الصحراء" تسعى بالأحرى إلى التوازن" (٢٦).

وهكذا يعلق جى بى بارتولى J. P. Bartoli على هذه القصيدة الغنائية السيمفونية خلال دراسة كبيرة لأعمال دافيد:

"تتكون "الصحراء" من ثلاثة أجزاء تتحدث عن رحلة قافلة حجيج فى الصحراء. ويقرأ راو مختلف أجزاء السيمفونية، ويهيئ المستمعين نفسيًا لمختلف الفصول. وبعد افتتاحية شبه صامتة، يتخللها ثلاث مرات الصوت العظيم الذى يصف الصحراء،

يغوص الجمهور تماماً في جو غامض، ويبدأ دافيد قصيدته الغنائية بتعظيم رائع لله، ويأخذ عن مصر وبالتحديد عن دراويشها الصوفيين، نغمة أناشيدهم الدينية. وكل من كان له حظ الاستماع إلى حلقات الدراويش ورؤيتها في القاهرة القديمة كان قادراً على التعرف على خطى النغم أحدهما متصاعد بقوة والآخر منخفض برصانة.

وطور الإسلام المصرى خلال القرون الممارسات التى كانت تتم حتى فى أيام الأعياد الدينية الريفية حيث يمارس الفلاحون الرقص الغنائى بطريقة هاذية، مرتلين اسم الله ورسوله. وفى بعض الطوائف الصوفية تتأثر هذه الأناشيد بالأناشيد الطقسية القبطية ولاسيما فيما يتعلق بالأناشيد الجماعية فى المساجد الكبيرة.

وبعد تعظيم الله، يغير دافيد الإيقاع فمع مسيرة القافلة، يجهز المستمعين للغوص فى مجال *الإغراب*، ويتم التعبير عن *الموضوع الرئيسى – اللذيذ – للمسيرة* عن طريق توزيع رائع للآلات الموسيقية على اللحن حسب خصائصها.

يقول جى بى بارتولى: "ويتم ذكر الموضوع الرئيسى (التيمة) خمس مرات كاملة، ولكن فى كل مرة بآلات موسيقية أكثر قوة، يتخللها فكرة رئيسية مضادة يعبر عنها بأوبوا، ثم كمان، ثم كونترباس، وأخيراً تستخدم كل أدوات الأوركسترا معاً " (٢٧).

وتغلف الفكرة الرئيسية المضادة التى يعبر عنها بالأوبوا وحدها مجموعة من الصور التى تروى أنشودة "الحادى" العربية القديمة وصورته الجميلة وهو يمسك الناى ليرشد مسيرة القافلة التى لا تنتهى، ويدخل عليها البهجة.

وقد انطمس اليوم دور "الحادى"، وكان قد شهد انطلاقة فى القرن التاسع عشر مع الانتعاش الاقتصادى وتزايد التبادلات التجارية بين مصر والدول المجاورة عن طريق القوافل (٢٨).

كانت أيام سفر القوافل ووصولها تعد أيام عيد حقيقى؛ حيث كان يغنى الحادى ويعزف أناشيد القوافل التقليدية، وهكذا استطاع دافيد بذكاء أن يضفى على صورته الموسيقية طابعاً أصلياً، وذلك باقتباس إيقاع "الحادى".

وفى "نشيد الليل" **L'Hymne à la Nuit** ، وهو نشيد مغن [صابح [بصحبة أوركسترا، يضع دافيد كل موهبته للحديث عن ليل الشرق تحت سماء تلمع فيها النجوم، ليل سابح فى طراوة "الشبيوك" (النرجيلة) ودخانه، ويكتسب إيقاعه من رقص العالمة المتموج الحركات :

"آه ياليل! آه يا ليل جميل!

طراوتك تسعدنا

لما فى الهوا المعطر

على صوت الترابوكا

تتمايل العالمة زى

دخان الشيبوك.

وباقتباس بعض الكلمات العربية، بلغت هذه الأنشودة ذروة الرومانسية الإغرابية الفرنسية لذلك الوقت، واستوحت من الفولكلور الصحراوى، وجهزت الجمهور، ودعته بفاعلية إلى سهرة كبيرة بدوية فى قلب الصحراء، ولذا لا يتدخل الراوى لإعلان ما سوف يحدث.

وتحمل التوليفة اسم "نزوة عربية Fantaisie Arabe"، وتتكون من لحنين: "اللحن السورى"، و"رقصة العالمة".

و"اللحن السورى" عبارة عن رقصة مليئة بالحيوية والنشاط، ومع ذلك فهناك شك حول أصولها السورية، ولاسيما عندما نعرف أن الملحن قد زار سوريا زيارة عابرة أو بالأحرى الساحل اللبنانى، بعد رحلة شاقة تعرض فيها لآلاف المخاطر، ولذا فلا نميل للاعتقاد بأنه كان لديه الوقت لتعلم الموسيقى السورية ومعرفتها وتذوقها. ويذكرنا "اللحن السورى" بالأحرى بأنغام روسينى، ويذكرنا عن بعد "بخليفة بغداد" تلك الافتتاحية الشهيرة لبوالديو Boïeldieu، والربط بين الرقصة السورية ورقصة العالمة يثير فكرة محددة؛ ففى الواقع يقدم دافيد للمرة الأولى صورة صوتية وملموسة لشخصية أدبية مصرية يجهلها الجمهور الفرنسى.

وبفضل كتابات الكُتّاب والرحالة الفرنسيين الذين تحدثوا عن مصر، نعرف أن كلمة "عالمة" مأخوذة من اللغة الشعبية المصرية، وتنطق ككلمة "عالمة"، وتشير إلى الراقصات المغنيات اللاتى ميزن – ولا تزلن تميزن – الحياة الفنية المصرية. ولنسمع رأى الخبير الموسيقى سيمون جارجى Simon Jargy .

"نجد فى خدمة هذا الفن (الغناء) لا النواد التقليدية فحسب، ولكن أيضًا نجد فى شكل شعبى مغنيات راقصات محترفات يطلق عليهن "عوالم"، وهن نوع من أنصاف سيدات المجتمع يذكرن بطريقة غريبة دور القينات القدامى فى عصور الجاهلية العربية، وبعضهن ممن يمتزن بالموهبة وصلن إلى منافسة مغنيات البلاط: ونذكر على سبيل المثال "ألمظ" التى أصبحت فى نهاية القرن التاسع عشر معبودة المجتمع الراقى فى مصر .. " (٢٩).

ونجد أيضًا وصفًا صحيحًا للبيئة الموسيقية المصرية فى أحد فصول "وصف مصر" لفيلوتو Villoteau، وهو فصل مخصص لهذه الموسيقى، كما كرر أد. وا. لام Ed. W. Lame نفس هذا الموضوع بعد بضع سنوات فى كتابه الشهير "كشف حساب عن عادات المصريين المتطورين"، والذى نشر عام ١٨٣٧

وقد تم تناول موضوع العالمة باستفاضة فى هذين العملين. ومن الصعوبة بمكان معرفة إذا ما كان دافيد قد استخدمهما أم لا، ولكن أغلب الظن أنه تردد على أوساط العوالم سواء فى محال إقامتهم، وهى نوع من البيوت المغلقة فى قلب القاهرة القديمة، أو فى قصر مواطنه الذى أخذ الجنسية المصرية سليمان باشا عندما استضاف السان سيمونيين وقدمهم لنائب الملك.

وفى هذه المرة شعر الجمهور الفرنسى بالنشوة عندما سمع لأول مرة رقصة العالمة.

والمؤكد أن أصالة الإلهام النغمى كان مصدر هذا النجاح، وعندما نتحدث عن الأصالة نقصد بها هذا النغم الحى الشهير حتى يومنا هذا بين عوالم القاهرة، وهو النغم الذى نقله فيلوتو Villoteau، موسيقى لجنة الفنون والعلوم فى الحملة الفرنسية ١٧٩٨ - ١٨٠١ . ومن ثم يتسنى لنا الجزم بأن دافيد كان أول من أضفى عليه الطابع الموسيقى، وقد شهد موضوع العالمة الذى اقتبس من الأدب الرومانسى نجاحًا عظيمًا، ووجدت فيه الموسيقى الفرنسية والأوروبية بعد ذلك مَعينًا لا ينضب لمختلف ألوان الإغراب.

وإذا كان دافيد قد نجح فى نقل صورة العالمة المصرية وهى تتمايل محاطة بدخان "الشيبوك" فى "نشيد الليل"، وإذا كان قد استخدم الموسيقى المصرية فى مقطوعة

"العالمة"؛ فقد فاجأنا بصورة أكبر مع "حلم الليل Rêverie de Soir"؛ فالواقع أن موضوع أحلام الليل يعد لحنًا فولكلوريًا شهيرًا كرره مصلحون مصريون فى مجال الأغنية فى نهاية القرن التاسع عشر. والحق أننا نجد فى معظم الأغنيات المصرية هذه الأحلام الليلية مقترنة عادة بموضوع العاشق الذى جافاه النوم؛ فهو يمضى الليل فى غناء محبوبته بينما تسكر فى نشوة الحب.

"ياليل طول شوية

آه، بتخلينى أحب وأعيش

آه يا ليل وأنا صوتى بيغنى

محبوبى يسكره الحب

يا صيت متعقل، يا قمر يا منور

مقدرش أوصلك فى السما ..

وأنا هنا وصوتى يغنى

محبوبى يسكره الحب

وجفن عينى السهران

للنوم الهادى يستسلم

ولما صوتى يسكت ويزول

محبوبى يسكره الحب.

وباستثناء موضوع "حلم الليل"، هناك موضوعان مصريان يفرضان نفسهما فى هذا السياق: غناء منفرد بالتربوكة، واللازمة اللحنية "محبوبى يسكره الحب"، وهى لازمة دينية وعاطفية.

وها قد بلغنا تقريباً نهاية القصيدة الغنائية السيمفونية؛ لأن بعد "حلم الليل" يستقر الهدوء الذى يسبق العاصفة فى نوم ملىء بالأحلام.

وأخيراً يرفع الستار عن الجزء الثالث مع أذان للصلاة يطلق عليه "نشيد المؤذن"، ثم تتابع القافلة مسيرتها قبل أن تنتهى القصيدة الغنائية السيمفونية بتعظيم الله.

أما بالنسبة "لنشيد المؤذن" فهو يشكل أحد ابتكارات الملحن الأكثر جرأة؛ فلم يفكر أحد قبله أن ينقل أذان الصلاة لاستخدام الجمهور.

ومن الصعب تصور رد فعل الجمهور فى الثامن من ديسمبر ١٨٤٤ الذى سمع بعد مقدمة رزينة للوتريات والبيانو الأذان يغنيه بالعربية مغن منفرد، وتصل الجملة الأولى كصوت الرعد: "السلام عليك" وتقاطعها الأوركسترا، وتجيب بمقطع وتريات حتى يستكمل المغنى المنفرد "عليكم السلام".

وهناك ملحوظتان يتعين الالتفات إليهما فى هذا الصدد: أولهما أن الشكل الموسيقى الذى يحيط بالجملتين غربى بحت، وثانيهما أن النشيد يبدأ "بالسلام" لا "بالله أكبر" كما هو الحال فى الأذان الحقيقى؛ فهل هذا الأمر مفتعل لجذب انتباه الحضور الذين يعرفون جيداً عبارة "السلام عليك"، أكثر من كلمة "أكبر"؟ أم أن دافيد قد نسى الأذان كما سمعه فى مصر بالرغم من انطباعه في ذاكرته منذ حوالى عشر سنوات، كما يقول جان بيير بارتولى (٣٠) Jean Pierre Bartol .

ونميل إلى الاعتقاد بأن نشيد الصلاة هذا كان بالأحرى مدوناً فى دفاتر رحلته؛ لأنه قام بتلحينه بعد بضعة أيام من وصوله إلى بيرول.

يقول سيلفان سانت إتيان "لقد كتب الصلاة – التى كانت توافق أفكاره من الناحية الشكلية – دفعة واحدة فى فترة زمنية جد قصيرة، ولم يمنعه ذلك من كتابتها بطريقة سليمة وتقديمها فى قداس يوم الأحد التالى" (٣١).

أما باقى جمل الأذان فيتم إنشاؤها فى صورتها الموسيقية الأصلية، ولاسيما "الله أكبر"، وتذكر اللحن الجميل لمسيرة القافلة: "محبوبى يسكره الحب"، وينتهى الأذان بنغمة مكسورة: "حى على الفلاح"، يتبعها جملة أوركسترا بوتريات وكونترباس، لتنقل شعوراً من الغموض والقلق.

وبعد هذا النشيد، يقع المستمع تحت وطأة اللبث، وقد يتساءل عن الإضافة المصرية التى يقدمها، ومع ذلك يبدو من الأهمية بمكان الرجوع قليلاً إلى أصول الأذان فى الإسلام والعلاقات التى تربطه بالموسيقى.

والواقع أن سور القرآن الكريم تتسم بطابعها الموسيقى، وبعضها يتضمن قافية، ويتم ترتيلها بإيقاع أنشودة الحادى التى وصفناها للتو.

ولكى نكون أكثر تحديداً، نذكر أن بعد نزول الوحى على الرسول (ص)، اضطر إلى الهجرة من مكة (بداية التاريخ الهجرى)، واستقبله أهل المدينة بالأناشيد وعزف الدفوف. وبعد ذلك بوقت قصير عندما قرر بناء أول مسجد، صاغ أذاناً منغماً، واختار لهذه المهمة المقدسة عند المسلمين - أجمل وأقوى الأصوات آنذاك، وهو العبد الحبشى بلال.

ويضطلع المؤذن - شأنه شأن مرتلى القرآن - بدور جمالى قل أو كثر فى الشعائر الدينية فى مصر.

فمن بين كل دول العالم العربى، كان المصريون - عبر القرون - أكثر من حاول إدخال الموسيقى بشكل واسع فى قراءة القرآن والأذان، ولكن للأسف لم يتسن لهم ذلك بسبب افتقادهم للجرأة، وكذلك بسبب الخلافات العقائدية. لقد استطاعت فقط مؤخراً كوكب الشرق أم كلثوم - بتأييد من الرئيس ناصر - إدخال الأذان معزوفاً بأدوات غربية فى "الثلاثية المقدسة".

ويمكننا تخيل أن المؤذن المصرى - الذى أوحى إلى دافيد بطريقته فى ترتيل الأذان - كان يدعو فى الوقت نفسه لحفلات دنيوية.

ومن ثم فقد استخدم دافيد فى "الصحراء" ثلاث طرق: الأولى هى النقل الأمين أو التقريبى، والثانية تكمن فى إدخال تركيبات نغمية شرقية صرف - أو معترف بها كشرقية يتم تكرارها بطريقة متسلطة، والطريقة الثالثة تعتمد على الاستماع الغربى للموسيقى العربية" (٣٢).

وبالنسبة للنقطة الأخيرة - التى تحدث عنها جى. بى. بارتولى - يتعين الإشارة إلى أن دافيد لم يكن ينوى إبداع سيمفونية عربية فى ليلة الثامن من ديسمبر ١٨٤٤ تلك بسبب نقص المعارف الكافية عن الموسيقى العربية أو بسبب عدم تقدير هذه

الموسيقى؛ ففى هذه الفترة كانت الموسيقى العربية الصوفية - شأنها شأن موسيقى الشعوب الشرقية - غير معروفة، ولم يكن كل ما يعتقد الأوروبيون معرفته عنها سوى انطباعات منسوخة فى الخيال الجمعى بعد قراءة "ألف ليلة وليلة" أو بصورة أكثر جدية بعد قراءة "وصف مصر".

ومع ذلك، نجح دافيد فى التشبع بهذه الثقافة، حتى إن صمت الصحراء نفسه كان له أثر كبير فى ألحانه، واستطاع بطريقة خارقة للعادة تجسيد هذا الصمت، وفقًا لتعبير جى. بى. بارتولى نفسه (٣٣).

فهو لم يتوجه إلى مصر ليبحث فيها فقط عن كليوباترا كما فعل برليوز، أو عن مصر التوراة كما فعل شاتوبريان، أو ليجد بعيداً عن فرنسا مصر ماسونيه كما فعل موزار، ولكنه - شأنه شأن إخوانه السان سيمونيين - وجد فى مصر أرضًا للخلاص وأرضًا واعدة بالإلهام.

ولم يستهوه - وكذلك الحال بالنسبة لنرفال - الماضى والمدن الميتة، ولكنه سعى - على العكس- إلى بناء صورة بلد يمكن رؤيته فى الحال عن طريق موسيقاه، كما فعل شامبليون عن طريق اكتشافاته وعلماء أجلاء آخرون عبر كتاب "وصف مصر". ولا يعد إغرابه نزوة فنية أو بحثًا عن نزوة مسلية، ولكنه ببساطة سبيل لتقديم الآخر كما هو لا كما نتخيله كما فعل رامو Rameau وبوالديو Boïeldieu وبرليوز.

وكان تأثير دافيد على من تلاه جد كبير؛ فقد اعتقدوا بأنهم مضطرون من الآن فصاعداً إلى السفر إلى الشرق للتأمل والاستماع. ومن الناحية التقنية، أثرت "الصحراء" تأثيراً بالغًا على الموسيقى الفرنسية المستوحاة من قريب أو بعيد من النيل أو الإسلام من دليبس Delibes وحتى رافيل Ravel مروراً برابو Rabaud وماسونيه Mas-senet - أما بالنسبة للموسيقيين الروس الذين يعدون أساتذة فى هذا المجال، فنحن نكاد نجزم بأنهم استوحوا من الموضوعات العربية بصفة عامة ومن موضوع العالمة بصفة خاصة - وهو موضوع يرجع الفضل فيه لدافيد - ولاسيما عند رمسكى كورساكوف Rimsky Korsakov وختشاتوريان Khatchatourian وأنطون أرنسكى (٣٤) An-ton Arensky.

ولم يقتصر دور دافيد على إدخال الألحان العربية والمصرية، ولكنه برهن على أهمية استيعاب روح المصادر المستخدمة فى الموسيقى وكذلك فى الأدب. وقد حرص رابو Rabaud فى الأوبرا التى ألفها "معروف، إسكاف القاهرة" على هذا المفهوم، واضطر إلى استخدام فى كل العمل كلمات أهل القاهرة ومقطوعة لحنية يظهر جوهرها المصرى من نغماتها الأولى، وسار بصورة أكبر فى هذا الاتجاه خاتماً هذه الأوبرا بتعظيم متواضع لله.

وعندما أشادت الصحافة الفرنسية غداة الثامن من ديسمبر ١٨٤٤ بدافيد؛ فقد بات واضحًا أن الاكتشاف لا يقتصر على موسيقى جديدة، ولكن يخص بلداً بأكمله بعوالمه ومناظره وأناشيده الشعبية وديانته. وإذا كان الملحن قد أسهم فى هذا الاكتشاف فى مجاله، فإن نرفال هو الذى سيعرف فى كتابه "رحلة فى الشرق Voyage en Orient" الصلات الوثيقة والتماثلات التى تربط كتابه "بصحراء" فيلسيان دافيد.

الفصل الخامس

جيرار دى نرفال
أو السحر حتى الممات

"مصر هى مقبرة واسعة"

جيرار دى نرفال

كان جيرار دى نرفال – واسمه الحقيقى جيرار لابرونى – شاعراً عظيماً وروائياً كبيراً، وكان أيضاً صحفياً ومؤلفاً مسرحياً، كتب فى مجال العجيب، وكذلك فى مجال التعمية والألوان الداكنة الهرمسية.

وكان جيرار دى نرفال ابن عصره والممثل بامتياز "لداء القرن" الذى اضطرب بسبب ابتكار الميكانيكا والمذاهب الفلسفية الجديدة. ولنكتف بأعماله المثيرة وبرحلته فى مصر بصفة خاصة؛ لأن دراسة أغراب نرفال لا يمكن حصرها داخل حدود فصل واحد.

ففى الوقت الذى احتفى فيه الجمهور بفيلسيان دافيد فى ٨ ديسمبر ١٨٤٤، كان نرفال يستعد لنشر "رحلة فى مصر Voyage en Egypte" فى حلقات روائية كانت ستظهر للمرة الأولى فى "مجلة العالمين Revue des Deux Mondes" فى عددها الصادر فى الأول من مايو ١٨٤٦، وكانت هذه الرحلة بمثابة المخرج من أزمة عميقة للجنون انتهت بإقامة صعبة لمدة ثمانية أشهر فى مصحة الدكتور إسبرى بلانش Esprit Blanche النفسية.

وكان نرفال يعانى بالفعل منذ الصغر من اضطرابات عصبية نفسية، وبعبارة أخرى – كما كانت تقول مارى فيفيه Marie Vivier " – كان يعانى من نوع من خلل فى

التنظيم فى دائرته التعليمية الوجدانية مما هيأ لجوءه إلى الكحول، وهو عنصر سام للعقل من شأنه أن يحقق للمريض نوعًا من الهروب، ولكن من شأنه أيضاً تهيئة الأزمات وزيادة خطر دائه الأساسى" (٣٥).

وعند خروجه من المصحة فى المرة الأولى، شعر أنه شفى من الداء، ولكن شعر أيضًا بأنه مستنفذ ومضطرب، والأسوأ من ذلك بأنه منبوذ من أصدقائه ووسطه الأدبى وعائلته، ومن ثم قرر الشروع فى رحلة كبيرة يستطيع بفضلها أن يبعث الطمأنينة فى قلوب الجميع.

ربما أراد أيضًا التأكد من اتزانه، وأن يرتكز بقوة على قاعدة صلبة ومؤكدة وتجديد حياته وإلهامه وتقوية نفسه معنويًا وجسمانيًا. ويقول جان مارى كاريه Jean - Marie Carré إن السفر كان ضروريًا لنقاهته الذهنية وتضمن رغبته القديمة والعميقة فى الهروب" (٣٦).

وإذا كان الهروب الذى يتحدث عنه جان مارى كاريه يعد إحدى السمات الأساسية لهذا الجيل من الرومانسيين؛ فقد أخذ بالنسبة لنرفال طابع الفرار، ولذا فقد قرر الرحيل أو بالأحرى الهروب.

ففى هذه المرة كان بحاجة إلى أقطار مختلفة عن أقطار أوروبا التى كان مشبعًا بها. كان بحاجة إلى واقع آخر يستطيع أن يعيش فيه حلمه؛ فقد كان قد فقد فى وطنه الواقع والحلم، وكان الشرق هو وحده القادر على أن يوفرهما له أو بالأحرى يبعثهما فيه.

ورحل دى نرفال بصحبة شخصية غير معروفة: جوزيف دى فونفريد Joseph de Fonfrède، ووصل إلى مصر فى السادس عشر من يناير عام ١٨٤٣، ولم يمض فيها سوى ثلاثة شهور، وخرج منها برائعة أعماله "رحلة فى الشرق Voyage en Orient".

وقبل أن ترسو السفينة التى كان يقلها فى الإسكندرية، كان قد اختار مصر القرن التاسع عشر ودرسها، وهى مصر الثائرة من أثر أعمال الباشا وأفكار السان سيمونيين.

ومع ذلك، فعند اقترابه من ساحل مدينة الإسكندرية كتب: "مصر هى مقبرة كبيرة" (٣٧)، وتعد هذه الجملة نوعًا من تأوه صادر عن كآبة مبهمة وهو على أعتاب ما كانت تعج به

الأزقة المزدحمة من أناس وكلاب وحمير، وبصفة خاصة نساء محجبات واختلاط نغمات موسيقية غريبة.

وكنت أقول لنفسي: "ماذا؟ أهذه مدينة ألف ليلة وليلة، وعاصمة الخلفاء الفاطميين والسودان؟ ..

وكنت أغوص في الشبكة المعقدة من الشوارع الضيقة المتربة، وسط الجموع التي ترتدي الملابس المهلهلة، وتزاحم الكلاب والجمال والحمير" (٣٨).

وهكذا بدأ نرفال أولى لياليه بالقاهرة.

وقد لاحظ ماكسيم دي كان في كتابه "ذكريات أدبية" Souvenirs littéraires رفض نرفال القاطع لمصر القديمة. والجدير بالذكر أن ماكسيم دي كان قد عُرِف بشغفه بالأدب وبفلوبير، ويقول:

"لقد رحل جيرار إلى الشرق، وكنت أحب التحدث معه عندما كنت أتمكن من إخراجه من الحلم، وهذا الأمر لم يكن دائمًا سهل المنال. وفي رحلاته لم يكن يبحث عن مظاهر الطبيعة التي لم يكن يكترث بها، ولا عن ذكريات التاريخ التي كانت لا تشغله على الإطلاق؛ كان يرغب في إجراء دراسات عن التقاليد في البلاد التي يجهل لغتها، ولذا فقد أجبر على الوقوف عند ظواهر الأمور" (٣٩).

وعندما نقد دي نرفال بهذه الطريقة، فقد تجاهل أنه وقع هو نفسه في نفس هذا الخطأ؛ فعلى الرغم من جهله بعلم المصريات، كتب عن "النيل ومصر والنوبا، وكدس كتابه بالمعلومات الأثرية ..

وتمثلت أول صدمة لنرفال في استنتاج الفارق الكبير الذي يفصل بين الخيال الجمعي الذي شكل الحافز لرحلته إلى القاهرة والواقع الذي صدمه، ولاسيما خلال أولى أيام وجوده في أرض الشرق، وكان بالفعل هذا الواقع هو ما يبحث عنه نرفال بضراوة في مصر آخذًا على الأوروبيين الوصول إلى الشرق ومغادرته في عجالة.

وقال: "كانت مصر الخطيرة والتقية أرض الألغاز والأسرار؛ فالجمال – كما كان في الماضي – مستور فيها خلف النقاب والعصبيات، وهذا الموقف الكئيب يحبط بسهولة الأوروبي العابث؛ مما يدفعه لمغادرة القاهرة بعد ثمانية أيام متعجلاً السفر إلى شلالات النيل بحثًا عن إحباطات أخرى – يقدمها له العلم – ولا يوافق عليها أبدًا".

وسريعًا ما كوفئ صبره؛ إذ عاش مغامرة جميلة؛ فذات مساء استيقظ من النوم على صوت موسيقى بعيدة، أخرجته من منزله، ليتابع النغمات فى أصغر الحوارى، وكانت هذه اللحظة بداية إقامته فى القاهرة. أكان من قبيل الصدفة أن توضع مغامرته المصرية منذ البداية تحت شعار الموسيقى؟ أكان من قبيل الصدفة أن تعنون أهم فصول روايته عن مصر: "العالمة والقافلة ورياح الخماسين" ؟

وتتمثل إجابات هذه الأسئلة فى القصيدة الغنائية السيمفونية التى قدمت قبل ذلك التاريخ بثمانية عشر شهراً فى فرنسا، وهى مؤلف فيلسيان دافيد "الصحراء"، وبالفعل اقتبس نرفال عن دافيد خط سيره على المستويين المادى والمعنوى، وذلك قياسًا بأن كلاً منهما قد أعطى لمصر المعاصرة أهمية تفوق مصر القديمة، وبأن كلاً منهما قد اختلط بالوسط الشعبى فى القاهرة القديمة واستخدم اللغة الشعبية لرجل الشارع. وكل ذلك كان ثابتًا عند دافيد، وأثبت بعد ذلك عند نرفال. وتكتسب التماثلات بين المسيرتين بالنسبة لنا أهمية قصوى؛ فمن ناحية سعى الأدب للمرة الأولى فى التقليد الرومانسى الفرنسى إلى محاكاة الموسيقى؛ ومن ناحية أخرى سار على هذا الدرب – الذى فتحه كل من دافيد ونرفال – ريار Reyer مع جوتييه Gautier فى "سلام Sélam"، وريار مع فلوبير Flaubert فى "سلامبو Salammbô"، ورابو Rabaud مع نبوتى Nepoty فى "معروف، إسكافى القاهرة Marouf, Le Savetier du Caire"، وماسينيه Massenet مع لوتى Loti فى "تاييس Thaïs" .

ويحمل الجزء الأول من رواية نرفال عنوان "نساء القاهرة Les Femmes du Caire"، ويعد الجزء الأكثر أهمية؛ لأنه يحتوى على شبه مجمل الأحداث التى شكلت إقامته فى القاهرة. وباستثناء هذا الجزء لا يوجد سوى فصل صغير يتحدث فيه نرفال عن الأهرامات. وبدا نرفال وهو يصف هذه الأهرامات وكأنه يخجل ألا يصف هذه الآثار خلال رحلته إلى بلد الفراعنة، وكتب هذا الفصل الأخير كما لو كان فى منفى.

وكما قلنا يفتتح المشهد القاهرى الأول على رجل شارد الفكر يمشى فى زفة لعروسين فى ليلة شرقية؛ فالأمر يتعلق بحفل يختلط فيه الجمع حتى الأجانب.

ويقول ميشيل جانريه Michel Jeanneret فى مقدمته لكتاب نرفال: "إن الأمر يتعلق بخوض التجربة الملموسة للانصهار، واقتسام الغذاء، والرقص الجماعى، وحرارة اللقاء .. وكل هذا يوطد العواطف ويلغى المسافات فى العلاقة بالعالم المحيط" (٤٠).

ويضيف: "يسد الحفل الفجوات بين الناس"، ويقرر نرفال منذ التمهيد الانضمام إلى الجماعة، وفى هذا المناخ ينجذب المؤلف بوجود المرأة، ويميز جيداً الحجاب، هذه الظاهرة الشرقية التى تخفى خلفها عالمًا بأكمله تنبع منه ثقافة بأكملها.

وقد نجح فى الكشف عن هذا العالم ووصف هذه الثقافة، لا عن طريق كلمات ملاحظ يخضع مسبقًا للظاهرة، ولكن بمزج العديد من العناصر والأفكار المادية والميتافيزيقية، متعلقًا بنقل مشاعر الامتزاج بين الأفكار والناس، وهكذا فإن هذا العالم الغريب المستور خلف الحجاب يتكون من مبدأين أساسيين هما: الجارية والمرأة، يمثل المبدأ الأول المرأة كما ينظر إليها، والثانى المرأة كما ينبغى أن تكون. وبغية توحيد هذين الطرازين للمرأة، يتزوج من جارية مصرية، ويحاول تغييرها، وذلك بتعليمها لغته ومهنته ومعاملتها بوصفها امرأة. وسريعًا ما تظهر خيبة الأمل الأولى؛ فلا تكف هذه الجارية عن إظهار تعلقها بعادات البلد وازدراء محاولات نرفال فى التواصل معها لتحسين وضعها المادى والفكرى، وترفضها بتعنت، وتشكل بهذه الطريقة فشل الكاتب الأول على أرض الهروب.

ومع ذلك فإن مغامرة نرفال الشرقية إزاء المرأة مكونة أساسًا من الروابط بالخيال الجمعى، وتشهد بذلك صفحاته الرائعة التى تخص العالمة، التى تعد نموذجًا للجارية التى يلتقى فيها ببراعة الواقع بالخيال الجمعى.

ويقول: "كان هناك شباب يحملون رايات وسوارى تعلوها شعارات ورموز ذهبية، كما نرى فى الاستقبالات الاحتفالية الرومانية .. ثم تأتى العوالم والغوازى وهن يرتدين أثوابًا حريرية وفوق رؤوسهن طرابيش بتجويفات ذهبية وضفائرهن التى يتدلى منها الخريات (عملات ذهبية)، وكانت أنف بعضهن مثقوبة بحلقات طويلة، وكانت تكشفن وجوههن المزينة بالألوان الحمراء والزرقاء، بينما تظل أخريات متشحات بالحجاب رغم غنائهن ورقصهن" (٤١).

ولنتخيل كاتبنا فى هذا الوسط المكون من ألوان وروائح وأصوات عالية وهو يرتدى عباءته العربية جالسًا يثيره المنظر الذى يشكل هو نفسه جزءًا لا يتجزأ منه.

وعاش نرفال – شأنه شأن فيلسيان دافيد قبل ذلك التاريخ بعشر سنوات – نفس الموقف متأثرًا برائحة الشيبوك (النرجيلة)، وسط نفس الألوان والعقود تثيره حركات

هذه العالمة، وسعى كل منهما بلا شك وهو يحضر هذه الحفلات إلى الاقتران بواقع الشرق، وكانت الموسيقى الجميلة "لرقصة العالمة" والوصف الرائع "للمرأة القاهرية" ثمرات هذا الاقتران. ولنقرأ لنرفال وهو منغمس في هذه البيئة الساحرة "كانت أجمل أجزاء الحفل تدور في الساحة، حيث كانت الرقصات بصوت عال، وكان هناك فرقة من الراقصين النوبيين الذين ينفذون خطوات غريبة وسط دائرة يكونها الحضور؛ فكانوا يروحون ويغدون مسترشدين بامرأة محجبة ترتدى عباءة مخططة بخطوط عريضة وتمسك في يدها سيفًا معكوفًا، وكانت تبدو أحيانًا وكأنها تقود الراقصين، وأحيانًا أخرى وكأنها تهرب منهم. وفي نفس هذا الوقت كانت العوالم تصاحب الرقصة بأغنياتهن وتدق بأصابعهن على التربوكة التي تحملها إحدى يديها بارتفاع أذنها .. " (٤٢).

ولاحقًا بدافيد في عالم العوالم، تناول نرفال ما سحره في السيمفونية قبل سفره: الموسيقى الشرقية.

وكلنا يعلم عشق نرفال للموسيقى ونغماتها الشعبية، ولقد رأينا ليلته الأولى في مصر وهي تبدأ بمشهد موسيقى. وفي باقي روايته يطور نرفال نوعين من الوصف وثيقي الصلة بعمل دافيد: رواية نرفال "للصحراء" التي تتكون أيضًا من ظاهرة القافلة من جهة وظاهرة "الدروشة" من جهة أخرى.

ويحمل الفصل عنوان "قافلة مكة"، ويبدأ بنرفال وهو متخف في صورة رجل شرقي، ويستعد لمتابعة عودة الحجيج إلى القاهرة.

ويقول: "خرجت أخيرًا من حانوت الحلاق وقد تغير شكلي، وأشعر بالسعادة والفخر لعدم تلويث المدينة العظيمة بارتداء البالطو الضيق والقبعة المستديرة. وقد بدت هذه الصورة من الترتيب جد ساذجة بالنسبة للشرقيين حتى إنه يوجد في المدارس دائمًا قبعة فرنجة يرتديها الأطفال الجهلة أو المتمردون" (٤٣).

ومنذ زمن بعيد ونحن نعرف أن ظاهرة القافلة تجسد هوية الفلاح الشرقي .. والقافلة بطبيعتها هي خير متنقل تسمح بالتبادلات التجارية والثقافية، وتجد الشعوب الشرقية – وهي عادة شعوب رحالة – نفسها في القوافل؛ فهذه الشعوب تطلب من القافلة ما كانت تجده شعوب أخرى مرتبطة بالبحر في السفينة، بيد أن السفينة هي شيء وأداة تقنية اخترعها الإنسان، بينما الجمل مخلوق حي أهدته الطبيعة للإنسان.

ومسيرة القافلة على النغمة الأكيدة والمنتظمة والعظيمة لخطى الجمل التى تمتد على الأفق اللانهائى تجبر ركابها المجتمعين - وهم أحرار، ولكن فى الوقت نفسه سجناء داخل الصحراء ومخاطرها - إلى التواصل مع ضخامة الرمال ببعث الحياة فيها عن طريق مشاعر غامضة من الاحترام والتواضع، وكذلك من الإثارة والسمو. وما الذى يمكن إضافته عن التأثير المقطر لجمال الليل الجذاب، والمخيم الذى لا يزال حتى يومنا هذا مصدراً للتقليد الشرقى للسهرات الليلية تحت السماوات المليئة بالنجوم ؟!

ولنعد الآن إلى قافلة نرفال، ونكتسب شهادته عن قافلة المحمل (قماش مطرز بالذهب تغطى به الكعبة فى مكة) أهمية قصوى؛ حيث كانت إحدى آخر القوافل المصرية قبل إدخال سعيد باشا للسكك الحديدية نحو نهاية الخمسينيات من القرن التاسع عشر، وترسم رواية نرفال صورة رائعة لمدينة مبهجة تكون كل من القوافل والجنود الانكشارية والعوالم والمغنين والأدوات الموسيقية عناصرها الرئيسية.

ويأخذ وصول القافلة مظهر مسيرة نصر وتذكر بمسيرة فيلسيان دافيد الشهيرة، ومن ثم يستولى الكاتب نرفال - بعد الملحن - على هذا الموضوع الاستشراقى الخاص بموكب الجمال.

وكما ذكرنا، فإن وصف نرفال مستوحى بدرجة كبيرة من الموسيقى؛ فهو يتذكر وهو يرتدى الملابس الشرقية مسيرة الجمال التى ألفها الملحن أندريه مودست جريترى André Modeste Grétry فى أوبرا: "البخيلان وقافلة القاهرة"، فيقول:

"ووصلنا إلى باب الفتوح، وكان الشارع الطويل المؤدى له مكتظًا بالمتفرجين الذين كانت تصفهم القوات، وكانت أصوات الأبواق والصاجات والدفوف تنظم سير الموكب؛ حيث كانت تميز مختلف الأمم والطوائف عن طريق النصب التذكارى والأعلام. أما أنا فقد كنت فريسة الانشغال بأوبرا قديمة اشتهرت فى عصر الإمبراطورية، وكنت أدندن على نغم خطى الإبل" (٤٤).

ومن ثم تأثر دافيد بصورة جريترى ودافيد الموسيقية، ولم ينجح أى كاتب قبله قط فى رسم صورة بلون مصرى بهذه الدرجة من الأصالة المصرية والشعبية والدينية، وما نسمعه فى "الصحراء" نجده ونحن نقرأ "الرحلة".

ويثير المناخ الروحانى الذى يغلف رواية نرفال شعوراً بالنشوة، شأنه فى ذلك شأن "الصحراء".

وعلاوة على ذلك، وجد كل من الملحن والكاتب فى شخصية العالمة سبيلاً للهروب من كآبة الشرق؛ فوجود العالمة حتى فى الاحتفالات الدينية التى وصفها نرفال ببراعة، والتى تناولها قبله دافيد، تغطى صورة الشرق بصبغة ذهبية تستدعى بصورة لا إرادية الصحراء ولذة فن الحياة فيها.

ومع ذلك، فهناك اختلاف جوهرى بين الصورة التى قدمها نرفال وتلك التى قدمها دافيد؛ فهناك مظهر يتسم بالواقعية الملحة، يظهر مختلف وجوه مصر التى تم نقلها ببصيرة نافذة ووصفها بطريقة مطابقة للواقع. ويرجع هذا الاختلاف - بطريقة بديهية - إلى المجال الواسع من الحرية والدقة التى تمتلكها اللغة الأدبية مقارنة باللغة الموسيقية، وقد سمح ذلك لنرفال بمجال أرحب فى وصف القافلة والإطار الموسيقى الخاص بالعالمة.

ولا يتوقف نرفال عند هذا الحد، ولكنه يتعدى مرة أخرى ما لم تسمح الوسائل الموسيقية بالكشف عنه فيدعونا لاكتشاف نوع آخر من العوالم: المخنثين الذين يعدون ظاهرة أخرى تختص بها مصر، وتصدم هذه الظاهرة - بشذوذها الجنسى - الأوروبيين، حتى الذين اعتادوا منهم على اللوطية فى مجتمعاتهم، ويجهز نرفال بعناية القارئ للمفاجأة التى عاشها هو نفسه فى حى الموسكى، ويقول:

"بعد أن تناولنا غداءنا فى الفندق، ذهبت لأجلس على أجمل مقاهى الموسكى، وللمرة الأولى شاهدت العوالم ترقصن أمام العامة" (٤٥).

ويدور المشهد فى مقهى ترقص فيه العوالم لإدخال البهجة على نفوس الرواد، ويستكمل نرفال:

"والآن تظهر لنا العوالم فى سحابة من الغبار ودخان التبغ، وأدهشنى للوهلة الأولى بريق الطاقية الذهبية التى تعلو شعرهن المضفر، وكعوب أحذيتهن التى ترتب على الأرض، بينما أيديهن مرفوعة تكرر هزة عنيفة لأجسادهن فتدق الجلاجل والحلقات، وتهتز أردافهن بحركة مثيرة" (٤٦).

ولكن عندما أدرك نرفال - وسط هذا الدوران وهذه الأصوات الصاخبة - عالمة ثالثة لم يتأخر في تحديد نوعها، كان وقع المفاجأة عليه كبيراً، ويقول:

"وبالكاد وسط هذا الدوران السريع كان يمكن تمييز ملامح هؤلاء الفتيات المغربيات اللائي كانت أصابعهن تدق بالصاجات التي تشبه الكاستينيات، وكانت هؤلاء الفتيات ترقصن بانطلاق على أصوات الموسيقى البدائية للناي والطبول .. وكان هناك اثنتان في غاية الجمال يبدو عليهما الخيلاء، ذواتا عيون عربية يبرزها الكحل، وذواتا خدود ممتلئة ورقيقة يعلوها قليل من أحمر الخدود، ولكن الثالثة كانت تنم عن جنس أقل نعومة، وكان يعلق بذقنها شعيرات حتى إنه عندما تأملت ما يجري من حولي عندما انتهت الرقصة، استطعت التمييز بصورة أفضل لملامح الراقصتين الأخريين، وسريعاً ما اقتنعت أننا إزاء عوالم ذكران. آه يا رذيلة المشرق، تلك بعض مفاجآتك!" [٤٧].

وهذه الظاهرة التي تحدث عنها نرفال لا تزال حتى يومنا هذا إحدى العادات المصرية، وجو هذه البيئة لا يتسم بالبهجة بصفة خاصة، وهو مناخ قاتم يسود في كل الأرجاء، وتمتد جذوره دون شك إلى العصور القديمة، والصورة التي يرسمها نرفال تختص بإبراز انزلاق بعض العادات المصرية الكئيبة في نوع من الخفة والإباحية الشرقية الصرف.

وهكذا فإن الإنسان المصري يسعى - بصفة خاصة - إلى إدخال البهجة على حياته، حتى في جوانبها الأكثر جدية، ويدخل المخنثون في صميم هذا الاتجاه؛ ففي القاهرة نجد لهم مساكنهم الخاصة ومقاهيهم، ويشاركون بصورة شبه طبيعية في الحياة الاجتماعية المصرية. ولنلاحظ نقطة مهمة: ينتشر المخنثون والعوالم الذين يمثلون العادات الإباحية المصرية، وكذلك الزار في الأوساط الشعبية، وذلك خلافاً للمجتمعات الأوسطية الأخرى؛ حيث لا توجد الحريات والإباحيات الأخلاقية إلا في الطبقات الغنية أو البرجوازية.

والفصول التي خصصها نرفال للقافلة والمقهى والعوالم، أو فصول كتبه الأخرى ولاسيما الفصل المعنون "المطهر وعبد الكريم Le Mutahir et Abdelkarim" تتحدث عن تغاضي الشعب في مصر عن تصرفات من المفترض أن الدين الإسلامي يحرمها، وهي نزعة تحدثنا عنها من قبل عند تناول موضوع الأذان في "الصحراء".

وهذه العادات المصرية تروق كثيراً الأوروبيين، ويختتم نرفال قائلاً: "والحق أن الأخلاق المصرية تعد شيئًا جد خاص" (٤٨).

ويصل انتهاك الحرمات الدينية ذروته بحلقات ذكر الدراويش؛ ففى هذه الحلقات الدينية المكونة من أغانٍ ورقصات، يأخذ المشاركون عن الحياة الاجتماعية بعض المظاهر الأشد دناءة وحتى المظاهر الأشد ميتافيزيقية. ولنترك لنرفال عناية وصف أحد مشاهد الذكر:

"كان هناك شمعدان ضخم يحمل عدداً كبيراً من اللمبات الزجاجية فى شكل هرمى، ومن حولها عناقيد يتدلى منها فوانيس، والتف حوالى ثلاثين مغنيًا فى شكل بيضاوى حول الشمعدان فى صورة جوقة إنشاد، وكان هناك أربعة رجال من بينهم يقفون في الوسط ويغنون بصورة متتابعة مقاطع الأنشودة، وكان هناك نوع من الرقة والتعبير العاطفى فى هذا النشيد الليلى الذى يرتفع إلى عنان السماء مصحوباً بشعور الكآبة المبهمة الذى يستشعره الشرقيون فى السراء والضراء" (٤٩).

وفى حلقات الذكر الكبيرة تلك، خلط الدراويش المصريون بطريقة غريبة بين حب الله وحب المرأة؛ فأغنياتهم الدينية الطويلة كانت توجه لمعشوقة غامضة وذات سلطان تقلب حياتهم بسبب العشق الذى توحى به لهم، وكانوا أثناء غنائهم، يصفون الجمال الاستثنائى لهذه المعشوقة، وهو وصف حسى يقود المستمع - تدريجيًا ثم فجأة فى النهاية - إلى إدراك أن هذه المعشوقة ليست سوى الله نفسه، ولنذكر فى هذا السياق فكرة جوتة "المرأة تجذب الرجل نحو السماء".

ويمكن لهذه الممارسة أن توحى - كما كان الحال بالنسبة لنرفال - بالتقليد المصرى القديم الذى يتمثل فى إعطاء الآلهة أشكالاً جسدية نسائية؛ فبالفعل من بين الآلهة المصرية القديمة، ظلت الآلهة التى تمتلك طبيعة أنثوية محفورة فى أذهان الشعب؛ فمنذ إيزيس، يكرس المصريون للمرأة الإلهة حباً جمًا، ويعبرون عنه بالتغنى بجمالها وسلطتها. حتى فى مصر المعاصرة، فإن العبادة والتأليه اللذين يختص بهما المصريون مجرد مغنية مثل أم كلثوم يتجاوزن أحيانًا حدود العقل. ومن ثم يمكننا المقارنة والتقريب بين صورتين لمصر: الأولى تدخل داخل هذا المشهد الغريب للذكر، والثانية فى ذكرى نوع من الماضى ملىء بالاحتفالات والعبادات الجنائزية، ويقول نرفال:

بينما كان يدخل الذاكرون تدريجياً فى حالة الجنون الشعرى الذى يتسم بامتزاج الحنان والهمجية، وشعرهم بتموجاته - الذى يطلقونه خلافًا للتقاليد العربية - يتطاير من جراء حركة رؤوسهم المغطاة لا بطربوش لكن بطاقية، من الطراز القديم تشبه القبعة الرومانية، وكان ترتيلهم الخفيض يأخذ أحيانًا نغمة حزينة، وكانوا يرددون - بصورة بديهية أبيات الشعر، وكانت الإيماءات توجه بحنان وشكوى إلى محبوب مجهول، وربما كان كهنة مصر القديمة يحتفلون بهذه الطريقة بأسرار أوزوريس حين كان مفقوداً أو بعد العثور عليه. إنها بلا شك صورة شكوى كهنة اليونان القديمة، وهذه الجوقة الغريبة من الدراويش الذين يصرخون ويضربون الأرض بأقدامهم بوتيرة واحدة، ربما كانوا يمتثلون لهذا التقليد القديم للسعادة والنشوة، الذى كانت تنتشر أصداؤه قديماً على كل هذا الساحل الشرقى من واحات آمون وحتى ساموثرات الباردة، وبمجرد سماعهم كنت أشعر بالدموع تملأ عينى، وكان الحماس يدب فى نفس كل الحضور" (٥٠).

وهذا البحث المصرى عن (محبوبة - معشوقة) خالدة ونبيلة أعجب نرفال، وكان نرفال - وهو يتربص بمثل هذا الاكتشاف الجميل - يروى ظمأه الداخلى للمرأة المثالية. أكانت معشوقة الذكر المصرى تتجسد فى شكل زينب أو الشابة اللبنانية أو ربما أيضاً أبعد من ذلك فى ذاكرة نرفال فى شخص جينى كولون Jenny Colon؟

وتقوم هذه الأسطورة النرفالية أساساً على قوة مثله الأعلى النسائى؛ فقد كان هو نفسه أول ضحية لهذا المثل الأعلى، سواء تعلق الأمر بالوجه الراقى للمرأة الذى جسدته جينى كولون أو الوجه النسائى فى صورته المتوحشة الذى مثلته زينب، وهذان المظهران للمرأة كانا متحدين قديماً بطريقة غريبة فى العبادة الوثنية لإيزيس، وهى عبادة امتد تأثيرها العميق على كل الديانات والمذاهب الروحية اللاحقة.

ويقول نرفال: "المؤكد أن الوثنية قد أظهرت دوماً مفهوماً بهذا القدر من النقاء عن المعبود، ولكن هل المفاهيم الدينية المنبثقة عن أرض مصر القديمة لا تزال تسود وفقًا لهذا الشكل من الحضارة الحديثة - ولكن ألا تجدر الملاحظة بأن الأسس الأولى للعقيدة المسيحية تأتينا أيضاً من مصر؟ فأورفيوس Orphée وموسى اللذان تعلما أسرار عيسى أعلنا ببساطة لأجناس مختلفة حقائق سامية، أدى بعد ذلك اختلاف العادات واللغات والزمان والمكان إلى تغييرها التدريجى أو تحويلها تماماً.

وفى يومنا هذا، يبدو أن المذهب الكاثوليكى نفسه قد أصيب – وفقًا للبلدين – بنوع من رد الفعل المماثل لما حدث فى السنوات الأخيرة لمذهب تعدد الآلهة.

ففى إيطاليا وبولونيا واليونان وإسبانيا وفى كل الدول المتعلقة أشد التعلق بالكنيسة الرومانية ألم تتحول تقوى العذراء إلى نوع من العبادة الاستثنائية؟ أليست نفسها الأم المقدسة التى تحمل بين ذراعيها الطفل المنقذ والوسيط الذى يسيطر على العقول؟ (٥٠)

ونص أغنية الذكر التى يرددها نرفال تعكس بهذه الطريقة قوة المرأة فى مواجهة عذاب الرجل من الحب:

"إن قلبى مضطرب من الحب،

وجفنى لا يغمض أبدًا!

أترى عيناى مرة أخرى معشوقتى؟

عندما تمر الليالى الحزينة الثقيلة

يقتل غيابه الأمل؛

وتسيل دموعى كاللؤلؤ

ويحترق قلبى بنيران الحب!

يا يمامة، قولى مما تشكين؟

أتئنين لغياب المحبوب

أم لا تجدين المكان لتفردى فيه أجنحتك للطير؟

فتجيب: إن أحزاننا واحدة،

فقد أضنانى الحب

أواه! إنه الداء أيضًا

فغياب المحبوب هو سبب أنينى" (٥١).

وفى قصيدته "حورس" يبرز نرفال بصورة أكبر قوة إيزيس إزاء الرجل الذى يأخذ شكل زوجها:

"الإله كنيب Kneph وهو يرعد قلب العالم

إيزيس، الأم، قامت من ثم من مضجعها

وأشاحت بحركة كراهية لزوجها الفظ

وبرقت حماسة الماضى فى عينيها الخضراوين

وقالت: هل ترونه؟ إنه يحتضر هذا الفاسق

لقد نطق بكل موبقات العالم

اربطوا قدمه الملتوية وأغلقوا عينه الخائنة

إنه إله البراكين وملك الشتاء

لقد مر النسر، والروح الجديدة تنادينى

لقد ارتديت من أجله ثوب سيبل

إنه الابن المحبوب لهرمس وأوزوريس" (٥٢).

ويورد نرفال النص المصرى عن الذكر والمعشوقة التى تجعلنا نفكر بصورة طبيعية فى معشوقة فيلسيان دافيد، وقد جمل نرفال صورة معشوقته بما كان يستشعره هو نفسه بطريقة عميقة، وكانت صورة معشوقة فيلسيان دافيد امرأة أكثر منها إلهة، وكانت تأخذ طابعًا فولكلوريًا أكثر منه أسطوريًا. وإذا كانت هذه الصورة من صنع برليوز لوصلت بصورة بديهية لصورتها الدرامية الحقيقية، ومع ذلك فقد تم تصور المعشوقتين على أرض مصر، واستمد الرجلان منها معناهما العميق وروحهما اللذين

يوضحان لنا هذا الجانب الخفى من القلب المصرى؛ هذا القلب الذى يلتقى فيه بطريقة غريبة الحب والدين، السيادة والكآبة، الموت والحياة.

ألم نستشعر هذا المناخ الحزين الذى يسود فى "صحراء" دافيد؟ ولا ينبغى لنا الدهشة من الخلفية الكئيبة – فى الأجزاء السعيدة – التى تظهر أيضًا خلف صور وألوان الحفلات التى يرسمها نرفال. ومن يعرف المصريين معرفة جيدة، يعرف هذه العبارة الشهيرة التى ينطقون بها وقت شعورهم بالسعادة أو فى وسط أى احتفال وبالأخص بعد أن يطلقوا ضحكات عالية: "اللهم اجعله خير" كما لو كانوا يتوجسون خيفة من الشر الذى يختفى وراء السعادة، ويتسنى لنا مقارنة هذا الموقف مع العقلية الغربية المتفائلة نسبيًا والكامنة فى الحكمة الفرنسية: "بعد المطر يسود الجو الجميل".

ويمكننا التساؤل عن السبب الذى لم يجعل الرجلين يلتقيان أبدًا؛ فقد كانا متعاصرين، وكان لهما نفس الأصدقاء، ويسكنان فى نفس المنطقة: سان جرمان آن لاى Saint Germain-en Laye ومع ذلك لم يكن هناك أى وثيقة أو شهادة تفيد وجود اتصال مباشر بين الرجلين.

والنقاط المشتركة بين الرجلين لا حصر لها؛ فبالإضافة إلى انتمائهما إلى جيل الرومانسيين الفرنسيين، كان لهما نفس الذوق لرومانسية تتسم بالكآبة أكثر منها بالعاطفية، وكانا يعيشان نفس الشعور بعدم فهم الآخرين لهما، وبالأخص ذلك الشعور الأكثر عمقًا والأكثر خطورة لمن يعيش أنصاف نجاحات – ولا نقول أنصاف إخفاقات – أثناء حياته، وكذلك أمام المستقبل، وكانا ينقلان الإحساس القائل بخيبة الأمل المتفشية والمرتبطة بهويتهما ذاتها.

وماذا تعنى الفوضى التى يصعب تفسيرها لنشأة رواية نرفال وتكوينها؟

إذا كان قارئ "رحلة فى الشرق" اليوم يستخلص تماسكًا وتقسيمًا منطقيًا لفصول (تركيا – مصر – لبنان)، فإن نسخة عام ١٨٤٤، وهى سنة صدور أول إصدار، تتكون من سلسلة من الأحداث ولا تتمتع بنفس الميزة؛ فقد بدأت هذه السنة بصدور أولى مقالات نرفال فى مجلة "الفنان" L'Artiste ، وانتهت بتقديم "الصحراء" لفليسيان دافيد.

وبين هذين الحدثين، نشر نرفال – بطريقة شبه منتظمة – الرواية اليونانية لمغامرته فى الشرق، وامتد هذا النشر فى أشهر فبراير ويونيو وأغسطس ١٨٤٤ .

كان الجمهور ينتظر بشغف الروايات عن مصر وتركيا، وكان يتساءل إذا كان طبيعيًا أن يستلزم توقف الكاتب لفترة قصيرة فى اليونان كل هذا السرد، وأن يتطلب كل هذا الوقت. والمثير للدهشة فى قصة تأليف "رحلة فى الشرق" وتأريخها أن الجمهور لم يأخذ علمًا بالروايات الأولى عن مصر إلا بعد كتابتها بعامين، وبالتحديد فى الأول من مايو ١٨٤٦، عندما نشر نرفال "سيدات القاهرة Les Femmes du Caire" فى "مجلة العالمين Revue des deux mondes"، وهذا الانتظار الطويل وهذا الفاصل لا يمكن تفسيرهما إلا بالنجاح الساحق الذى حققه تقديم "الصحراء" لفليسيان دافيد، والذى تغطى نتائجه استدعاءً مماثلاً.

وتحدثت الصحافة بأكملها عن موهبة الملحن الجديد، ووضعته فى مصاف الموسيقيين الكبار، على نفس قدم المساواة مع بيتهوفن وموتسارت، وكان لنجاح دافيد أثر لا معقول ولا واقعى؛ فكانت باريس لا تتحدث إلا عن هذا المجهول، الذى تحول إلى نصف إله، وعن قصيدته الغنائية السيمفونية التى أصبحت مؤثرًا فنيًا.

واعتبارًا من هذا النجاح المدهش، قطع الفنانون - الذين يأملون فى إنتاج شىء عن الشرق - على أنفسهم أن يكونوا متيقظين.

ومن المحتمل أن يكون نرفال - مدفوعًا بحسه الصحفى - قد قرر الانتظار والمراقبة قبل إصدار روايته عن مصر، وانتظر طوال عام ١٨٤٥، وهى السنة التى جاب فيها دافيد أوروبا ليجنى نجاحًا فوق نجاح.

وفى مايو ١٨٤٦، قرر نرفال أخيرًا نشر روايته عن مصر، ولكن غيَّر هذه المرة الناشر؛ فبعد "الفنان L'Artiste"، نشر لدى بولوز Bulloz فى "مجلة العالمين Revue des deux Mondes" الشهيرة، ومنتهجًا أسلوب دافيد نفسه، قرر أن يقدم للجمهور "صورًا مصرية"، وأعطى لكتابه العنوان التالى "مشاهد من الحياة المصرية Scènes de la Vie Egyptienne"، ولتقديم تصوير لهذه المشاهد، استعان بطريقة بديهية بمفكرة رحلاته، وكذلك بروح "الصحراء" وطابعها المميز، واستخدم - كما رأينا - نفس الشخصيات والصور: العالمة والدرويش والقافلة.

ألا تظهر هذه الفوضى فى نشر هذه الذكريات - المقسمة على عدة دفعات - والإضافات والأجزاء التى تم وضعها بين المقدمة والنص نفسه، تأثير فيلسيان دافيد على نرفال وكتابه؟

والحق أن هذا النجاح قد شمل الجميع: ملحنين وكتاباً على حد سواء، وإذا كان نرفال - في رأينا - هو أكثر من تأثر بعمل دافيد، فإن برليوز نفسه قد خضع لوقت معين لنفس هذا التأثير حتى اضطر لتغيير رأيه عن دافيد؛ ليصبح واحداً من أشد نقاده بعد أن كان واحداً من أشد عشاقه.

وفضلاً عن ذلك يمكننا التساؤل إذا ما كان نرفال قد أراد تجاوز شهرة دافيد في عشق مصر؛ فإذا كان قد نقل للمولعين بفنه التيمات الموسيقية المصرية الأصيلة بالإضافة إلى مشاهد الحياة في القاهرة، فإن نرفال قدم لقارئه نماذج من اللغة العربية القاهرية، ولم يترك لفظاً إغرابياً أو تصويراً إلا أورده، وقد قدم ما لا يقل عن سبعين كلمة مصرية، وكان يترجم الكلمات ويحللها ويعقد بينها المقارنات، وباختصار قدم **مسرداً صغيراً** للكلمات المصرية أظهر مدى اهتمامه وصبره على لغة يصعب إتقانها كاللغة العربية.

وتبدو قرابة النسب الفني بين الملحن والكاتب بنفس قدر الأهمية من تماثلات حياتهما، وتتمثل أحد مظاهر هذه القرابة في صداقة الرجلين لشخص ثالث عاشق لمصر وهو تيوفيل جوتييه Théophile Gautier .

وقبل أن تطأ قدم مؤلف كتاب "قصة المومياء Roman de la Momie" أرض مصر، كان قد أصبح مركزاً لناد كبير من الفنانين والشعراء، وقبل عام من تقديم "الصحراء" - أي في عام ١٨٣٤ - كتب جوتييه كتيباً بعنوان "لابيرى La Péri"، وهو بالية كبير مأخوذ عن القصة القصيرة التي تحمل نفس الاسم، والذي لحن موسيقاه بورجمولر Burgmüller .

كانت العلاقات وطيدة بين كل من جوتييه وماكسيم دي كان ونرفال؛ فقد ساعده هذا الأخير ليكتب برنامج "سلام Sélam"، وهي سيمفونية وصفية لإرنست ريار Ernest Reyer . وقدم لجوتييه "صوراً مصرية" عن رحلته في مصر؛ بحيث اشتملت "سلام" أيضاً على مسيرة للقافلة وصلاة ونشيد مساء ... إلخ. والمؤكد أن الفنانين وهما يعملان في "السلام"، استحضرا عمل دافيد في ذهنيهما.

ويتعين بعد ذلك إضافة اللقاء شديد الأهمية الذي جرى بين الأب أنفنتان وجوتييه أثناء العرض الثاني "للصحراء" على مسرح الإيطاليين في ٢٩ ديسمبر عام ١٨٤٤،

ومن ثم يمكننا افتراض أن جوتييه قد التقى بدافيد خلال هذه الحفلة، وأنهما قد تحدثا عن مصر وعن أهل بلدهما التى زاروها وعن نرفال الذى كان ينشر أول فصول "رحلة فى الشرق"، ولهذا يمكننا اعتبار جوتييه همزة وصل بين نرفال ودافيد.

ومن المؤكد أن دافيد قد انشغل جداً برحلاته إلى فرنسا وأوروبا خلال العامين اللاحقين لتقديم "الصحراء" للمرة الأولى؛ فقد كان نرفال هو الآخر لا يكف عن الترحال أو مشلولاً بسبب حالته الصحية، ويمكننا أيضًا الاعتقاد بأن كلاً منهما قد ابتعد عن الآخر حتى لا يرى صورته فى مرآة وهى صورة القدر.

وأيًا كان الأمر، فمن بين كل الدراسات التى تتناول نرفال أو دافيد، هناك دراسة واحدة عقدت مقارنة عبقرية بين الرجلين، وهى الدراسة التى أجراها الباحث الموسيقى جى. ب. بارتولى، وهو يضع نرفال ودافيد على صعيد واحد عندما يتحدث عن نوع من الإغراب الواقعى وليس فقط الخيالى، ويقول:

"إذا كان لزامًا التأكيد على عمل نرفال؛ فمرد ذلك إلى أن "الصحراء" تخضع لنفس الظاهرة التى يمثلها اكتشاف الواقع الشرقى فى القرن التاسع عشر وإدخال تقاليد أجنبية فى عمل غربى" (٥٣).

ويؤكد نفس هذا المعنى عندما يقتبس جملة نرفال:

"كان هناك نوع من النعومة والتعبير العاطفى فى هذا النشيد الليلى الذى كان يرتفع إلى السماء مع هذا الشعور بالكآبة المبهمة الذى يختص به المصريون : السعادة والحزن"، ويضيف: إن هذا النشيد يذكرنا بالجزء الثانى من "الصحراء"، ولاسيما الكآبة المبهمة "لنشيد الليل L'Hymne à la Nuit" و"حلم المساء Rêverie du soir" (٥٤).

ويرجع لنرفال ودافيد الفضل فى تقديم هذه الصورة الغربية عن مصر رقيقة ومكتئبة، بائسة فى مظهرها، ولكن مشعة بتفاصيل منيرة، وتحولت مصر - منذ ذلك الحين، فى الأدب والموسيقى الفرنسيين - إلى واقع وكيان لا يتميز فحسب بجوانبه التاريخية والجغرافية، ولكن بجوانبه الاجتماعية والعرقية؛ فهو كيان يجسد مجموعة من العادات والتقاليد تتمتع بثراء غير عادى، وهو ثراء نعترف به لهذا الكيان.

وقد وضع الرجلان بالفعل اللبنات الأولى لتيار أدبى وموسيقى يستمد مصدر إلهامه من مصر عربية، وكان أبرز أسمائه : جوتييه، ورييل، وأبوت About، ورافيل Ravel،

ورابو Rabaud ... إلخ. وملئت هذه الكوكبة من الملحنين والكتاب الإطار التاريخي لما نطلق عليه "سنوات السويس" التى تمتد من ١٨٥٠ وحتى عشية حرب السويس عام ١٩٥٦؛ ففى هذه الحقبة طلب الخديو إسماعيل من فيردى Verdi إعداد أوبرا كبيرة مستوحاة من العصر الفرعونى بمناسبة افتتاح القناة؛ فهل أعاد هذا الخيار إضفاء الرونق على مصر ذلك الرونق الذى كانت تقدم عنه صورة حزينة فى عالم تسوده الاضطرابات غداة افتتاح قناة السويس؟

الهوامش

(١) Voltaire, "Dictionnaire Philosophique", éd. Flammarion, Paris, 1946.

(٢) Ibid., p. 23.

(٣) Voltaire "Les Moeurs", éd. Flammarion, Paris, 1964, p. 211.

(٤) Marie-Claire Beltrando Pitier, "Revue Internationale de Musique Française". Dossier: "l'Exotisme Musical Français", 1981, p. 23.

(٥) Kobbé, "Tout l'Opéra", éd. Robert Laffont, Paris, 1987, p. 43.

(٦) "Revue Internationale de la Musique Française", Marie Claire Beltrando Pitier, op. Cit., p. 24.

(٧) "l'Egiptienne" (sic) de Rameau st trouve à la Bibliothèque Nationale, enregistrement pour clavecin, livre second, cote: vm7 3616 (2). Il a été enregistré récemment sur disque compact par Caliope 1987. Quant à l'ensemble de l'opéra, il a été enregistré sur cassette en 1979 par Harmonia Mundi Dobysgoleme.

(٨) Jean-Marie Carré, "Voyageurs et Ecrivains Français en Egypte", I.F.A.O, le Caire, tome I, p. 169.

(٩) Itinéraire de Paris à Jérusalem, Oeuvre Romanesque et Voyage", éd."Chateaubriand, Gallimard, Paris, 1969, pp. 1141 - 1142.

(١٠) Ibid., p. 11440.

(١١) Jean-Marie Carré, op. Cit., p. 170 à 185, tome I.

(١٢) Kurt Pahlen, "La Grande Aventure de la Musique", éd. du Port Royal, p. 234.

(١٣) J-P. Reynaud, "Revue Musicale", pp. 272, 273.

(١٤) Ibid., p. 277.

(١٥) Shakespeare, "Oeuvres Complètes", éd. Chanellor Press, London, 1984, p. 922.

(١٦) Henri Barraud, "Hector Berlioz", éd. Fayard, Paris, 1979, p. 107.

(١٧) On ignore les moyens qui assurèrent sa richesse. Cependant Reyer pense qu'il construisit sa fortune sur d'autres moyens que la musique. Voir " 40 ans de Musique", p. 234.

(١٨) Dans sa thèse sur Félicien David, Jean-Pierre Bartoli se méfie de l'objectivité de Sylvain de Saint-Etienne. Voir: "Le Désert" de Félicien David, thèse de 3ème cycle, Bibliothèque du Département de l'U.E.R de Musique et de Musicologie de l'Université de Paris Sorbonne (Paris IV), 1981.

(١٩) Ibid., p. 11.

(٢٠) Sylvain de Saint-Etienne, "Félicien David", éd. Imprimerie de Marius Olive, Marseille, non daté, p. 19.

(٢١) Ibid., p. 19.

(٢٢) Lettre inédite, Ms. 7710 F. E., Bibliothèque de l'Arsenal.

(٢٣) Sylvain de Saint-Etienne, op. Cit., p. 21.

(٢٤) Ibid., p. 21.

(٢٥) Jean-Pierre Bartoli, op. Cit., p. 16.

(٢٦) Ibid., p. 23.

(٢٧) Simon Jargy, "La Musique Arabe", P.U.F., Paris, 1984, p. 108.

(٢٨) Ibid., p.

(٢٩) Jean-Pierre Bartoli, op. Cit., p. 32.

(٣٠) Sylvian de Saint-Etienne, op. Cit., p. 22.

(٣١) Jean-Pierre Bartoli, op. Cit., p. 108.

(٣٢) Reyer Ernest, "Quarante ans de Musique" éd. Calman-Lévy, Paris, p. 121.

(٣٣) Musicien russe inconnu et auteur d'une oeuvre extraordinaire: "Nuits Egyptiennes" contenant un air de musique de danse d'Almée conçue à la manière de David.

(٣٤) Marie de Vivier, "Gérard de Nerval", éd. la Polatine Paris, Genève, 1963, p. 7.

(٣٥) Jean-Marie Carré, op. Cit., tome 2, p. 7 - 8.

(٣٦) Gérard de Nerval, "Voyage en Orient", éd., GF. Flammarion, 1980, p. 146.

(٣٧) Ibid., p. 151.

Maxime du Camp, "Souvenirs Littéraires", éd. Balland. Paris, 1984, p. 82. (٢٨)

Gérard de Nerval, op. Cit., p. 149. (٢٩)

Ibid., p. 154. (٤٠)

Ibid., p. 157. (٤١)

Ibid., p. 225. (٤٢)

Ibid., p. 226. (٤٣)

Ibid., p. 200. (٤٤)

Ibid., p. 200. (٤٥)

Ibid., p. 201. (٤٦)

Ibid., p. 201. (٤٧)

Ibid., p. 201. (٤٨)

Ibid., p. 212. (٤٩)

Gérard de Nerval, "Oeuvres Complètes", éd. Classique Garnier, Paris, 1986, p. 658. (٥٠)

Gérard de Nerval, op. Cit., pp. 212 - 213. (٥١)

Gérard de Nerval, op. Cit., p. 202. (٥٢)

Jean-Pierre Bartoli, op. Cit., p. 104. Voir aussi pp. 105 et 106. (٥٣)

Ibid., p. 106. (٥٤)

الجزء الرابع

التغيرات

الفصل الأول

كاجليوسترو : القبطى الكبير
(ولع مرضى بمصر وماسونية مؤثرة للعواطف)

"عندما سئل كاجليوسترو Cagllostro عن أصوله أجاب: إن النور ينبعث من الشرق، وكل ينطلق توجه من مصر، بلغت من العمر ثلاث سنوات، مثلكم، ثم سبع سنوات ثم سن الرجولة، واعتباراً من هذا السن لم أهتم بالحساب".

(جان باتيست تيتون - حكمدار سجن الباستيل)

Jean - Baptiste Titon

فى أبريل ١٩٩٧، قام رجال الفرقة الجنائية باقتحام مزارع طائفة حورس فى كوكورد **Coucourde** بالقرب من مونتيليمار **Mentélimar** (مقاطعة الدروم **Drôme**) وألقوا القبض على كستانو **Castano** مؤسسة الطائفة بتهمة القتل. ودون الدخول فى التفاصيل القضائية للموضوع، كان اسم الطائفة يوحى للمحققين بمذهب ذى ظلال مصرية النزعة اقترب أعضاؤه من الجنون وحكم على مذيعة تليفزيونية - وهى دانيال جيلبار **Danielle Gilbert** - بالحبس لمدة بضعة شهور بتهمة النصب؛ فكانت المذيعة تبيع خواتم محفوراً عليها رسومات مصرية مدعية أنها تجلب الحظ، وهناك طوائف أخرى وقصص أخرى عن السحر الأسود والشعوذة متصلة اتصالاً كبيراً بمصر، وتستمد من تاريخها الرموز واللغة.

وإلى جانب هذا المظهر للولع بمصر بالمعنى المرضى للكلمة، هناك ظاهرة أخرى تستمد من مصر جذورها وروحها، ولكنها تقف فى مواجهة هذا الانحراف وهى: الماسونية.

والشيء المثير للسخرية هو أن يعطى رجل - يعيش فى عصر التنوير والعقل - عن الماسونية شهادة مناقضة تماماً بتطوير ممارساته فى "صالونات الشفاء" .. إنه جوزيف بالسامو Joseph Balsamo الذى يطلق عليه كاجليوسترو Cagliostro ، والذى اشتهر باسم "المصرى الكبير" أو "القبطى الكبير" كما أراد أن يوحى بذلك، ويعد كاجليوسترو أبا الماسونية المستوحاة من مصر، لا فى فرنسا فحسب، ولكن أيضاً فى أوروبا. وقبل أن نسرد هذا الحدث، علينا التذكير ببعض المعلومات الأساسية عن الماسونية بصفة عامة.

تقوم مبادئ الماسونية على مظهرين: أحدهما باطنى، والثانى عملى، ولكنهما يناديان بهدف يختص أساساً بحب البشر، ويقوم على مبادئ الثورة الفرنسية الشهيرة: حرية، مساواة، أخوة. ونشأ من هذين المظهرين اتجاهان داخل الحركة الماسونية: أحدهما يجمع تحت رايته الإخفائيين أو الإشراقيين، والثانى يجمع من نطلق عليهم "العقلانيين".

وفى الواقع، يتكامل الاتجاهان على أكمل وجه بالرغم من المظاهر ومن الفكرة التى يأخذها الناس عن تأثير الإخفائيين على العقلانيين والسياسات فى المحافل الماسونية.

ومن البديهى أن تهتم دراستنا بالمظهر الإخفائى للماسونية؛ ففى هذه النقطة بالتحديد تقوم مصر بدور الأساس المذهبى، والمشكلة الأساسية التى تعوق البحث فى مجال العلوم الإخفائية تكمن فى تناول الجانب الخفى فى النفس البشرية، ولكن هذا الأمر يجب ألا يقودنا إلى الانزلاق فى مأزق مصطلحات العلوم النفسية؛ فأصل كلمة "إخفائية" يوضح ذلك جيداً؛ فهى مشتقة من "أخفى"، ومن ثم فالأمر لا يتعلق بممارسات نفسية محررة، ولكن بالأحرى بميتافيزيقا باطنية.

ومن ثم تتعلق الإخفائية بأشياء خفية تختص بحياة الإنسان الداخلية. والأمر يتعلق أيضاً بعادة جد قديمة تنوقلت عبر الأجيال وعبر القرون، منذ العصور القديمة وحتى يومنا هذا، وهذه العادة القديمة لنقل الأسرار انطلقت من مصر.

ويرى الماسونيون أن العلوم المصرية انتقلت لنا عن طريق مصادر ثلاثة للمعرفة:

١ – الكتابات اليونانية للرحالة والفلاسفة؛ فهناك مؤرخان رحالان يونانيان استعرضا بصفة أساسية تاريخ مصر وتقاليدها وهما:

هيرودوت الذى خصص كتابًا كاملاً لمصر (الكتاب الثانى: أوترب Uterpe) وبلوتارك الذى زار مصر، ونقل عنها أول قصص الأساطير والحياة الروحية للمصريين، ولاسيما أسطورة إيزيس وأوزوريس الشهيرة؛ فمع بناء الإسكندرية وإنشاء مدرسة أفلاطونية جديدة أو المدرسة الانتقائية éclectique فى القرن الرابع قبل الميلاد، حاول أفلوطين Plo-tin – ممثلها الشهير – القيام بمزج غير عادى بين العقلانية اليونانية والصوفية mysti-clsme الشرقية.

٢ – أعمال الأكاديمية الأفلاطونية بفلورنسا فى القرن الخامس عشر؛ فالهرمسية اليونانية – المصرية التى ظهرت فى الإسكندرية كانت السبب الرئيسى فى إنشاء الأكاديمية الأفلاطونية فى فلورنسا عام ١٤٥٠، ومع إنشائها ظهرت الملامح الأولى للولع بمصر فى أوروبا، ولاسيما فى إيطاليا.

يقول جيرار جالتيه Gérard Galtier: "إن إيطاليا أكثر انفتاحًا على منطقة البحر المتوسط عن فرنسا، ولذا فهى أكثر حساسية للتأثيرات الشرق – أوسطية؛ فقد انتشرت فيها الموضات المصرية أسرع من فرنسا" (١).

واختار المفكر الإنسى الأفلاطونى الجديد مارسيليو فيسيمو Marsillio Ficimo (١٤٣٣ – ١٤٩٩) مدينة فلورانسا، وقد أسهم هذا المفكر – بصورة كبيرة – فى نهضة وتطوير إيطاليا لمدرسة الإسكندرية القديمة وهرمسيتها .. ويشهد بذلك كتابه الضخم "مدونة الهرمسية Corpus Hermetieum" .

٣ – الجهود الروحانية والفكرية لحملة نابليون على مصر، والتى نعترف بنتائجها الفكرية والفنية؛ فقد اصطحب نابليون – قائد الحملة – معه ضباطًا وأيضًا علماء أغلبهم من الماسونيين، وبدا اكتشاف مصر غير معروفة تقريبًا للبعض كشىء بديهى، ولكن رأى الماسونيون أن النتائج الماسونية لحملة بونابرت لم تكن سوى حلقة فى السلسلة التاريخية للعلاقات مع مصر ومجرد مكمل لمدرسة الإسكندرية.

وبالإضافة إلى النتائج الفكرية والفنية، اعتبرت الماسونية – شأنها شأن السان سيمونية – الحملة الفرنسية منعطفًا تاريخيًا فى التقدم المادى والفكرى للإنسانية، وقامت كل منهما بطريقتها الخاصة ووفقًا لعقائدها بالإفادة منها، وأخذت هذه الإفادة طابعًا رمزيًا بالنسبة للماسونيين وماديًا بالنسبة للسان سيمونيين.

وأخيرًا استفاد الماسونيون من هذه الحملة بأن جعلوها فرصة لتعديل نظام طقوسهم المسارية وكذلك شكل معابدهم.

ويستخلص جان مالينجيه Jean Mallinger : "لكن تعد الحملة الفرنسية على مصر نتيجة مفيدة للماسونية؛ فالحماس العام للرمزية المصرية أدى بغالبية محافل القارة إلى تعديل الإطار الصارم والمجرد الذى كان ينظم فيه الماسونيون الإنجليز طقوسهم وأعمال الطاولة؛ فبدلاً من طاولة مطعم بسيط يضع عليها رئيس المحفل البريطانى شموعه وتوراته وسبحته، جمل الماسونيون الأوروبيون منشآتهم بتأسيس الإطار التاريخى القديم للمعابد الحقيقية" (٢).

إن الحديث عن الماسونية المصرية يستدعى الحديث عن مؤسسها – رغم عدم الاتفاق عليه – وهو الكونت دى كاجليوسترو الذى كان من أوائل من اهتموا بمصر. كان مغرمًا بتاريخ مصر فى الوقت الذى نسى فيه العالم مصر القديمة الجميلة، ولم يتذكر منها سوى مجرد باشوية تركية، وذلك حتى قبل أن يصل إلى العالم نابليون أو شامبليون، وقد أطلق كاجليوسترو على نفسه – كما نعلم – اللقب الرنان "القبطى الكبير"، وكان لا يقسم إلا بمصر وينشر فى كل مكان يمر به فكرًا دينيًا وباطنيًا يدعى أنه مصرى.

والواقع أنه كان بطريقة بديهية رجل المتناقضات كافة؛ فقد كان إيطالى المولد، وفرنسى الفكر، وإنجليزى الذوق، وألمانيًا من حيث التكوين العلمى، ولكنه لم ينعم بالسلام فى أى مكان قط .. فقد احتفى به ثم نبذ فى كل مكان مثيرًا الإعجاب تارة والكراهية تارة أخرى، ومسببًا حيثما كان الفضائح تلو الأخرى، والتى كانت أشهرها فى قصر فرساى نفسه عام ١٧٨٥ وهى قضية "عقد الملكة".

من هو كاجليوسترو؟ وما الدور الذى اضطلع به فى نشر صورة عن مصر فى الخيال الجمعى الفرنسى؟ هل كان له بعض التأثير على الأجيال اللاحقة من الفنانين

والمفكرين الذين شكلوا مختلف البذور للجمعيات الماسونية المصرية في فرنسا في بداية القرن التاسع عشر؟

هل كان ظهور السان سيمونيه في نفس الحقبة من قبيل الصدفة؟ تلك هي الأسئلة التي سنجيب عليها في هذا الفصل.

عاش كاجليوسترو في العصر الذي ارتبطت فيه أوروبا بتقاليد عصورها الوسطى، واتجهت في الوقت ذاته نحو اكتشافات علمية وفكرية جديدة، وكان كاجليوسترو وريثًا لتقليد العصور الوسطى الإخفائي المستوحى من مصر، كما كان عارفًا لأقدم تقاليد أكاديمية فلورانسا التي أسسها مارسيل فيسان Marcile Ficin .

وتأتي أهمية كاجليوسترو من أنه كان رائدًا في مجال الولع بمصر في أوروبا ومؤسسًا لأول جمعيات إخفائية وباطنية مصرية، وذلك حتى قبل تأسيس الجمعيتين الماسونيتين الشهيرتين مصرايم Misraim وممفيس Memphis ، كما لعب دورًا محوريًا في الشعوذة والسحر المستوحيين من مصر، واللذين لا يخلوان من الدجل.

وبغية تحديد الشخصية بصورة أفضل، فلنستعرض سيرته الذاتية: ولد الكونت ألكسندر دي كاجليوسترو Alexandre de Cagliostro أو جوزيف بالسامو Joseph Balsamo في باليرما في ٨ يونيه ١٧٤٣ . ولا تتوافر أي معلومات تذكر عن طفولته [٣]؛ فنحن نجهل أي شيء عنه منذ لحظة ميلاده وحتى لقائه مع آلتوتاس Altotas الغامض عام ١٧٦١ ، وظروف زواجه بالجميلة لورينزا Lorenza غير معروفة أيضًا. وشخصية آلتاتوس نفسه يثار حولها الكثير من الشكوك، وكانت موضوعًا لسير ذاتية متناقضة، وتعد رواية القس باروبل Barruel أكثرها قربًا للحقيقة؛ فهو يقول إن آلتاتوس ليس سوى كولمير Kolmer، وهو بائع جاء من قلب البلاد، وكان مغرمًا بالمغامرات والأبحاث الباطنية.

وقد أقام لفترة في مالطة ثم رحل إلى الإسكندرية نحو عام ١٧٦٢ وكان بصحبته الشاب كاجليوسترو، ونحن لا نعرف بالتحديد ما فعلاه في مصر، وكم كانت مدة إقامتهما ولا تاريخ عودتهما. وما نعرفه جيدًا في المقابل هو أن كاجليوسترو بعد هذه المرحلة تحول إلى رجل آخر، وانتحل اسم الشهرة ذائع الصيت "القبطي الكبير".

ولاشك أن هذا الوجه الجديد هو الذى يفسر عدم اليقين والغموض اللذين يحيطان بحياته، كما لو كان قد أراد أن يعطى لنفسه ميلاداً جديداً عن طريق اسم جديد ونبوة جديدة مستوحاة من مصر.

وبعد عودته بدأ جولة أوروبية لاستضاءة عقلية، وذلك لاستخدام تعبير نرفال، وعبر القارة، وسافر من روما إلى نابولى ثم إلى إكس أون بروفنس ولندن وبروكسل وميتو ثم وارسو ثم سان بطرسبورج ليعود بعد ذلك إلى وارسو؛ حيث ظل حتى عام ١٧٨٠، وهو التاريخ الذى بدأ فيه أيضاً مغامرته المصرية.

ووصل كاجليوسترو إلى ستراسبورج ترافقه قرينته الكونتيسة لورينزا فيليسيانا فى التاسع عشر من أبريل عام ١٧٨٠، وحاول أن يؤسس جمعية مصرية، ولكن نجح فى إقامتها فى ليون – التى كانت ملتقى كل الاتجاهات الروحية والفلسفية فى ذلك العصر – فى عام ١٧٨٥ .

ووجد كاجليوسترو فى فرنسا نزعتين مهمتين فى مجال الفكر: النزعة العقلانية التى تجمع كبار الفلاسفة والمفكرين مثل ديدرو **Diderot** ودالمبار **d'Alembert** وفولتير **Vol-taire**، والنزعة الإخفائية التى تضم الروحانيين مثل لويس كلود دى سان مارتان **Louis Claude de Saint Martin** –، و"الفيلسوف المغمور" مارتينيز دى باسكالى **Martinez de Pasqualy** ودون برينتى **Don Pernéty** ، وظهرت أفكارهم الجديدة عن الحريات الشخصية والسياسية وعن العلاقة بين الفرد والدين فى وسط مضطرب بسبب الأزمة الاقتصادية والسياسية.

ولعب هذا الموقف دور المفجر للثورة الفرنسية، وسمح لعمل كاجليوسترو أن يجد قيمة خاصة فى الحياة السياسية والفكرية لفرنسا .

وبعد تلخيص السيرة الذاتية "لأب" الإخفائية المصرية فى فرنسا، يتعين علينا الآن التساؤل عن أثر كاجليوسترو فى الماسونية الفرنسية والإضافة المصرية التى قدمها .

يبدو أن الماسونية "المصرية" قد وجدت بالفعل حتى قبل كاجليوسترو، ولاسيما فى إيطاليا ولكن بطريقة خجولة وتحت لواء مذاهب أخرى، وكان كاجليوسترو هو الذى أضفى على هذه الماسونية نوعًا من التوسع والأهمية. وقبل أن يصبح آخر ضحايا محاكم التفتيش الرومانية، أسس فى فرنسا فى ٢٤ ديسمبر ١٧٨٢ "جمعية الماسونية

المصرية العليا "La Société de la Haute Maçonnerie Egyptienne"، وبالإضافة إلى ذلك انبثقت بعض المحافل المستوحاة من مصر عن كاجليوسترو نفسه الذى منحها شهادة تأسيس، وبغية أن تتميز عن المحافل الأخرى وتصبح مستقلة أطلقت بعض هذه المحافل على نفسها أسماء مثل "مصرايم"، ويرى جيرار جالتييه Gérard Galtier فى كتابه العظيم "الماسونية المصرية La Maçonnerie Egyptienne" أن بداية استخدام هذه الطقوس للفظ مصرايم يعد أمرًا غير معروف [٤]، ولكننا نعتقد بأن أيًا من هذه الممارسات الموجودة فى فرنسا أو أوروبا فى منتصف القرن الثامن عشر لم تستخدم هذا اللفظ.

ونحن نعتقد بأن "القبطى الكبير" فى شغفه العظيم بمصر وتاريخها قد اختار لفظًا غير معروف لتعيين هذا البلد، وكلنا يعلم أن كاجليوسترو كان يحب الابتكار والتميز، ولذا لم يرد قبول الاسم اليونانى "Egypte" ، ولجأ – لمزيد من الابتكار – إلى الاسم اليهودى "مصرايم".

ويتعين الإضافة بأن كاجليوسترو قد خلف آثارًا فى مجال الأدب، فقد كان شخصًا محيرًا ومبتكرًا؛ حتى إن العديد من الكتاب فى فرنسا وأوروبا استوحوا منه لخلق شخصيات غامضة.

ففى رواية الكاتب الألمانى فردريش شيلر Friedrich Schiller المعنونة "صاحب الرؤى Le Visionnaire" التى كتبها عام ١٧٨٧، أطلق المؤلف على البطل وهو قس اسم "أرمانى"، ومؤلف ألمانى آخر وهو جوته تحدث بإسهاب أكبر عن شخصية كاجليوسترو فى كتابه "القبطى الكبير Le Grand Copte" عام ١٧٩١، وكان فى الواقع أول من عنون كتابه بالاسم الماسونى لكاجليوسترو الذى أطلق عليه اسم كونت روسترو Conte Ros-treau . وعلى النقيض من شيلر Schiller لم يعط عنه صورة طيبة، وقدمه على العكس من ذلك كنصاب – وبصورة بديهية – كمحلل نفسى كبير.

ونجد كاجليوسترو فى بريطانيا بعد ألمانيا، وذلك فى مقال لتوماس كارليل Thomas Carlyle بعنوان "كونت كاجليسترو" الذى نشر فى عدد يوليه – أغسطس ١٨٢٣ لمجلة "فرازرز ماجازين Frazer's Magazine"، وتحدث كارليل فيها بصورة أساسية عن دوره فى تطوير الماسونية.

ولكن شخصية كاجليوسترو أخذت طابعًا أدبيًا حقيقيًا فى فرنسا، وكان من أعظم الكُتّاب الفرنسيين الذين تحدثوا عن الموضوع فى أعمال عدة: ألكسندر ديما Alexandre Dumasالعظيم. وفى إحدى رواياته المعنونة "جوزيف بالسامو "Joseph Balsamo الصادرة عام ١٨٤٦ ظهر كاجليوسترو بنفس الاسم، وأعطى ديما Dumasعن كاجليوسترو صورة شخص محاط بالغموض ومتورط فى السياسة الفرنسية، ولكن فى "عقد الملكة" أفرد له دورًا مهمًا فى خلق جمعيات سرية، وتحدث عن مؤامراته لقلب الملكية الفرنسية.

وقد اقتبس منه فى السبعينيات مسلسلاً تليفزيونيًا رآه الجمهور الفرنسى فى ديسمبر ١٩٩٠ ثم فى نوفمبر ١٩٩٦

كما خصص نرفال عشرين صفحة فى كتابه أصحاب الرؤى "Illuminées" لكاجليوسترو وزوجته، وبدأ بمقدمة غير عادية عن تطور الماسونية والعلاقة بينها وبين الدين واحتياجات الإنسان الحديث من الغموض، وأخيرًا الماسونية النسائية لقرينة كاجليوسترو.

وهكذا لعب كاجليوسترو دورًا مهمًا فى ظهور الأفكار الماسونية التى يقال عنها مصرية فى فرنسا، وفى الواقع أعلن الأخوة بيداريد Bédarride قيام أول طقس مصرى فى باريس فى عام ١٨١٤

ولمعرفة أصول البيداريد وتفسير الأسباب التى حدت بهم إلى تأسيس هذا المحفل، يجدر بنا الرجوع إلى ظهور هذه العائلة فى فرنسا.

فمؤسس هذه الأسرة، المدعو جاد بيداريد كان فرنسيًا من الطائفة اليهودية التى تقيم فى جنوب فرنسا منذ العصور الوسطى – ولا يزال اسم بيداريد حتى يومنا هذا هو اسم القرية، ويؤكد جيرار جالتيه Gérand Galtier: كلنا يعلم أن البابوات كانوا يسمحون فى القرن الثامن عشر بوجود اليهود فى أربعَ مُدن من المقاطعة التى يحكمها الكونت فينيه (Contat Venaissan) وهى أفينيون Avignon، وكاربنتراس Darpentras، وليل سير سورج Lisle - sur - Sorgue، وكافييون Cavaillon .

وعند ضم المقاطعة لفرنسا خلال الثورة، اختفت هذه الطوائف تدريجيًا؛ لأن أعضاءها الذين تمتعوا بكامل حقوق المواطنة الفرنسية والمساواة فى الحقوق مع الطوائف الأخرى، فضلوا أن يجربوا حظهم فى مكان آخر" (٥).

وكان جاد جزءاً من هؤلاء الناس، وسافر إلى إيطاليا، وأصبح بعد عدة سنوات ضابطًا فى الجيش الإيطالى.

ومن المعروف أن الماسونية العسكرية كانت نشطة فى فرنسا فى عهد الإمبراطورية الأولى، وأعتقد أن الضباط الماسونيين قاموا بتأسيس محافل فى مصر وإيطاليا، وعملوا على إنعاشها، ونشر أفكار الإخاء والمساواة والحرية، وكانوا بطريقة ما المتحدثين النشيطين باسم الثورة الفرنسية فى أوروبا ومصر، وقد تم تعريف جاد بيداريد بهذا المذهب وهو ضابط عن طريق شخص يدعى حنانيا Anania ، ونميل إلى الاعتقاد بأنه كاجليوسترو، ويرى بعض المؤلفين - مثل جيرار جالتيه - أن حنانيا هو كولمر.

وعندما توفى جاد، كان قد أنجب ثلاثة أولاد بدلوا أسماءهم اليهودية بأسماء لاتينية - مسايرين بذلك موضة العصر؛ فالابن الأول - والذى كان اسمه ماردوشيه - تحول إلى مارك، والابن الثانى جوزويه تحول إلى جوزيف، والثالث ميخائيل تحول إلى ميشيل، وغادر الأبناء مملكة نابولى وإيطاليا بعد سقوط الإمبراطورية وهربوا من مطاردات السلطات النمساوية للماسونيين، وذهبوا إلى باريس فى عام ١٨١٤ وأسسوا "المحفل المصرى لمصرايم"، ويرى جيرار جالتيه أنهم لم يكونوا قط مؤسسى الماسونية المصرية، ولكنهم كانوا مكملين لها.

وقد تأثر هذا المحفل بصورة أساسية من ناحية بعسكرية نابليون فى بداية القرن التاسع عشر ومن ناحية أخرى بالروحانية اليهودية.

وفى الواقع أعطت هذه العسكرية الممزوجة بأفكار الإخاء والإنسية الناشئة عن الثورة الفرنسية لهذه الماسونية انتشاراً أوسع، مع الاستناد إلى الروحانية اليهودية واتخاذ الإطار المصرى القديم كخلفية لها، وانتشر المذهب انتشاراً عظيمًا، وتسببت جدته فى خلق أصدقاء بنفس قدر الأعداء. ولا ننسى أنه فى بداية القرن التاسع عشر - ومن ١٨١٤ حتى ١٨١٥ - ظهرت فى فرنسا نزعة للولع بمصر فى كل المجالات أضافت إليها الماسونية المصرية خلفية روحانية.

وهكذا تمتع محفل بيداريد بنجاح كبير منذ نشأته، وبلا شك لم تكن السلطة المطلقة للمؤسسين على أعضاء المحفل بالشيء الغريب.

ومع ذلك، واجهت الطائفة أيضًا - شأنها شأن كاجليوسترو زعيمها الروحى - عداوة المسيحيين واليهود؛ فقد ظن المسيحيون أن هذا المحفل مناقض للمبادئ الأساسية للمسيحية، وظن اليهود أن هناك بعض المتناقضات مع الماسونية المصرية، ولا سيما الخاصة بكاجليوسترو والماسونية الخاصة باليهود الآخرين الذين سعوا إلى صبغ حركتهم بطابع أيديولوجى أكثر منه سياسى، وبدأت العداوة أيضًا من الشرق الكبير فى فرنسا، أى من الليبراليين، وأخيراً أنهى لويس الثامن عشر نشاط بيداريد نحو نهاية عام ١٨٢٢

وقبل اختفاء الطقس كان قد انتشر داخل محافل منتشرة فى كل فرنسا: "محفل النيل الفياض"، "ومحفل أتباع الحقيقة"، "ومحفل هليوبولس الناهضة"، ويمكننا تصور أن هذه المحافل كانت تضم آلاف الأعضاء أغلبهم من المثقفين والفنانين والصحفيين، وقد أسهموا - كل فى مجاله - فى تطوير أفكار عن الماسونية المصرية ونشرها، ويمكننا أيضًا أن نتصور أن فى كل محفل كان يتم دراسة وبحث كل ما يتعلق بمصر وكل ما يجرى فيها.

والجدير بالذكر أن مصر فى تلك الفترة اعترفت رسميًا بالماسونية بصفة عامة وبالماسونية المصرية بصفة خاصة.

ففى عهد محمد على وأبنائه ثم الخديوى إسماعيل وحتى آخر ملك، كانت مصر تضم محافل ماسونية لكل الأنظمة، وهى محافل ذات نزعة مصرية بصفة خاصة، وكان أعضاؤها يقيمون اتصالات نشطة مع أعضاء المحافل الماسونية فى فرنسا.

ومع ذلك، يتعين ملاحظة أننا نجهل بصورة دقيقة الشكل المعمارى لمعابد مصرايم فى ذلك العصر وكذلك ديكورها، ويمكننا الافتراض أن هذا الديكور كان مصرياً، وفى كتاب جان مالينجيه Jean Mallinger "الأصول المصرية للعادات والرموز الماسونية Les Origines égyptiennes des Usages et symboles Maçonniques" خصص المؤلف فصلاً شديد الأهمية للمعابد المصرية فى عهد الفراعنة، ومعابد الماسونيين اليوم. ولنكتف بالإشارة إلى أن معبد الماسونيين المصرى قد تغير فى تصميمه نفسه؛ فقد أصبح بالأحرى مكانًا مثقلاً بالأشياء والرموز المصرية.

والفكرة التى قدمها المؤرخون عن الماسونية هى أن مصر لم تكتف بتقديم إطارها الدينى لممارسة الماسونيين لطقوسهم، ولكن استخدم تصميم المعبد المصرى كأساس لأماكن العبادة لكل الديانات، ونجد ذلك بوضوح فى المساجد والكاتدرائيات الكبيرة؛ فعلاوة على ارتفاع المبانى، نجد (مذابح - هياكل) ومحاريب وأجنحة، وهناك بعض الاحتفالات المتماثلة؛ فلا يزال الناس حتى يومنا هذا يحافظون - بطريقة غير عادية - على الاحتفالات المستوحاة من الحقبة الفرعونية، وهكذا فهم الماسونيون النفع من اقتباس ديكور العبادة من مصر.

ويقول مالينجيه: "كانت الطقوس التقليدية تمارس فى مبنى يذكر بإطاره الرمزى الغموض، ويخلق نوعًا من التأثير الروحانى المتبادل بين المعبد نفسه من ناحية ومن يقيمون فيه من ناحية وبين هؤلاء والمعبد الأزلى الذى يمثله عالمنا الحسى من ناحية أخرى" (٦).

ويقدم نفس المؤلف رسمًا تخطيطيًا مهمًا للمعبد المصرى، ويظهر بوضوح أن شكله "مربع طويل" يرمز إلى الإنسان وهو فى طور الجنين، فالرأس يوجد فى المحراب، و"قدس الأقداس" أى الصدر يقع فى "محراب المركب"، وباقى الجسم بين "القاعة المعمدة والساحة".

وقد أضاف الماسونيون - الذين استوحوا من مصر - بعدًا روحيًا مهمًا إلى موجة الولع بمصر والإغراب فى القرن التاسع عشر، عن طريق فصل العالم المقدس عن العالم الدنيوى، وذلك بفضل معابدهم التى تشبه المعابد المصرية.

وفى هذه المرحلة، نفكر فى كاجليوسترو الذى طور الماسونيون أخيرًا عمله. والواقع، إذا كان كاجليوسترو قد خلق فى صالوناته وندواته وجلسات السحر والشفاء التى كان يعقدها أطرًا مصرية، فإن الماسونيين قد حولوا فى القرن التاسع عشر هذه الصالونات والنوادى إلى معابد حقيقية، وإذا كان كاجليوسترو قد حمل لقب "القبطى الكبير"، فقد أعطى الماسونيون لأنفسهم ألقابًا وفقًا لدرجتهم الماسونية، وإذا كان كاجليوسترو قد أراد إدماج العالم فى استمرارية من الزمان والمكان، فقد جسد الماسونيون هذه الفكرة بتأسيس هذه المحافل فى كل مكان فى فرنسا، وتدعو هذه المحافل إلى روحانية جديدة تقوم على تصور عالم جديد يقوم على أسس العالم القديم.

وبالإضافة إلى الهندسة وإطار المعبد، ورثت الماسونية المعاصرة عناصر أخرى عن معبد مصر القديمة، وتتضمن طقوس المسارة (*) للعضو الجديد التطهير بأربعة عناصر رئيسية للحياة وهي: الماء والنار والأرض والهواء.

وقد تم دراسة هذه العناصر الأربعة وتعليمها منذ عهد فيثاغورث، وأصبحت بعد ذلك ضمن الرموز الأساسية التى تسمح بفهم الإنسان وعالمه، والذى يحتل فيه الماء مكانًا بارزًا.

وفى مصر يأتى الماء أساسًا من "النهر الملك"، وكان المصريون القدماء يعتقدون أن هذا الماء قادر على تنقية الروح بشرط أن يكون من النيل الذى كانت مياهه مصدرًا للعديد من الأساطير والألغاز.

ونميل إلى الاعتقاد بأن الأسطورة المائية لشعب يخضع لتقلبات ظروف المطر تختلف تمام الاختلاف عن تلك الخاصة بشعب يعيش فى علاقة مستمرة واتحاد وثيق مع مياه نهر يجرى منذ عهود قديمة، وهكذا فإن بعض النقوش الصغيرة "لكتاب الموتى" تمثل تطهير جسد الميت برشه بماء النيل.

وفى كتابه "إيزيس"، يصف نرفال هذا العنصر بأنه "مياه مقدسة"، وبالنسبة لعلاقته بالاحتفالات الدينية العيسوية يقول:

"كانت كل المياه عذبة بالنسبة للمصرى، وخاصة مياه النهر، فيض أوزوريس".

وفى الحفل السنوى لأوزوريس بعد العثور عليه، حيث كان الناس يصرخون بعد نحيب طويل: لقد وجدناه، ونحن سعداء بذلك جميعًا، وكان الجميع يلقى بنفسه فى الأرض أمام إبريق مملوء من مياه النيل الذى يحمله كبير الأساقفة، وكان الناس يرفعون أيديهم صوب السماء طالبين معجزة العناية الإلهية .. حتى بعد الموت وتحت عصبياته عندما يتحول المصرى القديم إلى مومياء، كان يأمل فى أن يسمح له أوزوريس بأن يروى ظمأه بمياهه المقدسة.

كانت شواهد القبور تقول: "أوزوريس يعطيك مياهًا عذبة! ؛ لهذا كانت الموميات تحمل كأسًا مرسومًا على صدورها" (٧).

(*) احتفالات كانت تقام لإيقاف عضو جديد على بعض أسرار الجمعيات الدينية الحديثة (المترجمة).

وانتقلت عبادة الماء التى أعادها فيثاغورث عبر الأجيال فى صورة طقوس المسارة، وذلك حتى الماسونية الحالية.

ويحتل الماء أيضًا مكانة مهمة فى بعض الديانات مع - على سبيل المثال - الوضوء لدى المسلمين والتعميد لدى المسيحيين.

ويبقى لنا فى النهاية تناول آخر عناصر هذا الفصل وهو الماسونية المصرية والفرنسية بصفة عامة فى مصر.

تأسست الماسونية المصرية - على ما يبدو - على يد عسكريين فرنسيين عملوا على نشر أفكارهم، ويعتقد بعض المؤرخين الماسونيين أن أول محفل مصرى تم تأسيسه فى مصر فى عهد بونابرت خلال الحملة، ومن ثم عرفت مصر محافل ماسونية سواء مستقلة أو ذات نزعة أوروبية ولاسيما إيطالية ويونانية وفرنسية أغلب الظن.

ويقول جيرار جالتييه Gérard Galtier : إن تاريخ الماسونية فى مصر لا يزال غير معروف بالصورة اللائقة، على الرغم من أنه حتى عهد ناصر - حيث تم منعها - اكتسبت الماسونية أهمية بالغة، وفى هذا البلد كان هناك محافل مستقلة وورش تابعة ذات نزعات أجنبية، ولاسيما فرنسية وبريطانية ويونانية وألمانية" (٨).

ويقدم نفس المؤلف هنا تاريخ إنشاء المحافل فى مصر: أنشأ المشرق الكبير الخاص بفرنسا بعض المحافل فى النصف الأول من القرن التاسع عشر مثل محفل: "الخير La Bienfaisance" فى عام ١٨٠٢، و"أصدقاء نابليون العظيم Les Amis de Napo-léon le Grand" عام ١٨٠٦، و"أهرامات مصر" عام ١٨٤٧ فى الإسكندرية، و"أصدقاء التقدم" فى المنصورة عام ١٨٣٢ . وأما محفل باريس الذى يطبق الطقس الإسكتلندى الفلسفى فقد أسس محفل "فرسان الأهرامات" فى القاهرة عام ١٨١١ ومحفل "أصدقاء الكونكورد" فى الإسكندرية عام ١٨١٢" (٩).

وبالإضافة إلى ذلك يأتى الدور المهم لمحمد على فى تنمية الجمعيات والمحافل الماسونية فى مصر وحمايتها، وكلنا يعلم أن الضباط الفرنسيين الذين بقوا فى مصر بعد رحيل جيش بونابرت، كانوا فى معظمهم ماسونيين، وقد اضطلعوا بالفعل بدور كبير فى عملية إعادة بث الأفكار الماسونية فى البلد؛ حيث شكلوا مع السان سيمونيين جالية فرنسية شديدة الارتباط بمحمد على، وبالتالى ذات نفوذ سياسى وثقافى عظيم.

وكان الدبلوماسى ماتيو ديليسبس أحد أفراد هذه الجالية، وقد أرسله نابليون – الذى وصفه بأنه أكثر رجال الإمبراطورية إخلاصاً – إلى مصر ليكون مبعوثًا للعلاقات التجارية فى مصر من ١٨٠٣ وحتى ١٨٠٦؛ حيث كان يدير هو وزوجته صالونًا يتردد عليه الدبلوماسيون والعسكريون.

وعندما أصبح ملحقًا عامًا لفرنسا عام ١٨٠٣، طلبت منه حكومة الإمبراطورية بعد عامين من مغادرة حملة الشرق تعيين رجل تستطيع فرنسا ونابليون الاعتماد عليه لمواجهة تأثير الإنجليز ونفوذهم. وعلى الفور أعطى القنصل العام اسم محمد على، وهذا الخيار السريع والسليم ما كان يمكن القيام به إلا بعد مشاورات طويلة مع الفرنسيين المقيمين فى مصر، ويبدو أن غالبيتهم كانوا من الماسونيين كما ذكرنا من قبل، ومن ثم أيدت فرنسا ترشيح محمد على الذى هزم الإنجليز فى رشيد عام ١٨٠٣ . واعتباراً من ذلك التاريخ بزغ نجم الباشا المصرى فى سماء الشرق، ولم ينس ماتيو ديليسبس، وأصبح بعد ذلك "حامى حماة" الفرنسيين فى مصر، ولهذا استدعى المهندسين والعلماء الفرنسيين بصورة جماعية إلى جانبه، وأرسل تلاميذ مصريين فى بعثات مدرسية إلى فرنسا.

أما ماتيو ديليسبس فقد أصابته تحولات الزمن بعد سقوط الإمبراطور وتوفى بعده بزمن قصير، وطلب محمد على من ابنه فردينان البقاء فى محيط قصر القاهرة. وفردينان ديليسبس معروف بطاقاته الخيالية وطموحه الكبير ورغبته فى تسطير صفحة فى كتاب تاريخ الإنسانية العظيم بتركه عملاً – كما نعرف – غير مجرى العالم: إنه قناة السويس.

الفصل الثانى

لعنة قناة السويس
(من تمثال الحرية إلى تمثال ديليسبس)

"إنك الوحيد الذى تفكر فى كل التضحيات المالية التى قدمتها وفى الأوقات العصيبة التى مررت بها، ولم يفكر أحد قط فى أمريكا مثلك فى محاولة شفاء جروحى القديمة"

بارتولدى إلى صديقه بتلر ١٨٨٦

إلى العمل! أيها العمال الذين أرسلتهم فرنسا
ارسموا للعالم هذا الطريق الجديد
إن آباءكم الأبطال جاءوا حتى هنا
كونوا بنفس صرامتهم، كونوا بنفس جرأتهم
إنكم تقاتلون مثلهم على سفح الأهرامات
وتقابلكم أيضًا الأربع آلاف سنة من عمرهم

هنرى دى بورنييه Henri de Bornier

(قصيدة طبعتها الأكاديمية الفرنسية عام ١٨٦٢)

كان الهواء بارداً في يوم ١٨٨٦/١٠/٢٨ في الشارع الخامس بنيويورك، وقد اجتمع فيه عشرات الآلاف من الأمريكيين المتحمسين للمشاركة في الافتتاح المهيب لتمثال الحرية، ومن بين الضيوف البارزين الذين التفوا حول المثال الفرنسي الشهير أوجست بارتولدي كان هناك ضيف شهد منذ سبع عشرة سنة الاحتفاء نفسه على ضفاف قناة السويس: إنه فردينان ديليسبس.

وعندما صعد الرجل إلى المنبر ليلقي كلمته، قامت ريح قوية بإسقاط العلم الفرنسي الذي كان يغطي وجه التمثال، وانقبض قلب بارتولدي؛ فلم يكن الرجلان متحابين على الرغم من استقبال ديليسبس لبارتولدي في مصر مراراً أثناء أعمال حفر قناة السويس.

ولكن حزن عميق ألقى بظلاله في قلوب الفرنسيين الحاضرين في هذا الحفل الأمريكي؛ فقد اضطر الخديوي الذي كان بالفعل مثقلاً بالديون إلى بيع كل أسهم قناة السويس التي تمتلكها مصر لإنجلترا .. وبعد ذلك بوقت قصير لم تستطع مصر المضعفة سياسياً مواجهة وضع يد الإنجليز على البلاد عام ١٨٨٢

وكان بارتولدي وديليسبس على علم تام بأن تمثال الحرية هذا كان من المفترض أساساً أن يتم وضعه في المدخل الشمالي للقناة، وكانا يعرفان أيضاً أنه منذ بداية حفر القناة عام ١٨٥٩، شهدت القناة أحداثاً غريبة حتى تم وصفها "بالملعونة".

واضطر ديليسبس مواجهة قوى كبيرة لاستكمال مشروعه؛ فالإنجليز والعثمانيون وجزء كبير من المصريين وعدد كبير من الفرنسيين كانوا قد عارضوا في البداية هذا المشروع.

واستلزم إنهاء حفر القناة إرادة حديدية ومثابرة أسطورية، وافتتحت القناة في النهاية عام ١٨٦٩، ولسوء الحظ تنازل نابليون الثالث وأوجيني اللذان يعدان أكبر حماة ديليسبس عن الحكم بعد ذلك التاريخ بعام واحد، وذلك بعد هزيمة ثقيلة في سيدان Se-dan .

وظل الخديوي إسماعيل في الحكم عشر سنوات بعد افتتاح القناة، ولكنها كانت أحلك سنوات التاريخ المصري المعاصر: ديون ثقيلة، وتدخل إلى درجة فرض القوى

الخارجية لوزراء فرنسيين وإنجليز على مصر كأعضاء فى الحكومة المصرية، وبعد ذلك ولبلوغ قمة الأسى انتهت هذه السنوات العشر السوداء باحتلال البريطانيين لمصر.

وكلنا يعلم النهاية الحزينة لديليسبس بعد فضيحة بنما. أيمكننا فى هذا الصدد الكلام عن لعنة السويس؟ فقد كان هناك فى تاريخ هذه القناة شىء لم يرد أحد رؤيته، فقد استمر الفرنسيون فى وصف ديليسبس حتى بعد وفاته بالنبى، كما استمر المصريون فى تحويل القناة إلى رمز متفرد للوطنية والقومية العمياء.

ولم يكن تمثال الحرية التمثال الوحيد الذى تغيرت أقداره؛ فقد شهد تمثال ديليسبس هو الآخر طريقًا ملتويًا.

وقبل بدء قصة هذين التمثالين لنعد إلى الوراء لدراسة السبيل الذى استطاع به ديليسبس انتزاع امتياز قناة السويس.

تسببت الكيلومترات المائة والخمسون من الصحراء التى تفصل بين البحرين فى ضيق شديد للمسافرين الذين عانوا - خلال القرون - من عواصف الرمال وغارات البدو.

وكلنا يعلم أن سيزوستريس الأول كان أول من أنجز طريقًا مائيًا يربط بين النيل والبحر الأحمر فى الحقبة الفرعونية، ولم تقف جهود الملكة حتشبسوت والفرعون سيتى الأول طويلاً أمام الإهمال والرمال التى دفنت القناة، وانشغل غزاة مصر أيضًا بهذا المشروع اعتبارًا من دارايوس Darius الفارسى حتى الخليفة هارون الرشيد ومرورًا بالإمبراطور تراجان Trajan ؛ فقد حمل جميعهم الحلم الشهير بربط البحرين.

وقد استهوى هذا المشروع أيضًا بونابرت، وبعد دراسات طويلة تم تكليف مهندسه الشهير جى - م لوبار J-M le Père بدراسة المضيق على الطبيعة، واستنتج أن البحر الأحمر أكثر ارتفاعًا من البحر المتوسط بمقدار عشرة أمتار، وأوصى ببناء قناة غير مباشرة بين النيل والبحر الأحمر، والتى - وفقًا للتقديرات - تحتاج إلى أربع سنوات للتنفيذ، ولم يتم رفض حساباته الخاطئة إلا فى عام ١٨٤٧

وعند استلام المذكرة قال بونابرت: "إنه عمل عظيم، وإن لم أستطع إنجازه اليوم، فستسرق منى الحكومة التركية بلا شك يومًا مجد المشروع" (١٠).

وتغيرت الأمور عندما سلك بروسبار انفدتان الأب الروحى لمجموعة السان سيمونيين الطريق إلى الإسكندرية للدعوة لمشروع حفر القناة؛ فقد كان السان سيمونيون يعتقدون بحق أن القناة ستسمح بنشر السلام فى العالم، كما تسهم فى اقتران الشرق بالغرب.

واستقبل محمد على السان سيمونيين فى مصر، ورفض بصورة رسمية مشروع حفر القناة، وقال:

"إن مسألة قناة السويس قد تتسبب فى توليد هذا النوع من المشاكل الذى أسعى جاهداً – أكثر من غيرى – إلى تجنبه، وأنا على قناعة بأن الأمر يتعلق بمؤامرة مدبرة ضدى، وأعلن: لن يتم قط الحصول على موافقتى على مثل هذا المشروع، بل وسأقاوم بكل ما أوتيت من قوة تنفيذه، وأنا عازم على ذلك، وإذا ما أعلنت القوة الأوروبية العظمى لى اليوم أنه يتعين على أن أقبل هذا الخزى أو أن أستقيل فلن أتردد لحظة فى قبول الحل الثانى. إن النمسا تسعى إلى خسارتى، وهى لا تستطيع أن تفعل شيئًا بنفسها، بيد أن قنصلها العام لا يترك فرصة لتهديدى بتدخل الباب العالى؛ فهى تسعى إلى تدميرى عن طريق الباب العالى بمجرد حصولها على الفرصة" (١١).

ومع ذلك، أعطى الباشا للسان سيمونيين الضوء الأخضر لبناء سد على النيل.

وبعد ذلك استقبلهم كما استقبل الدبلوماسى الفرنسى الشاب الذى نعرفه، والذى لعب دوراً أساسياً فى تاريخ مصر: فردينان ديليسبس.

ولد فردينان ديليسبس فى مدينة فرساى فى التاسع عشر من شهر نوفمبر عام ١٨٠٥، وهو ابن ماتيو ديليسبس المفوض العام للعلاقات التجارية فى مصر، ثم أصبح قنصلاً لفرنسا فى الإسكندرية عام ١٨٣٣، وبفضل الصداقة العميقة التى كانت تربط محمد على بماتيو، أصبح فردينان بعد وفاة والده صديقًا حميمًا للعائلة الحاكمة.

ولنستمع إلى كلام فردينان ديليسبس الذى يكشف لنا عبر شهادة طويلة خبايا علاقاته مع محمد على:

"كان محمد على رجلاً صارماً، وكانت رؤيته لابنه – الذى يحبه حبًا شديداً – وهو يسمن سمنة كبيرة تحيله إلى اليأس، فقد كان جل ما يتمناه هو منع ابنه الغالى من أن يصبح بديناً، ولذا كان يرسله لصعود صارى السفن لمدة ساعتين يومياً، ويجبره على

قفز الحبل والتجديف والمشى حول الحواجز. وعندما كان يأتى سعيد لزيارتى، كان يلقى بنفسه فوق الأريكة وقد خارت قواه. ولسوء الحظ بالنسبة لوزنه كان طبقه المفضل هو المكرونة، وكان خدمى يقدمونه له سراً بناء على أوامرى لكى يحتمل الصيام المفروض عليه، ويتعين فهم أن عرب الصحراء يرون فى البدانة صفة أنثوية وهم يتخمون زوجاتهم بالطعام، ويجعلونهن لا يتحركن تقريبًا ليحافظن على استدارتهن. كنت أشفق على سعيد من كل قلبى، ولكن كنت أبذل قصارى جهدى لمساعدته بمحاولة تعليمه على سبيل المثال لعبة الشيش التى كان يكرهها؛ لأن الجلسات كانت تجعله يتصبب عرقًا. وكان يفضل نزهاتنا على ظهر الخيول. وبعد ذلك فى حياتى كنت أتساءل عن المعجزة التى جعلت ملكًا يشعر إزائى بدين كبير من أجل بضعة أطباق مكرونة ونزهات على ظهر الخيل بصحبتى. من الذى كان يستطيع أن يتنبأ عن تأثير أطباق العجائن تلك فى الواقع على مصيرى؟ بيد أن انجذابنا إلى بعضنا كان يقوم على أسباب أكثر عمقًا منها التناقض بين تربيتى وتربيته: ألم يكن سليلاً لعائلة من الأميين الألبان، ونشأ فى بلد غير موطنه الأصلى خرج لتوه من النظام الإقطاعى؟" (١٢).

وقد أدرك ديليسبس أن الباشا لن يعطى أبدًا موافقته لحفر قناة السويس بسبب المطامع الأوروبية فى مصر، ولذا فقد قرر إرجاء مشروعه.

وكان محمد على يقول: "ليكن، فالنمسا وفرنسا تأملان فى وجود القناة، ولكن ماذا عن إنجلترا وروسيا؟" (١٣).

وملأ وصول الأمير وتلميذ ديليسبس السابق إلى الحكم الرجل بالأمل والأحلام.

وخلال رحلة فى الصحراء المصرية، تبادل الرجلان ذكرياتهما القديمة، وانتظر ديليسبس اللحظة المناسبة ليقترح هذا المشروع التاريخى على الحاكم.

ويروى ديليسبس: "كان سعيد يتمتع بحالة نفسية ممتازة، وكان منشرحًا ومرحًا، وأمسك بيدى وظل محتفظًا بها لفترة وهو يقودنى إلى الأريكة التى جلسنا عليها جنبًا إلى جنب، وكنا منفردين. وكنا نستطيع - عبر إفريز الخيمة - رؤية مشهد غروب الشمس الرائع، والتى بهرنى مشهد شروقها. وفى هذه اللحظة بينما كنت على وشك طرح المسألة التى يعتمد عليها مستقبلى، شعرت بالهدوء والثقة. كانت دراساتى وتصوراتى عن قناة تربط البحرين واضحة فى ذهنى، وبدا لى تنفيذ خطتى من السهولة

بمكان حتى إننى لم أشك فى قدرتى على إقناع الأمير بها، وعرضت المشروع دون الدخول فى تفاصيل: كان بإمكانى تسميع مذكرتى عن ظهر قلب، ولكنى اكتفيت بعرض معطياتها ونقاطها الأساسية، واستمع لى سعيد باهتمام ورجوته إبلاغى بأية شكوك تساوره، وبالفعل أثار اعتراضات عدة ذات صلة أجبت عليها بطريقة محسوبة لإرضائه. وفى النهاية قال لى: "إننى مقتنع، وأوافق على مشروعك، وخلال باقى الرحلة تشاورنا حول وسائل تنفيذه". وجمع حاشيته ليطلعهم على الخبر، وجلس رجاله على الحصير المنسوج من القصب أمامنا، ونقل لهم الحوار الذى دار بيننا لتوه، وكان مستشاروه أكثر قدرة على الحكم على نزهة بالخيل أكثر من الحكم على مشروع كبير يستطيعون بصعوبة قياس نتائجه، وفهم هؤلاء المستشارون وهم يرتجلون أن صديقًا لسيدهم رأوه لتوهم وهو يقفز فوق الدرابزين يقول بالضرورة آراء ممتازة. ومن وقت لآخر كان يضع يده فوق جبينه مشيراً إلى موافقته على الإجراءات التى يعلنها نائب الملك، وعندما تم إعداد العشاء، وضعنا ملاعقنا جميعًا فى نفس صحن الحساء للتعبير عن موافقتنا على نفس الرأى .. هذا هو تقرير أمين عن أهم مفاوضات قمت وسأقوم بها على الإطلاق" (١٤).

وتم الإعلان رسميًا عن الاتفاق بين سعيد وديليسبس بحضور كل الممثلين الدبلوماسيين فى القاهرة.

ووضعت إنجلترا – التى اشتمت رائحة مغامرة فرنسية جديدة فى مصر – عراقيل كبيرة فى مواجهة حفر القناة، وشنت حملة عنيفة ضد المشروع وضد سعيد نفسه.

وهكذا بدأ اللورد كالرنتون وزير الخارجية البريطانية فى التوجه إلى سعيد بنبرة تهديد.

ويقول ديليسبس: "إن عدم الرضا الذى تواجه به حكومة جلالته المشروع لا يرجع إلى عرضه على سموه من قبل أحد الرعايا الفرنسيين؛ فلو أن حكومة جلالته ترى فى هذا المشروع أصغر فرصة لفائدة يمكن أن تعود على الباشا، لأوصت باعتماده، سواء كان مقدمًا من قبل رعية فرنسى أو بريطانى؛ فكل ما يجنح إلى تيسير العلاقات بين الأملاك البريطانية فى أوروبا وآسيا يتعين أن يعجب حكومة جلالته. وبسبب عدم اقتناع الحكومة بعدم إمكانية الحصول على أية ميزة من تنفيذ هذا المشروع فإنها تعطيكم التعليمات بالابتعاد عنه وبالإعراب صراحة إلى الباشا عن أسبابنا للتصرف على هذا النحو" (١٥).

ولدعم مصر، منح نابليون إلى سعيد فى ٢٢ ديسمبر وسام جوقة الشرف الرفيع.

وعلى الرغم من عدم دفاع فرنسا صراحة عن المشروع لعدم إزعاج حليفها، فإن المساندة المعنوية وإسراع الفرنسيين لشراء أسهم الشركة سمحا بتنفيذ المشروع.

ومع ذلك فقد أثبت الفرنسيون بعد ذلك عن صحة الشكوك والمخاوف من المشروع حتى سمحوا للإنجليز لا بتكرار سيناريو عام ١٨٠١ بمساعدة الأتراك فى طرد بونابرت من مصر فحسب، ولكن أيضًا باحتلال البلاد بعد افتتاح القناة عام ١٨٦٩ بعدة سنوات، وأعد والى مصر الجديد الخديوى إسماعيل مصر لحفل افتتاح القناة جدير بألف ليلة وليلة بحضور إمبراطور النمسا والإمبراطورة أوجينى وأمراء أوروبا على موسيقى ريجوليتو فيردى Rigoletto Verdi . وكانت مصر فى هذه الأثناء تعيش أزهى فترات الوفاق مع فرنسا .. ولكن ككل فترات الوفاق، كانت هذه الفترة تؤذن بطبيعة الحال بالنهاية الطبيعية للعواطف وبداية القلق بين البلدين.

وأول ملحوظة على هذه الحفلات الفخيمة هو غياب اسم بارتولدى من قوائم مدعوى الخديوى وديليسبس على الرغم من لقائه الخديوى مرارًا - ربما رغماً عن إرادة ديليسبس - بهدف صنع تمثال لوضعه فى المدخل الجنوبى لقناة السويس.

ونصل الآن إلى قصة بارتولدى وتمثال الحرية.

لقد كان هذا التمثال الشهير هدية من فرنسا إلى أمريكا، ولكن قليل هم من يعرفون أن الخديوى إسماعيل باشا هو الذى طلبه عام ١٨٦٩ لوضعه فى المدخل الجنوبى للقناة.

ولكن من هو بدايةً بارتولدى؟ وما علاقته بمصر؟

ولد بارتولدى - الذى كان يحمل اسم فريدريك أغسطس Frédéric Auguste - فى أغسطس من عام ١٨٣٤ فى كولمار بالألزاس، وتوفى والده بعد عام من ميلاده تاركًا خلفه أمًا قوية الشخصية وولدين أحدهما مختل عقليًا والآخر ضعيف الصحة، ولكن حباه الله مواهب رسام سابق لأوانه. وبعد وفاة الأب استقرت الأسرة فى باريس لدى أحد أقرباء الأب وهو جان باتيست بارتولدى Jean Baptiste Bartholdi، الذى أصبح بعد ذلك سفيرًا لفرنسا فى الولايات المتحدة، والذى لعب دورًا أساسيًا فى نقل التمثال إلى أمريكا. ومضت السنون ودخل بارتولدى الصغير مدرسة لويس الكبير Louis de Grand

وارتاد خلال هذه الفترة مرسم أنطوان إيتكس Antoine Etex أحد كبار الرسامين المثالين الفرنسيين فى ذلك الحين. ولا يتعين إغفال تأثير والدته التى غرست فيه الصلابة والنظام، وبصفة خاصة عادة كتابة رسالة يومية إليها. وبفضل هذه الرسائل المحفوظة اليوم فى متحف بارتولدى فى كولمار، يتوفر لدينا معلومات مهمة عن مولد تمثال الحرية وتاريخه، وكذلك عن إقامة بارتولدى فى مصر؛ فقد حقق إنتاجه الفنى نجاحًا معقولاً فى فرنسا. ونذكر من بين تماثيله "السامرى الصالح Le Bon Samaritain" الذى رفض فى معرض باريس عام ١٨٥٣، و"السوابيون (*) السبع Les Sept Souabes" الذى رفضه نفس المعرض بعد هذا التاريخ بعامين، و"الجنرال راب Le Général Rapp" الذى كاد أن يواجه نفس المصير فى معرض باريس العالمى عام ١٨٥٦، ولكن بناء على طلب إدارة المعرض، وضع المثال الشاب تمثاله فى حدائق المعرض نظرًا لحجمه، وكانت المفاجأة تامة بالنسبة للجميع؛ إذ أضفى الإطار المزهر للحدائق وعزلة التمثال بعيدًا عن تكدس القاعات على عمل بارتولدى هيبة غير متوقعة.

وبفضل هذا النجاح الكبير بحث الفنانون والكُتّاب والفلاسفة النابوليونيون والمفكرون الجمهوريون مثل السان سيمونيين عن المثال، وأدى اتصال بارتولدى بهؤلاء وبالذين يستشعرون بالحنين إلى الملحمة الإمبراطورية إلى وضعه على محور مصر وحضارتها، وبعد شهر من نجاح المعرض العالمى – أى فى سبتمبر ١٨٥٦ – نزل بارتولدى أرض مصر باحثًا عن مصدر إلهام جديد وعن مستقبل مزدهر على غرار سليمان باشا أو لمبار بك أو حتى شامبليون.

وقد تسلح بارتولدى بلوحة ألوان وبكاميرا تصوير، وكان من أوائل المصورين الذين عرفتهم مصر، وجاب البلاد وخلد بريشته مشاهد من الحياة الشعبية فى القاهرة، مصورًا للمرة الأولى تمثالى ممنون Memnon ، وأدهشت ضخامة التماثيل المصرية العملاقة المثال الشاب حتى أثارت لديه فكرة تنفيذ عمل مستوحى من فن النحت القديم، التى تضفى عليه عظمته أيضًا طابع الخلود.

وماذا عن فردينان ديليسبس؟ استمد بارتولدى حماسه وإلهامه الخصب خلال إقامته فى مصر كما يدلل على ذلك تمثاله "شامبليون" (١٨٧٥) الذى يزين يوم ساحة

(*) سكان مدينة سواب، وهى مدينة ألمانية (المترجمة).

الكوليج دى فرانس Collège de France و"قيثارة البربرى La lyre du Berbère" (١٨٦٧) و"ذكرى مصر Souvenir d'Egypte" (١٨٦٧) وهى لوحة رائعة كانت الأصل فى صداقته مع الخديوى إسماعيل. كما التقط بعض الصور الفوتوغرافية المهمة وبعض اللوحات بالألوان المائية تعكس بصورة واضحة مصدر إلهامه، ولكن بارتولدى الذى حلم بخلق معجزة ثامنة للعالم لم يكتف بالرسم والنحت فقد كان حفر تمثال خصيصًا لمصر يمثل بالنسبة له تحديًا وأملاً فى الوقت نفسه، ولتحقيق هذا الحلم الفرعونى كان يلزمه من جهة فرعون ومن جهة أخرى وسيط يسهل له دخول قصر الفرعون. ووجد هذا الوسيط فى شخص فردينان ديليسبس الذى التقى به ثلاث مرات: مرتين فى مصر والمرة الثالثة فى أمريكا خلال افتتاح تمثال الحرية. وأثناء زيارته الأولى كشف بارتولدى للدبلوماسى عن نيته فى تنفيذ عمل ضخم لشهرة مصر، بيد أن فردينان ديليسبس ثبط عزيمته و"لم يكف – على حد قوله – عن سكب الماء البارد على حماستى" (١٦).

ففى الواقع، كان فردينان ديليسبس الذى انتزع لتوه الموافقة على إنشاء الشركة الدولية لقناة السويس وإدارتها، لم يكن يريد لمشروع جديد أن يفسد تنظيم الأمور كما تصورها. ومع ذلك استطاع بارتولدى – بفضل ديليسبس، خلال زيارته الثانية لمصر – لقاء الخديوى إسماعيل باشا.

ويعد الفيلسوف والجمهورى القوى لابولاى Laboulaye وهو فى نفس الوقت الأب الروحى لبارتولدى أول من نادى عام ١٨٦٥ بتنفيذ تمثال يرمز للحرية، وجسدت فكرته حلم بارتولدى المصرى، ولكن الرجلين كانا يعرفان أن المشروع لن ينفذ دون مساندة حاكم.

وبعد عامين خدمهما القدر فقد انبهر الخديوى إسماعيل بلوحة بارتولدى التى رسمها خصيصًا للمعرض، والتى أطلق عليها "ذكريات مصرية قديمة"، وكان حاكم مصر رجلاً مستنيرًا ومتحضرًا، ولذا أحبه الفرنسيون ودعوه إلى العاصمة الفرنسية واستقبلته بصفة خاصة جمعية مناهضة العبودية التى كان يرأسها – وهى لعبة القدر – لابولاى الشهير، واغتنم بارتولدى الفرصة ليقترح على الحاكم إقامة تمثال ضخم فى المدخل الجنوبى للقناة.

وكان المشروع الذى قدم للخديوى يمثل تمثالاً يبلغ ارتفاعه حوالى ٨٢ مترًا، ويمثل امرأة ترتدى جلبابًا وتغطى رأسها بالطرحة التى كانت تضعها الفلاحات المصريات

فوق رؤوسهن، ويرمز هذا التمثال لمصر وهى تحمل النور لآسيا. ويبدو أن الحاكم كان متحمسًا؛ لأن النحات بدأ فى العمل ليعرض مشروعه مشفوعًا بماكيت على الخديوى، ووصل إلى مصر وهى البلد التى كان يعرفها منذ زيارته التى قام بها عام ١٨٥٧، وذلك فى شهر مارس عام ١٨٦٩، وقدم مشروعه وماكيته إلى إسماعيل فى ٦ أبريل، وكان رأى الخديوى أنه يفضل أن يرى الشعلة محمولة على رأس التمثال على طريقة الفلاحات (١٧).

والواقع أن طلب الخديوى لإدخال بعض التعديلات يفترض التزامه على الأقل بطريقة جزئية إزاء النحات؛ فمن الصعب تصور تنفيذ بارتولدى لماكينات بالحجم الطبيعى وتجهيز تصميمات والقيام برحلات دون أن يكون الحاكم – وهو رجل بالغ السخاء – قد التزم إزاءه ماديًا، ولكن ليس لدينا أى دليل على هذا اليوم، وليس لدينا ما يثبت أيضًا أن يكون الخديوى فى لحظة غبطة قد طلب إلى النحات تنفيذ مقبرة ضخمة له، بيد أن متحف بارتولدى يحتوى رسمًا رائعًا لمقبرة صممها الفنان فى ١٨٦٩، ولم يسمح البذخ فى افتتاح القناة فى ١٨٦٩ ثم إفلاس مصر وخلع الإنجليز لنائب الملك باستكمال مشروع بارتولدى.

واقترح لابولاى على بارتولدى السفر إلى الولايات المتحدة؛ حيث كان معترفًا باسمه كفيلسوف وكعاشق للمؤسسات الأمريكية، ووصل بارتولدى إلى أمريكا فى ٢١ يونيو ١٨٧١، وانبهر بمنظر مدخل ميناء نيويورك، وتم تقديمه فى دوائر الفنانين والمفكرين ورجال الأعمال الأمريكيين، وظهرت مرة أخرى فكرة لابولاى بإقامة تمثال كبير يرمز للحرية، وتم تعديل مشروع تمثال السويس مرة أخرى ليتحول إلى تمثال نيويورك.

وألمحت بعض الصحف آنذاك بأن بارتولدى قد أعاد بيع المشروع، ولكنه دافع عن نفسه ضد هذه التلميحات مدعيًا أنه لم يرسم سوى رسم تخطيطى صغير لتمثال قناة السويس، بالرغم من أن الماكيتات المحفوظة تشهد بجلاء على أن الأمر كان يتعلق بمشروع ضخم.

وانتهى تمثال السويس بأن تحول إلى تمثال الحرية، وطالب كثير من الفرنسيين آنذاك أن يكتب اسم مصر على الأقل على القاعدة، ولاسيما بسبب التعديلات التى أدخلها بارتولدى على التمثال والمستوحاة من مصر سواء على دكته الهرمية أو على شكل منارة الإسكندرية على قاعدته.

وأراد عدد كبير من أصدقاء مصر الفرنسيين أن يعيدوا لمصر حقها بإهدائها بمناسبة الاحتفال بمرور مائتى عام على حملة بونابرت التى جرت هذا العام ١٩٩٨، تمثالاً جديداً للنور تضعه مصر غرب الإسكندرية فى المكان الذى نزل فيه بونابرت وعلماؤه.

والتمثال المصرى الذى كان من المفترض أن يصبح رمزاً لأمريكا والأرض الجديدة والحلم الأمريكى أصبح اليوم من أثر لعنة السويس رمزاً لأمريكا مهيمنة وظالمة تسود فيها التفرقة العنصرية والبؤس المدقع ونسبة إجرام جد مرتفعة.

وفى فيلم يوسف شاهين الشهير "إسكندرية ليه؟" نجح البطل فى الصعود على ظهر سفينة تقوده إلى الولايات المتحدة، وكان مشهد نهاية الفيلم بالغ المعنى؛ فعند وصول المركب فى عرض مياه نيويورك، يغمز تمثال الحرية للمصرى غمزة غريبة.

وإذا كان مصير تمثال الحرية هو التحول خارج البلاد؛ فإن التمثال الآخر أى تمثال ديليسبس قد عرف مصيراً مماثلاً، ولكن داخل مصر نفسها.

فقد طلب الأمير أوجست دارنبار Auguste d'Arenberg هذا التمثال من النحات ايمانويل فريمييه Emmanuel Fremiet، وتم افتتاح تمثال أبى القناة فى ١٧ نوفمبر ١٨٩٩ أى بعد ثلاثين عاماً بالضبط من افتتاح قناة السويس.

وبعد سبعة وخمسين عاماً، رحلت لعنة السويس عن التمثال الذى كان من المفترض أن يكون رمزاً لفترة وفاق مصرية – فرنسية، إلا أن التمثال قد تحول غداة حرب السويس وبعد القصف البريطانى – الفرنسى لبورسعيد رمزاً لانفصال مؤلم بين مصر وفرنسا وعلامة زمن مضى، وقد طرح التمثال أرضاً وأهمل لأكثر من أربعين عاماً قبل أن يصبح مادة لبعض الإصلاحات الساذجة بفضل الجهود التى تستحق الثناء لجمعية أصدقاء قناة السويس وفردينان ديليسبس، وأصبحت هذه الجمعية مع جمعيتها الأم – سويس ليون للمياه Suez Lyonnaise des Eaux معملاً حقيقياً للتصالح والتعاون الاقتصادى بين البلدين.

ويتسنى لنا اليوم فهم السبب الذى دفع عبد الناصر خلال خطابه لتأميم قناة السويس أن يكرر ثلاث مرات اسم ديليسبس كإشارة يعطى بها لرجاله أمر احتلال فى اللحظة ذاتها مقر شركة السويس، كان ذلك فى يوليو ١٩٥٦ .

الفصل الثالث

السحر وقد تحول إلى مهنة

"الشرق مهنة"

دزرائيلى Disraeli

بعد عشرة قرون من الأبحاث والاستيهام والبعثات العسكرية تارة والعلمية تارة أخرى، انتهى الولع بمصر بخلق سحرتها.

عاش سحرة مصر في العقود التي تلت افتتاح القناة في عالم متقلب؛ حيث أدى تواتر التقدم العلمي والتغيرات السياسية والتحول إلى الديمقراطية، بل ونشر مفهوم السفر إلى ميلاد جيل من "سحرة مصر". وعلى اختلاف العلوم، أصبح هذا الشعور الذى تحول إلى مؤسسة مهنة تستلزم الحصول على شهادة، وقد أسهم علم السياسة وعلم المصريات، وبصفة عامة اللغة والأدب العربيان فى هذا المجال.

وكان بعض السحرة الجدد لا يمتلكون شهادات عالية؛ فقد كان لهم حظ المولد فى مصر أو الانحدار من أصل مصرى، أو ربما حتى الانتماء إلى أهالٍ عملوا بمصر خلال السنوات التى أسهم ديليسبس فى أن يجعل منها أرض ميعاد.

ومع ذلك فكان معظمهم مبشرين ممتازين "للمصرية" بما أن كل واحد منهم كان موسوعة متحركة عن موضوع مصر، ويحفظ فى مكتبته "أدوات" ضخمة للعمل: شفافات، وأقراصًا مضغوطة، وسبل نفاذ مباشر إلى أرشيفات العالم بأسره؛ كل ذلك أصبح ضروريًا، لأن هذا الانجذاب إلى مصر تحول إلى مهنة توافق الموضة ومربحة أيضًا!

وسحرة مصر الجدد لا يجذبون الناس، ولكن يصدمونهم ويقرعونهم ويفاجئونهم.

ومع ذلك يتعين القول بأنه لا يزال يوجد فى فرنسا مسحورون بمصر على الطراز القديم، وهم الذين يأخذون الوقت للعيش فى مصر، وللاختلاط بالمصريين، وهم أولئك الذين أصبحت مصر سبب وجودهم ولا مجرد أداة لكسب عيشهم. والأمر يتعلق بعلماء مصريات ممتازين، وهم ورثة شامبليون وماربيت مثل جان لوكلان Jean Leclan، وجان فيليب لوويه Jean - Philippe Lauer وكريستيان ديروش نوبلكور Christiane Desroches Noblecourt، وجان إيف أمبيرور Jean - Yves Empereur، ونيكولا جريمال Nicolas Grimal وتلاميذهم الذين يعملون تحت شمس مصر الحارقة، وهم كذلك كُتّاب ممتازون بدءًا من جون لاكوتور Jean Lacouture وحتى روبير سوليه Robert Solé مرورًا بجاك لاكاريير Jacques Lacarriere وجيلبار سينوويه Gilbert Sinoué، وكذلك مدرسون وباحثون ممتازون من جاك بيرك Jacques Berque حتى أندريه ريمون André Raymond مرورًا بشارل فيال Charles Vial وبرونو ايتيان Bruno Etienne، وهنرى لورانس Henry Laurence، وفيليب رينيه Philippe Régnier، وجان بيير بارتولى ean - Pierre Bartoli لوجان مارسيل همبرت Jean Marcel Humbert وآخرون وغيرهم. وهم جميعًا - كل فى مجاله - خلاصة هذه القرون من الولع بمصر فى فرنسا، ويتميزون بأنهم يحملون سلاح المعرفة والحب لمصر، ولديهم أيضًا يقين بالوجود والعمل فى نوع من الخط المستقيم أو فى تتابع جد قديم يبحث عنه الجمهور.

والمثير للدهشة هو أن السحر بمصر يقتصر - فى يومنا هذا - على مجالين: مجال علم المصريات باهتمام متزايد بالإسكندرية، ومجال الرواية لا الأدب. وتغيب اليوم باقى الأنواع الأدبية والفنية التى صنعت مجد الميل إلى مصر مثل قصص الرحلات، والتصوير المقترن بنصوص أدبية، والشعر المستوحى من الأساطير المصرية، وأخيرًا الموسيقى والسينما.

يغيب هذان الفنان عن مجال الولع بمصر فى فرنسا؛ إذ يستلزمان ما أطلقت عليه فى بداية الفصل "ضرورة أن يكون الشخص مسكونًا" أى ضرورة دخوله فى علاقة خيال مع مصر، وهذا للأسف ما لا تسمح الوسائل التقنية المتقدمة فى يومنا هذا القيام به.

وبالإضافة إلى هذا السحر الفكرى هناك حمى سياحية فرنسية، فحوالى ٣٠٠,٠٠٠ فرنسى يزورون مصر كل عام، ويتوقع الخبراء تضاعف الرقم من الآن

وحتى ٢٠٠٥، وبتعبير آخر سيعيش حوالى نصف مليون فرنسى سحرهم بمصر على أرض الواقع بين معبدين ومتحفين بصورة سريعة، ولكن ملموسة.

وهذه الظاهرة من حب مصر على طراز الوجبات السريعة يهدد بتراجع متزايد - من الدخل - لهذه المودة، وبالتالى يؤدى إلى إفساد العنصر الخلاق لتفكر عميق مغروس عن طريق أعمال كبيرة ولحظات عظيمة صنعت مجد هذا التعانق الفرنسى - المصرى بصفة خاصة خلال القرنين الماضيين.

خاتمة

هكذا تنتهى رحلتنا فى تاريخ هذا الولع، ويتعين الإضافة بأن أبسط اكتشاف أثرى فى مصر اليوم - كما كان الحال دائمًا - يبهرنا ويزج بنا فى واقع متغير دائمًا ؛ فلم يكف الفراعنة قط عن غزونا.

وفى فرنسا نشأت قوة المشاعر تجاه مصر من تفكر سياسى ولدته الحروب الصليبية من ناحية وروح التنوير من ناحية أخرى.

واستمرت هذه الحركة عدة قرون، ولم تقترن بعمل عسكرى إلا مرتين: عام ١٢٥٠ مع القديس لويس وعام ١٧٩٨ مع بونابرت.

ويظهر فى الفترة التى تفصل بين هذين التاريخين - الانتقال من التفكر السياسى إلى السحر العام - تطور الفكر السياسى الفرنسى إزاء مصر، والذى أدى إلى سلسلة من مشروعات الغزو من جهة وإلى ظهور مهنة "القنصل"، وكانت هذه المهنة بالفعل غطاء سياسيًا ممنوحًا لمندوبى الوكالات التجارية الأجنبية فى حيز متوسطى حكم عليه بالعيش على تجارة العواطف وعلى العيش أيضًا من عشق التجارة.

وما بين القرنين السابع عشر والثامن عشر كان مشروع الفيلسوف الألمانى ليبنتز ومهمة "التجسس" أو "الاكتشاف" التى قام بها البارون توت أهم علامتين لتحول الفكر السياسى إلى انجذاب قوى فى عهد النظام القديم، وهكذا كانت أعمال التنوير فى أدب فولتير وموسيقى رامو أول علامتين لولع فنى ونوع من همزة الوصل بين المشروع الدينى لعام ١٢٥٠ والمشروع العلمانى لعام ١٧٩٨ . أما همزة الوصل الفنية والثقافية والروحية فتمثلت بصورة غريبة فى نجاح المشروع المناصر لمصر فى الخيال الجمعى الفرنسى، بينما انتهت الحملتان بهزيمتين محققتين.

وفى القرن التاسع عشر أعطى السان سيمونيون من جهة والحركة الرومانسية من جهة أخرى دفعة جديدة للحماية التى كانت تمارسها مصر على فرنسا.

وبفضل جهود القرن التاسع عشر وثورته فى مجال المواصلات تحولت النظرة لمصر إلى رغبة قوية لتغيير العالم وتحويله إلى ما نطلق عليه اليوم "القرية الكونية".

ولا تمثل هذه الحماسة فى الخيال الفرنسى ثمرة أية إعجاب بحضارة عظيمة، ولكن ثمرة ردة وراثية وميراث لقرون طويلة فى اللاوعى الشعبى؛ فمصر مرتبطة ارتباطًا عميقًا بالموروث الدينى لهذا الشعب وبزهوه العسكرى وبقدراته العلمية.

وخلقت الأسس اليونانية اليهودية المسيحية للحضارة الفرنسية صلة نسب مع وادى النيل، ويعد هذا النسب أمرًا واقعًا، أما الولع فهو إعادة ابتكار أبدية، ولهذا فإن شاتوبريان لم يخصص لبحثه "النسبى" عن مصر سوى أربعين صفحة، بينما خصص كل من نرفال وفيلسيان دافيد وديليسبس لهذا البحث أهم أعمالهم، وهناك آخرون مثل شامبليون وجان فيليب لووير خصصوا لهذا البحث وجودهم بأسره.

ومنذ أصبح من الأمور العادية النفاذ إلى معرفة الحضارة المصرية، وأصبح النفاذ إلى المعرفة ممكنًا بفضل الثورة الإلكترونية العظيمة، فإن هذا التناول للفكر الذى تحول إلى مؤسسة حتى أصبح مهمة مربحة لا تحتاج إلى شهادة، ويمكن التعامل فيها عن طريق لوحة مفاتيح الحاسوب وأقراصه المضغوطة وأقراصه المرنة.

وهنا نجد غالبًا مصر وقد تحولت إلى حيز يجدر استغلال ثرواته الثقافية بكل قوة.

وتظهر بعض العادات الحديثة التى تخص بعض المتاحف أن هذا الانجذاب الروحى النبيل يغير مساره حتى يصل إلى مركنتيليه (*) قريبة من الحالة المرضية.

ونأمل أن حب مصر المتعاظم سيشكل المضاد الفعال للسموم.

(*) نظام اقتصادى نشأ فى أوروبا خلال تفسخ الإقطاعية لتعزيز ثروة الدولة بتنظيم الاقتصاد واعتبار المعادن الثمينة ثروة الدولة الأساسية (المترجمة).

الهوامش

(١) Gérard Galtier, "La Maçonnerie Egyptienne, Rose Croix et Néochevalerie ou les fils de Cagliostro" éd. du Rocher, Paris, 1989, P. 21.

(٢) Jean Mallinger, "Les Origines Egyptiennes de Usages et Symboles Maçonniques", éd. Imprimerie F. Planquart. Lille, 1978, p. 23.

(٣) Le livre de la Bibliothèque Nationale, daté de 1787 et intitulé: "Confessions du Comte de Cagliostro", fournit peu d'informations sur son enfance et ses parents. Voir le microfilm n14710712 à la B.N.

(٤) Gérard Galtier, op. cit., p. 77.

(٥) Ibid., p. 79.

(٦) Jean Mallinger, op. cit., p. 24.

(٧) Gérard de Nerval, "Oeuvres" (Les Filles du Feu, Isis), éd. Classique Garnier, Paris, 1986, pp. 652 - 653.

(٨) Gérard Galtier, op. cit., p. 149.

(٩) Ibid., pp. 149 - 150.

(١٠) Voir: "Cent ans du Canal de Suez", R. E. B, DUFF., pp. 19 - 22; éd Maritimes et d'Outre-Mer, Rennes, 1971; et "Moi, Ferdinand de Lesseps" de Alex de Lesseps, éd. Olivier Orban, Paris, 1985, pp.53-54.

(١١) Alex de Lesseps, op. cit., p. 55.

(١٢) Ibid., p. 23.

(١٣) Ibid., p. 70.

(١٤) Ibid., p. 83.

(١٥) Ibid., p. 94.

(١٦) Bertrand Lemoine "La Statue de la Liberté" éd. Mardaga, Liège, 1986, p. 32.

(١٧) Ibid., p. 65.

قائمة بأسماء الأسطوانات المرتبطة بالموضوع

برليوز هيكتور Berlioz Hector :

قبل أن يؤلف برليوز غنائيته الشهيرة "موت كليوباترا"، كان قد ألّف غنائية أخرى تحمل عنوان "ممر البحر الأحمر Le Passage de la Mer Rouge"، وهو عمل ألفه فى شبابه، ولكنه فقد لسوء الحظ، ومن ثم وردت مصر والشرق مرتين فى أعمال الملحن. ولنبدأ "بموت كليوباترا" التى نملك التسجيل لأفضل أداء لها للمغنية جانيه باكر Janet Baker بصحبة أوركسترا لندن السيمفونى، ونجد أيضاً على نفس هذا التسجيل توزيعاً جيداً "لليالى الصيف"، ويوجد إصدار آخر لنفس العمل تغنيه المغنية نفسها لدى استوديو إيمى EMI Studio .

والعمل الاستشراقى الثانى لبرليوز هو "الأسيرة"، وهو مأخوذ عن "شرقيات" لفيكتور هوجو، وأفضل تسجيلاته هو تسجيل كولان دافيس Colin Davis بمصاحبة أوركسترا لندن السيمفونى، إصدارات فيليبس مجموعة الكنوز الكلاسيكية رقم ٦٥٠٠٠٠٩ Thésors Classiques .

وأخيراً فى "طفولة المسيح"، يتعين القول بأن الفقرة المعنونة "الهروب لمصر" لا تتضمن سوى جملتين صغيرتين تمران بصورة شبه غير مدركة، وهما مستوحيان من الشرق.

دافيد فيليسيان David Félicien :

موسيقى فيلسيان دافيد غير معروفة اليوم تقريباً، ومع ذلك يبذل باحثون وناشرون جهوداً حثيثة لإخراج هذه الموسيقى إلى النور.

ومن كل أعمال فيلسيان دافيد لا يملك راديو فرنسا سوى مقتطفات من "لؤلؤة البرازيل" وثلاث مقتطفات من "الصحراء"، وكذلك تقرير جان بيير بارتولى؛ فقد سجلها كل من راديو فرنسا ومحطة فرنسا الثقافية فى ٢٩ أبريل ١٩٧٠

ومع ذلك لم نجد فى أرشيف راديو فرنسا إلا تسجيلاً واحداً "لتبجيل الله La glori-fication d'Allah" ، وهو تسجيل سيئ، مدته ست دقائق.

ومن ناحية أخرى هناك ست مقطوعات لدافيد تم تسجيلها على أسطوانات، ولكن النسخ نفدت للأسف.

١ - "دائرة السان سيمونيين".

٢ - "الحدايات".

٣ - "المحيط".

٤ - حزن جارية الحريم.

٥ - العصفور الرائع.

٦ - الراين الألمانى.

وبالنسبة للصحراء فلدينا تسجيل جميل للحفل المذاع على قنوات راديو فرنسا فى الحادى والثلاثين من يناير ١٩٨٥، أداء أوركسترا مونبيليه ولانجدوك روسيلون، بقيادة سيريل ديدريتش، بقصر مهرجان كان.

دوكاس بول Dukas Paul :

تشكل كل من لا بيرى "La Péri" و"مطلق الجن وبوليوكت "L'Apprenti Sorcier et Polyeucte" ، مجموعة من روائع أعمال لا تتمتع اليوم بأية شهرة. و"لا بيرى" - المستوحى من مصر - هو فى واقع الأمر لوحة مصرية فارسية أكثر تعبيراً عن "لا بيرى" الذى ألفه برجمولر Burgmuller أو الذى ألفه تشومان Schumman وهناك تسجيل حى من روبرتو بينزى Roberto Benzi وأوركسترا بوردو أكيتان، مجموعة فورلان ديجيتال Forlane Digital AD45 ISM 6545 .

جريترى أندريه – مودست Gretry André Modeste :

ظلت "قافلة القاهرة" فى طى النسيان لفترة طويلة، ولم يظهر التسجيل العالمى الأول لأوبرا جريترى بقيادة مارك مينكوسكى إلا فى أكتوبر ١٩٩١، وهو على أسطوانتين مدمجتين وكتيب من ١٢٠ صفحة.

ماسينيه جول Massenet Gules :

تم إجراء عدة تسجيلات "لتاييس"، ولكن أفضلها تسجيل حديث عزف فى ١٩٧٦ لدى أيمى مع بيفرلى سيلس Beverly Sills، وشيرلى ميلنس Cheryl Milens، وريشارفان آلاس Richar Van Allas بأوركسترا فيلارمونى الجديدة New Philarmony بقيادة لورين مازيل Lauran Mazel (مرجع الأسطوانة C,16702799A801) .

رامو جان – فيليب Remeau Jean Philippe :

فى أوبراه الشهيرة "الهند اللطيفة Les Indes Galantes"، تم تسجيل مقطوعة "المصرية" ضمن مقطوعات أخرى بقيادة جان بيير دوتيل Jean - Pierre Dautel مع أوركسترا كان Caen، إصدار كاليوب Calliope، رمز CAL, 9838 ADD .

وقد تم تسجيل هذا العمل أيضًا عام ١٩٧٥ مع أوركسترا دى شمبر، بقيادة المايسترو ج. ب. بيار J. P. Paillard، لدى إيراتو (مرجع الأسطوانة: STV850) .

وبالنسبة لعمل راموز الآخر "زرادشت Zorocastre"، فقد تم تسجيله بقيادة سيجيسرالد كويجكس لدى دوتش هارمونيا موندى Deutch Harmonia Mundi عام ١٩٨٣ (مرجع الأسطوانة: HN 1999, 815).

كما ألف رامو عام ٧٤٧١ أيضًا الباليه الجميل: "أعياد النشيد والحب Les Fêtes de l'Hymne et de l'Amour"، وتحمل كعنوان فرعى "آلهة مصر Les Dieux de l'Egypte" وتتكون من ثلاثة فصول: "أوزوريس" و"كانوب" و"إيزيس"، وقد تم تقديم هذا الباليه آخر مرة فى ١٩٥٤ بأوبرا باريس.

ريخه أنطونين Reicha Antonin :

لم يتم تقديم لحنه "عبادى أو الفرنسيون فى مصر" أو تسجيله مطلقًا.

سان -ساينس كاميل Saint Saens Camille :

إن الكونشرتو رقم ٥ الخاص به والمسمى "المصرى" تم تسجيله عدة مرات، ولكننا نرى أن أفضل أداء كان لسيكولينى لدى إصدارات أيمى.

ملحق ١

مذكرة عن غزو مصر

قدمها : ليبنتز

مذكرة عن غزو مصر

قدمها : ليبنتز

مأخوذة عن جريدة الأندبندنت العدد الصادر أول مارس ١٨٤٢

فى عام ١٦٧١ عندما أعرب لويس الرابع عشر عن رغبته فى غزو هولندا استشعر أمراء الإمبراطورية الخطر إزاء العواقب الوخيمة التى يمكن أن تؤثر على دولهم من جراء خطط الغزو تلك وذلك الموقف العدائى، وكان حاكم مقاطعة ماينس "فيليب دى شوينبورن" - الذى أصبح محل سخط الملك بعد أن كان حليفه - أول من استشعر الخطر، وسعى إلى إيجاد سبيل لتفادى هذا الإعصار القادم. وقد نجح البارون دى بوانبورج Boinebourg وزير دى شوينبورن ومستشاره فى إيجاد هذا السبيل وتقديمه له؛ فقد كان الوزير يرتبط بعلاقات صداقة وثيقة مع ليبنتز. وعلى الرغم من أن ليبنتز لم يكن يبلغ من العمر آنذاك سوى خمسة وعشرين عامًا، فإن ذكاءه الحاد الذى كان ينفذ بقوة عبر كل العلوم الإنسانية كان قد اتجه نحو السياسة بعد أن ألقى نظرة ثاقبة على العلوم التجريبية. وكان ليبنتز قد أعد مشروعًا لنوع من الحروب الصليبية الجديدة ضد الشرق تتفق واحتياجات الحضارة الحديثة، وتلعب فيها فرنسا دورًا نشطًا، ونظرًا لمواءمة الظروف لتنفيذ المشروع فقد أطلع ليبنتز بوينبورج على المشروع فعرفه الأمير، وكان المشروع يخدم بطريقة ممتازة أهداف الأمير فتلقاه وأرسله إلى ملك فرنسا بالطرق الرسمية والدبلوماسية، ولكن خوفًا من عدم بلوغ هدفه المباشر والفورى من وراء المشروع إذا ما رفض الملك الاقتراح، آثر الأمير التحفظ الشديد، وأرسل له الخطوط العريضة فقط للمشروع محتفظًا لنفسه بالتفاصيل.

وكلف ليبنتز بكتابة مذكرة أولى باللغتين الفرنسية واللاتينية وجهت إلى لويس الرابع عشر، وفى هذه المذكرة ثنى الأمير ملك فرنسا عن غزوه لهولندا، وأظهر له -

بطريقة تتواءم مع روح العظمة وحب المجد اللذين كان يتسم بهما - إمكانية تحقيق فتح أعظم كفيل بأن يلحق بحكمه وبمستقبل فرنسا سلطة بلا حدود وشهرة أبدية. بيد أنه لم يكشف للملك عن موضوع الغزو المحدد وسبل تنفيذه، واكتفى كاتب الوصية برفعها مبدئيًا للملك، واحتفظ لنفسه - إذا ما لاقى استحسان الملك - بحق تقديم التفاصيل المطلوبة وإثبات يسر تنفيذه، وبينما استمرت المفاوضات وانتظرت نتائجها فى ماينس، فصل لويس الرابع عشر فى المسألة بزحفه نحو هولندا، وهكذا صدق حدس الأمير، ولم يجد ليبنتز ضرورة من إضافة أية تفاصيل لمشروع أصبح هدفه الأساسى مستحيلاً. ومن جهة أخرى تسببت الوفاة المفاجئة لكل من البارون دى بوانبورج والأمير فيليب دى شوينبورن فى ديسمبر ١٦٧٢ ثم فبراير ١٦٧٣ فى ضياع أمل ليبنتز فى إمكانية سماعه، وذلك لحرمانه دفعة واحدة من وسيطية القويين.

وفى دراسة قيمة أعدها العالم الألمانى الدكتور جوهراور Guhrauer - سنعود إليها لاحقًا - أكد فيها كثيرًا على نقطة أن ليبنتز التزم بألا يقدم للملك سوى معلومات غير واضحة تتمثل فى مجرد خطوط عريضة. ومع ذلك فقد كان هناك هدفان سعى هذا العبقرى إلى تحقيقهما من وراء المشروع: الهدف الأول يتمثل فى خدمة مصالح دوقية شوينبورن بتحييد أنشطة لويس الرابع عشر الخطرة، وذلك بتقديم فريسة له فى بلاد بعيدة، وكان هذا الهدف وقتيًا، وأدى قرار الملك المفاجئ إلى القضاء عليه، ولكن كان هناك هدف آخر أهم وأخطر وهو مزج مصير هاتين الحضارتين، وذلك عن طريق اتصال بين الشرق والغرب. وهذا الهدف الثانى، ظل فى خاطره لزمن طويل وعمل على تحقيقه بحماس مشروع منذ شبابه وحتى بلغ عمرًا متقدمًا بنفس القدر من الجد والتفضيل. وما يثبت ذلك هو وجود مذكرة ثانية أكبر من الأولى ومكتوبة باللغة الفرنسية فى صورة خطاب موجه إلى لويس الرابع عشر ومتضمن موضوع الحملة وسبلها بطريقة محددة، ويبدو أن السيد جوهراور كان يجهلها ونشرها هوفمانز Hoffmanns عام ١٨٤٠ [1]. والحق أن نص الخطاب المنشور - وكان يحتوى على أخطاء إملائية - لا يتضمن تاريخ نشر ولا اسم دار النشر أو أية معلومات لازمة للحكم على صحة ومصداقية أى مطبوع.

ومع ذلك فهذا الخطاب موجود، ويحمل فى فحواه أدلة دامغة تثبت مطابقته لفكر ليبنتز، ولم يستطع السيد جوهراور أبدًا إثبات أنه لم يكن ضمن المذكرات التى تسلمها

السيد دى بومبون Pomponne وزير لويس الرابع عشر، وأصدر إيصالاً بتسلمها فى بوانبورج؛ ففى برقية له فى ٢١ يونيو ١٦٧٢ يقول بومبون: "لن أقول لك شيئًا عن مشروعات حرب مقدسة؛ لأنك تعلم أن هذه الحروب لا توافق ذوق العصر منذ عهد *القديس لويس*".

على أية حال، يبدو أن هذه الوثيقة لم تكن موجودة بأرشيف وزارة الخارجية؛ حيث وجد جوهراور المستندات المماثلة الأخرى التى نشرها.

وهناك أيضًا أمر مؤكد، وهو أن ليبنتز لم يتوقف عند هذه الرسالة أو المذكرة؛ فمن بين أوراق هذا الرجل العظيم التى تم اكتشافها بعد وفاته، وجد فى مكتبة هانوفر مذكرة ثالثة مكتوبة باللغة اللاتينية ومكونة من تقارير فى شكل فصول تتناول موضوع الحملة نفسه إلى مصر، وفصل فيها ليبنتز أفكاره بدقة وتوسع أكثر من المذكرتين السابقتين.

وتلك هى المذكرة التى سنقدمها لقرائنا، ويرى السيد جوهراور أن هذه المذكرة لم تحظ بشهرة فى ألمانيا إلا فى حوالى عام ١٧٩٧ . واعتبارًا من هذا التاريخ بدأ الموضوع يشغل تباعًا بال الناس فى أوروبا، ولا سيما فى عام ١٨٠٣ عندما نشرت الحكومة البريطانية – التى لم تكن تدخر جهدًا فى سب نابليون والحط من شأنه – نشرة اختفت اليوم من فرنسا قدمت فيها نابليون فى صورة سارق دنىء قام بنقل معطيات ليبنتز لغزو مصر.

ومع ذلك ففى نفس هذا التاريخ كان مخطوط هانوفر لا يزال موجودًا فى مكتبة المدينة، وفى هذه الحقبة تم إرساله لنابليون بوصفه اكتشافًا، وهذا ما يثبته الخطاب التالى المحفوظ أصله فى مكتبة معهد فرنسا، ونصه: "القوات المسلحة بهانوفر فى ١١ ترميدور السنة الحادية عشرة من الجمهورية. إدوار موريتيه، القائد العام إلى القنصل الأول.

– سيدى الجنرال، كان ليبنتز الشهير قد اقترح على لويس الرابع عشر غزو مصر ومذكرته – التى تأخذ شكل مخطوط – حول هذه البقعة المهمة من الأرض موجودة بمكتبة هانوفر، وأعتقد أنكم ستهتمون بقراءتها.

وتفضلوا بقبول – سيدى القائد – أسمى آيات الاحترام والإخلاص. التوقيع: إدوار موريتيه.

وكان الخطاب مشفوعًا بمخطوط تنشر اليوم لأول مرة ترجمة فرنسية كاملة له.

وهذا المخطوط الذى يضم أفكار ليبنتز الرئيسية يتكون من ٥٩ صفحة من القطع الصغير مرقمة ومكتوبة باللغة اللاتينية بحروف فرنسية وبخط يد واضح أنها ألمانية، وهناك حدث جدير بالملاحظة، هو أن هذا المخطوط كان حتى عام ١٨١٥ بين يدى مونج، أحد أقدم كاتمى أسرار نابليون، والذى لم يكن فحسب - كما نعرف - القائد العلمى للحملة على مصر، بل أحد القيادات العسكرية أيضًا؛ فبعد أحداث المائة يوم وانسحاب نابليون نهائيًا من مسرح الأحداث، أودع العضو الشهير لمعهد مصر المخطوط فى مكتبة بمعهدنا العلمى الكبير، ولدينا ما يثبت ذلك وهو نص إيصال الاستلام الذى سنقرأه، ويوجد أسفل خطاب موريتيه الذى نقلناه لتونا ونصه:

"أقر أنا الموقع أدناه - أمين مكتبة المعهد - بأن السيد مونج عضو المعهد قد سلمنى مخطوطًا لم ينشر لليبنتز، وذلك لإيداعه بالمكتبة" باريس - ٥ يوليو ١٨١٥ - شارل.

والمخطوط بالإضافة إلى وثيقتين أصليتين وبعض الوثائق الأخرى ذات الصلة لا تزال محفوظة بالمكتبة سالفة الذكر.

وفى عام ١٨٣٨ قدم السيد جوهراور أمام أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية بحثًا علميًا قيمًا عن هذه الوثائق، نشر فى دورية المعهد [٢] ومع تقرير للسيد مينييه الأمين الدائم للمعهد [٣]، وأخيراً فإن النص اللاتينى للمخطوط الموجود بعد بحث السيد جوهراور ضمن وثائق الإثبات ظهر مرة أخرى مع تعليقات موسعة فى كتاب خاص لهذا المؤلف [٤].

وجذبت هذه الإصدارات - رغم حصرها داخل دائرة علمية ضيقة - الانتباه مرة أخرى حول عمل ليبنتز المهم، ومنذ ذلك الحين ذاع صيته فى الصحافة وحلقات البحث، ويتعين فى يومنا هذا أن يحفظ هذا العمل فى أرشيفات تاريخنا السياسى، ونعتقد بأننا نقوم بعمل نافع بتقديمه لكل من يهتم بمصالح بلادنا، وبكتابته للمرة الأولى بلغتنا.

وأما الأهمية التى يكتسبها الآن، رغم كتابته منذ أكثر من قرنين من الزمان، فإن الثناء الذى أطرى به أحد أهم ناشرينا مؤخراً يشرح أهمية هذا العمل.

"فى عهد لويس الرابع عشر، وجه ليبنتز العظيم - الذى كان عقله يستوعب الأمور كافة - إلى العاهل الفرنسى مذكرة تعد واحدة من أجمل تحف الفكر والفصاحة السياسية؛ فقد أراد لويس الرابع عشر غزو هولندا من أجل بضع ميداليات.

وقال له ليبنتز:

مولاى: لن تستطيعوا هزيمة هؤلاء الجمهوريين بغزو هولندا، فلن تتمكنوا من عبور سدودهم، وسوف تضعون كل أوروبا فى صفهم، والحق أنه يتعين ضربهم فى مصر؛ فهناك ستجدون طريق تجارة الهند الحقيقى، وسوف تأخذون هذه التجارة من الهولنديين، وتؤكدون بذلك على سيطرة فرنسا فى الشرق، وسوف تسعدون المسيحية وتملئون العالم دهشة وإعجاباً، وسوف تعجب بكم أوروبا أيما إعجاب دون أن تتحد ضدكم (٥)".

الفصل الأول

مشروع غزو مصر

يعد هذا المشروع واحداً من أكبر المشاريع التى يمكن القيام بها، وأكثرها يسراً، وأخلاها من المخاطر حتى وإن فشل، وذلك لمناسبته للظروف الحالية حتى لنظن أن هذه الظروف قد دبرته، وسيصل هذا المشروع بالناس إلى ذروة الإعجاب بما يسمى "سر المعجزة"؛ أى هذه الحكمة العميقة للرؤى السياسية التى تتلاقى فيه، وسوف يرسخ هذا المشروع بصورة مؤكدة السيادة فى البحر والتجارة، ولا يتطلب أية موارد سوى التجهيزات البسيطة المعدة سلفًا (٦)، كما سوف يكسب الملك التعاطف الدولى بإزالة الشكوك تجاهه وإنهاء العداوات، كما سيحقق له الهيمنة على الأعمال والسيادة العليا على شئون المسيحية، وسيمهد الطريق لخلود الملك نفسه ليحقق فتوحات جديرة بالإسكندر، وسوف لا يكون هناك مجال للندم على التأخير إذا ما أحسنا استغلال الفرصة.

الفصل الثانى

نبذة تاريخية عن المشروع

هذا المشروع - الذى نسى بفعل الزمن - استهوى فى الماضى العظماء والحكماء بوصفه الأداة الوحيدة لإعادة إرساء مصالح المسيحية فى الشرق.

وظهرت فكرته الأولى على يد أسير؛ فعندما نزل الملك فيليب ملك فرنسا وريتشارد ملك إنجلترا إلى الأرض المقدسة واحتلا عكا جاء أحد السجناء العرب الذى يصفه المؤرخون بالملهم، وأعتبره أنا رجلاً حكيماً، ويدعى كاراكوس للقاء الملك فيليب. وعندما سأله الملك عن رأيه فى الحرب، رد عليه بالتنبؤ بفشل كل الحملات المسيحية إلى فلسطين، طالما لم يتم القضاء على مملكة مصر، واستهوت هذه الفكرة الملك فيليب حتى أراد توجيه جيوشه على الفور نحو مصر، ولكن ريتشارد الذى كان يحلم بالاستيلاء على مملكة القدس رفض ذلك، وضاق فيليب من موقفه، وعاد إلى حدود مملكته. وبعد فشل جهود ريتشارد عاد إلى مشروع السيطرة على مصر، ولكنه مات قبل تنفيذه، ثم تم بحث المشروع مرة أخرى عندما دعا البابا انيوسنت الثالث مجمع لاتران Latran للانعقاد. وبعد بدايات مبشرة انهزم المسيحيون الذين كانوا لا يسمعون إلا لصوت واحد ولا يمتثلون إلا لإرادة واحدة، ولم يكونوا يخضعون بصورة كافية لزعيمهم الكاردينال بيلاج Pélage . وعزم القديس لويس بفضل قوى متواضعة - إذا ما قورنت بالموارد الحالية لفرنسا - على تنفيذ الوصية التى تلقاها سلفه من الأسير، واستولى على دمياط بعد حصار ناجح، ولكنه - كما أخذ على باروناته الذين تركهم فى فرنسا - توغل داخل الأراضى قبل التحقق من استحواذه على البحر والنهر، مما أدى إلى حصار الفرنسيين وهزيمتهم وحصارهم. وإذا كانوا قد اكتفوا باحتلال الساحل ثم استقدموا قوات جديدة لكان من السهل عليهم احتلال باقى الأراضى، وأنست حروب المنافسة بين فرنسا وإنجلترا المسيحيين هذه الاهتمامات، بالرغم من مطالبة ملك أرمينيا ليون Léon وكذلك ملك التتار كاسان Cassan لهم بغزو مصر، وبالرغم من المثال الذى أعطاه بيير Pierre ملك قبرص الذى احتل مصر بسرعة، بفضل مساندة فرنسا وفينسيا له، ولكن عندما أصبح وحده مسئولاً عن البلاد لم يستطع الحفاظ على هذه الغنيمة الثمينة.

ومنذ ذلك الحين لم يتم الحديث عن مشروعنا العظيم إلا مرة واحدة، بواسطة الكاردينال فرنسيسكو اكزيمينس Francisco Ximines مطران طليطلة وحاكم إسبانيا، الذى نجح فى جمع ثلاثة من أكثر الحكام استنارة للتوقيع على معاهدة للتحالف لغزو مصر، وهؤلاء الحكام هم : فرديناند حاكم قشتالة، وإيمانويل ملك البرتغال، وهنرى السادس ملك إنجلترا، ولكن وفاة فرديناند التى أدت إلى ضم إسبانيا إلى العرش النمساوى أضرت بهذا الوفاق، وأظهر التنافس الذى أعقبه بين هاتين القوتين العظميين أفكارًا جد مختلفة. ويثبت رأى مثل هؤلاء الحكام على الأقل كيف ما تتسم به هذه المشروعات من انعدام الجدوى والخيال، وهذا ما تشهد به هذه الكلمات التى كتبها إيمانويل: "تتجلى فى هذا المشروع إرادة الرب بطريقة خاصة، فلنعقد عليه آمالنا؛ لأن هذا المشروع من العظمة بمكان حتى يستحيل أن يحظى تحت الشمس بمجد أكبر من الحياة والموت من أجل تحقيقه".

ولست أدرى إذا ما كانت نفس الحقائق موجودة حتى الآن، وإذا ما كانت قد اكتسبت درجة أكبر من الدقة اليوم بينما لم تعد مصر بنفس المناعة، ولم تعد مركز الخلافة العثمانية، ولكن مجرد إقليم فيها، كما أننى لست أدرى إذا ما كان الملك سيحقق وحده بهذا الفتح بصورة أفضل مما لو قام به الملوك الثلاثة مجتمعين ولا سيما مع وجود البرتغاليين فى البحر الأحمر.

الفصل الثالث

مصر اضطلعت دائمًا بدور كبير فى مصالح الجنس البشرى

تتمتع مصر بنفس قدر الصين أو تتمتع الصين بنفس قدر مصر. إنها أم العلوم وثمار الأرض ومعجزات الطبيعة والفنون؛ ففى هذه البقعة من الأرض أراد الإسكندر بناء إمبراطوريته وعين الإسكندرية التى بناها مكانًا لقبره. وعندما انهزم بومبى حاول أن يجمع بها قواته، إلا أن أغسطس قاهر أنطونيو أخضعه لقواته؛ فقد كان يريد أن ينشئ فيها محمية له ولمجلس الشيوخ. ومنع أعضاء مجلس الشيوخ والفرسان الرومان التوجه إليها دون علمه. أما نيرون، فعندما خانه التوفيق ورأى الإمبراطورية تنفلت من بين يديه طلب من مجلس الشيوخ ولاية مصر التى ظلت مخزن غلال روما، وظلت مبهجة ومخلصة لروما حتى وقعت بين يدى الخليفة العربى عمر.

ومنذ ذلك التاريخ، تقدم العرب - الذين نبغوا فى هذا المضمار - عن طريق البحر عبر آسيا وأفريقيا وحتى أوروبا، وهنا بسطوا سلطتهم فى إيطاليا وإسبانيا واليونان حتى إنهم حققوا ما حققه الفرنسيون والنورمانديون فى أوروبا والصليبيون فى الشرق. بيد أن خلافاتهم الداخلية وضعت النهاية لغزواتهم. ومع ذلك ظلوا محتفظين بأرض مصر كملاذ، والمؤكد أن مصر كانت السبب الذى أدى بالمسيحيين إلى فقد الأراضى المقدسة، كما كانت المنقذ للمحمديين الذين لولا امتلاكهم إياها لاختفوا من على وجه الأرض.

الفصل الرابع

غزو مصر كان دومًا سهل المنال

استطاع قمبيز والإسكندر وقيصر وأغسطس وكذلك العرب غزو مصر دون أدنى عناء، وعندما نجح أمورى ملك القدس وهو على رأس قوات متواضعة من حصار القاهرة كان على وشك الاستيلاء على مصر بأسرها، ولكن رفع هذا الأمير العنيد الحصار عن هذه المدينة التى كادت تتحول إلى نذير شؤم له ولخلفه، كما أوشكت مصر على الوقوع تحت سيطرة الكاردينال بيلاج Pélage والقديس لويس، وأفلتت مصر بسبب عوائق علينا التغلب عليها اليوم مثل الانقسامات: فلا سبيل اليوم لغزو مصر بطريقة انفرادية، وكذلك عدم الحرص، والذى يتمثل فى التوغل داخل البلاد دون الاستيلاء على الساحل وتأمينه. وتحلى إيمانويل ملك البرتغال بقدر كبير من الشجاعة ليقوم وحده بتنفيذ هذا الغزو كما ثبت ذلك خطاباته التى أرسلها إلى اكزيمينس، وذلك فى زمن كانت مصر فيه أكثر حيوية وقوة؛ حيث كانت عاصمة المماليك ولذا دافعوا عنها، بينما اليوم يكره أهل البلاد الأتراك لنهبهم ثرواتها. وفى عصرنا هذا أراد عثمان سلطان الأتراك نقل عاصمة الإمبراطورية من القسطنطينية إلى القاهرة، ولكن الإنكشارية وقفت ضده وخنقته. ولقد أراد القدر ذلك حتى تظل القناة مفتوحة أمام المسيحيين حتى يتسنى لهم القضاء على الإمبراطورية التركية.

الفصل الخامس

جوهر المشروع

تعد الحملة على مصر وسيلة للسيطرة على المصالح العامة. إن جل مصالح الملك يمكن أن يضعها في مصر، وبالفعل يعتبر غزو مصر حقًا لفرنسا، لأن الادعاء بإقامة مملكة عالمية هنا هو محض وهم، بل محض إثم، وسيكون من قبيل العبث إقامتها في أوروبا مقابل ثمن باهظ من العنف والدم والقتل. أما هناك فستسيطر فرنسا على الأقدار وتحكم العالم وتسيطر على المسيحية لتضطلع بدور مهم في الكنيسة، وتتمتع بلقب الابن البكر مما يكسبها الحب العالمي واعتراف البابا نفسه. وفرنسا التي تجمع بين الشجاعة والعبقرية ستصبح بعد ذلك مدرسة أوروبا الحربية وسوقًا للمحيط والبحر المتوسط وسيدة تجارة الشرق. وأنا لا أتحدث عن لقب وحقوق إمبراطور الشرق التي كانت ملكًا لها كما يجب أن تبقى كذلك دومًا.

الفصل السادس

إن حربًا أوروبية ستمثل تصرفًا ينقصه التعقل

إن شن حرب في أوروبا سيهدد آمالاً عريضة، ولن يؤدي إلا إلى مغنم قليل، فبالفعل ما هي قيمة احتلال بعض مدن في بلجيكا أو الراين مقابل خلق الحواجز بين الشعوب وتصور عظمة كاذبة وسط قارة في حالة حرب ووسط ظلال من الخوف والكراهية تثيرونها؟ وكنتيجة لهذا النظام سوف نصل إلى ضيق مستمر، بل وإلى انهيار مؤكد للتجارة الفرنسية؛ لأن كل الأمم ستتضامن بغيه شل ازدهارها، وهذا ما سيؤدي إلى فقر مصادر الثروة العامة وتخبطها، ولكن على النقيض إذا ما تبنيتم المشروع المصري فسوف تتمتع أوروبا بالراحة وفرنسا بالازدهار المتزايد، حتى لو نظرنا إلى هذا الازدهار من منظور التجارة فقط، والتي تكلف - من سنة إلى أخرى - أكثر مما تعطي.

الفصل السابع

فى الوقت الحالى يعد فتح مصر أفضل من فتح أى بلد آخر

تضم أول برزخ فى العالم يربط بين أهم بحرين فى العالم، وتمثل الطريق الذى يتعين السير فيه، وإلا فالدوران حول أفريقيا كلها، وتعد همزة الوصل بين الغرب والشرق وملتقى التجارة والمرحلة اللازمة لتفريغ السفن لتجارة الهند وأوروبا ومركز الرصد البحرى للمناطق المجاورة، وهى البلد الوحيد المزدهر وسط الصحارى بفضل عدد سكانه الكبير وخصوبة أرضه الرائعة، كان فى الماضى مستودع غلال روما، واليوم أصبح مستودع غلال تركيا التى تأتى إليه لتأخذ منه الكتان والتيل ومؤن البحر والأرز والشراب ومنتجات أخرى كثيرة تمدها بها مصر وتقصرها عليها تقريباً. وكذلك إذا كان النقد التركى يخرج من أوروبا عن طريق التجارة؛ فالمؤكد أن ذلك يتم عن طريق مصر وحدها، ولذا كان القانون اللاهوتى يمنع فيما مضى أى تصدير للذهب والفضة لمسلمى مصر؛ لأنه كان يدرك أن هذا الابتزاز سوف ينتهى بإفلاس أوروبا.

والخلاصة أن مصر هى هولندا الشرق، كما أن فرنسا هى صين الغرب، بيد أن مصر تتفوق بثرواتها الطبيعية على هولندا كما تتفوق فرنسا على الصين؛ لأن مصر بلد يعتمد على نفسه ويزدهر منذ بداية التاريخ، أما هولندا فتدين بنموها إلى الراسب الرملى المجتمع عبر السنين بكد الشعب وحماسته الدينية ولا تستمر فى الحياة إلا بفضل غفلة الآخرين وانقساماتهم.

ويبلغ دخل مصر اليوم ٦ مليون (٧) سنوياً بالرغم من التدهور الذى تعانى منه تجارتها، والتى ترجع إلى جهل المسلمين وإهمالهم. ومدة ولاية الباشا ثلاث سنوات، ويتقاضى باشا القاهرة خلالها من ٣ إلى ٤ آلاف دويقة، ومع ذلك يحقق خلال هذه الفترة الزمنية الوجيزة ثروات طائلة، بالرغم من اضطراره إلى تقاسم الأموال مع السلطان. وبسبب إنتاج مصر الوفير حددت ولاية الباشا بثلاث سنوات فقط. بيد أن الموارد التى يجنيها السلطان اليوم من مصر لا تمثل شيئًا بالنسبة لما يمكن أن ينتجه هذا البلد فى ظل الإدارة الفرنسية، وذلك بالانضمام فقط إلى البرتغاليين لتصبح فرنسا بذلك سيدة تجارة الشرق التى هى الأكثر ربحًا فى الأرض، من سيجرؤ على التنافس معها باستخدام طريق رأس الرجاء الصالح، بينما تصل البضائع عبر مصر طازجة وفى وقت أقل!

وقد كانت مصر قبل اكتشاف العالم الجديد الطريق البحرى العظيم الذى حازت بفضله البندقية وجنوة بالإضافة إلى المدن الحرة فى ألمانيا على الازدهار، وأجبر طغيان الأتراك إلى البحث عن وسائل اتصال أخرى ليست بالضرورة أفضل ولكن لا غنى عنها؛ فإذا استطاعت فرنسا - التى بلغت مصانعها أو على وشك بلوغ قمة الصناعة الأوروبية - تحقيق احتكار توابل الشرق فأية أمة يمكنها التنازع معها حول المكانة العليا فى أسواق العالم وصولجان الثراء والقوة؟ ولكن كل هذا ليس سوى غيض من فيض؛ فقد ثبت أنه بغية إخضاع الهند الشرقية لإمبراطوريتهم لم ينقص البرتغاليون سوى الجيوش لقيادتها. وبفضل مفتاح مصر، فمقابل الألف جندى الذين كان يمكن أن ترسلهم البرتغال إلى الشرق يمكن لفرنسا إرسال عشرة آلاف، ولا يوجد وجه للمقارنة بين الجندى البرتغالى والفرنسى. وهكذا عن طريق هذا السبيل سيفتح مجال رحب للإنجازات العظيمة على نسق إنجازات الإسكندر؛ فيصل الإنجيل إلى أبعد الأصقاع، وتنتشر الغبطة المسيحية فى الأرض بأسرها. إن فتح مصر أيسر من فتح هولندا، وفتح الشرق كله أيسر من فتح ألمانيا وحدها، وسوف تتقاسم الأسرتان الحاكمتان فى فرنسا والنمسا حكم العالم فتأخذ الأولى الشرق والثانية الغرب، وتتخلص إيطاليا وألمانيا من الخوف من الأتراك، كما ينتهى تهديد المغاربة لشبه جزيرة أيبريا. وسيقوم هذا التحالف الصلب إلى الأبد، ويضمن للأسرتين الحاكمتين - وفقًا لرغباتهما - الهيمنة على العالم. وأخيرًا فقد احتل هذا الموضوع أهمية خاصة خلال المؤتمر الذى عقد مؤخرًا تحت سطح جبال البرانس وحضره وزراء حكماء لهاتين القوتين.

الفصل الثامن

سهولة نزول فرنسا إلى أرض مصر

علينا بتجهيز فرقة قوية، وإعداد كل شىء بطريقة تسمح للملك بإصدار أمره اليوم، بل هذا المساء أو غدًا صباحًا ويتم تنفيذه، على ألا يتم تسريب أى شىء عن الخطط المتفق عليها وألا يشك أحد فى الهدف الحقيقى من هذه الاستعدادات؛ فيكفى ٣٠,٠٠٠ رجل للقيام بهذه المهمة. وما كان لملك حذر مثل عمانويل ملك البرتغال أن يوجه مثل هذا العدد لتحقيق هذه الغاية، وسوف نخصص للحملة فائض قوات الدولة فقط، أى جزءًا فقط وليس الكل فى الوقت نفسه، أى العدد اللازم "لعملية الهجوم" إذا صح التعبير.

لقد حبت الطبيعة كلاً من مصر وهولندا بظروف مماثلة؛ فيلعب النيل هنا نفس دور الراين، ولكن ليس هناك مجال فيما يتعلق بالتحصينات؛ فالساحل المصرى مفتوح ذو مدخل يسير بالنسبة لرجالنا الخبراء فى فنون البحر، فإذا ما تم جمع السفن وتكوين الأساطيل سيجلب مجد العمل فى عملية من هذه النوعية أفواجًا من المتطوعين من كل البلاد. أما عن نقل المقاتلين بحرًا فإن ذلك يمتاز بأن التدريب وروح العسكرية والنظام تعد عناصر كفيلة بخفض أعداد المصابين بأمراض البحر أو حصرها فى حدود ضيقة يمكن السيطرة عليها بشكل جيد. وفيما يتعلق بأمراض البحر، فهى ليست ذات خطورة، وذلك لقرب المسافة، وإن النقل البرى قد أدى دائمًا إلى نتائج سيئة.

العبور السريع: عادة ما يتم قطع المسافة من مرسيليا إلى الإسكندرية فى ستة أسابيع وأحيانًا شهر واحد [٨]، وقد أصبح عبور البحر المتوسط بالنسبة للبحرية الفرنسية لعبة. ونادرًا ما نسمع الحديث عن كوارث ذات أهمية، وإذا ما وصلت إلى جزيرة كريت تكون قد قطعت ثلثى المسافة وتوفر مالطة – التابعة لفرنسا – محطة آمنة، وهناك أيضًا لامبيدوز Lampedouse إلا إذا فضل الملك إتمام العملية دفعة واحدة.

الفصل التاسع

تمتاز مصر بمناخ صحى بالنسبة للمسيحيين أكثر من المسلمين؛ لأن الطاعون التركى لا يصيب المسيحيين، وهذا ما استطعنا استخلاصه من العديد من كتب الرحلات التى تقول إن الإقامة فى مصر ممتعة للغاية، ولا سيما ماء النيل الذى يعد أكثر المياه الصالحة للشرب نقاء؛ فالنيل هو الطبيب الطبيعى لهذا البلد، والشخص الذى يبغى تطبيق القواعد المحمدية ويمتنع عن شرب الخمر لن ينفق سوى ثلاثة قروش . وفى شهر يونيو عندما يفيض النيل، يتفشى الطاعون (بسبب إهمال المسلمين؛ لأن هذا الوباء لم يكن معروفًا قديمًا)، ثم يختفى، ويدور الفيضان حتى شهر نوفمبر، وفى شهر ديسمبر ويناير وفبراير تستقى التربة، وعندما يبدأ العمل فى الأرض رغم الأمطار الخفيفة التى تسقط فى هذه الفترة، وفى شهرى أبريل ومايو تهب الرياح العامية، ومنذ أواخر شهر مايو وحتى منتصف يوليو ترتفع حرارة الجو، ويتعين تحين الفرصة بعد ذلك مباشرة لاقتحام الساحل بصورة أيسر، وربما كان من الأفضل اختيار فترة السيول والرياح إلا إذا فضلنا تنفيذ العمليات كلها دفعة واحدة.

الفصل العاشر

العناصر المكونة للجيش المصرى

يتكون الجيش المصرى من سبعة آلاف جندى سباهية أو ما يعرف بالفروسية الخفيفة وبضعة آلاف من رماة الرماح، وخمسة آلاف من جنود الانكشارية الحقيقيين؛ إذ إن عدداً كبيراً من فرق أخرى تحمل نفس الاسم، بالإضافة إلى أربعة آلاف عساب Asapes وهم نسخة مكررة [٩] من الجنود الانكشارية، ويتكون الجيش فى مجمله بما فيه القوات الرمزية والقوات تحت السلاح من ستة وثلاثين ألف رجل، وذلك بالإضافة إلى ميلشيات بكوات وزعماء بالعشائر والعربان من البدو الذين يمكن استيعابهم فى مؤخرة فرق النبلاء. ومن ثم يمكن أن يصل الإجمالى إلى مائة ألف رجل، ولكن الانكشارية – رغم قلة عددهم – يسيطرون على الفصائل الأخرى ويحتقرونها ويتمردون دون أن يوقع عليهم أى جزاء، وهذا ما يدل على مدى الضعف العام للبنيان العسكرى .. وعادة ما يكون الانكشارية وسلاح الفرسان على أهبة الاستعداد للتمرد وذبح كبار البكوات، بل والإجهاز على الباشوات أنفسهم .. وهذا السلوك يعد من الأمور المعتادة بالنسبة لهم، وللإيجاز يمكننا القطع بأن هذه الميلشيات فى مجملها تنقصها الحيوية. وبالفعل لم تر مصر منذ قرنين أى عدو، وترجع ثقة الأتراك أيضًا مما سنعرضه بعد قليل عن تحصيناتهم التى تنهار حاليًا. والحق أنه لا يوجد عساكر أضعف من الشرقيين وخاصة المصريين، وذلك بالرغم من مظاهر تفاخرهم العسكرى. وينطبق الحال على العرب والمغاربة الذين يعدون ألد أعداء الأتراك، وهؤلاء لا يستطيعون ردعهم كما تشهد بذلك أمثلة عديدة ذكرها شهود عيان. أما عرب الجزيرة المجاورون فهم مستعدون دائمًا لجميع أنواع التمرد والتلويح بالقوة عندما تسمح الظروف، وهذا ما أثبتته محاولاتهم الأخيرة، لكننا سنعود إلى هذا الموضوع عندما نتحدث عن حالات التمرد الداخلية فى تركيا وعن تمرد الجيش والانكشارية اللذين تحولا من وضع العسكر إلى وضع التجار.

الفصل الحادى عشر

التحصينات

وهى إما تحصينات بحرية أو من الأرض الصلبة وتقع التحصينات البحرية على شواطئ البحر المتوسط أو البحر الأحمر. ومن أهم التحصينات على البحر المتوسط نذكر الإسكندرية ورشيد ودمياط، ويوجد حصنان فى الإسكندرية يقعان فى الخلاء دون خندق أو دفاعات متقدمة وهما عاجزان عن المقاومة على المدى الطويل وغير مزودين بالماء العذب فى الداخل، ثم تأتى بعد ذلك رشيد عند مصب النيل، والحق أنه لم تعد لها أية أهمية كما تنقصها الدفاعات المتقدمة والخنادق، أما دمياط التى كبدت الصليبيين الكثير نجدها اليوم فقيرة ومدمرة، ونجد شمالى المدينة قلعة قديمة، ولكنها مجردة من الدفاعات، ولا يوجد بها سوى برج قديم، وعند مصب النيل أيضاً هناك بوغاز بالقرب من دمياط، وهذا البوغاز مربع الشكل ومحاط بأربعة أبراج مهدمة وخال من الأبواب، تلك هى الدفاعات الساحلية لمصر، وهى كما يبدو جلياً فى متناول فرنسا.

ونجد من الجهة الأخرى دفاعات البحر الأحمر مهملة، وتمتلك مصر ميناءين على هذا البحر هما السويس والقصير: والأول خال من الدفاعات سوى برج محصن مستدير الشكل يحتفظ فيه باثنين وعشرين مدفعاً. أما الميناء الشهير فى القصير فقد أضحى اليوم شديد الفقر. وبالنسبة لباقى الدفاعات فى زيبيه Zibbih وسواكن ومصوع بجنودها البالغ عددهم بضع مئات، ويعتبرون فريسة يسهل أسرها، وذلك إذا ما تحالفنا مع الأسطول البرتغالى الذى سيأتى لينضم إلينا عن طريق البحر الأحمر، وهناك مركز واحد داخل البلاد يجب الهجوم عليه، ومن المتوقع أن يظهر بعض المقاومة ومدينة القاهرة. ولا تملك المدينة أية دفاعات سوى مساحتها وعدد سكانها، والحق أن المدينة مهددة بالحرائق والمجاعات (لبعدها عن أية وسيلة اتصال صالحة ويسيرة تربطها بتركيا)، وأخيراً فإن حصاراً محكماً سيضطرهم فى النهاية إلى الاستسلام، وهذا النصر الأخير هو شىء أكيد. وإذا بمجرد السيطرة على السواحل ومصادرة التجارة ستموت القاهرة؛ لأنه على الرغم من أن مصر تصنع البارود فمدفعيتها محدودة، وحصن القاهرة لم يسمح قط بهدير أكثر من ثلاثين مدفعاً.

وقد قمنا بالفعل بدراسة حالة الدفاع فى سوريا بأسرها ولاسيما الساحل: دافنيه Daphné، ولوريس Lorisse، وكاثيلا Cathella، وعينون Enon، وكذلك مدخل فلسطين: غزة، وعسقلان، ويافا، وقلعة حيفا، وكذلك فى فينيقيا: عكا، وصور، وصيدا، وبيروت والجبل، وطرابلس. وفى كل مكان نجد تحصينات فقيرة، ومتهالكة، لا يعتنى بها، ولا تتمتع بحراسة قوية أو بلا حراسة نهائيًا.

ووفقًا للتقرير البحرى نجد مدينة الإسكندرونة فى سوريا تحتاج إلى بعض الاهتمام، ولكنها غير محصنة وملحق بها بعض المنازل الحجرية، ويوجد فيها بالقرب من البوغاز حصن من الطوب، ولكن دون دفاعات رغم أنه يقع فى طرف الساحل عند البحر.

ومن ثم نستطيع الفصل بأن كل الساحل المتوسطى فى قبضتنا. أما قبرص فهى بعيدة بعض الشىء، وقد أقام بها البنادقة أعمالاً بحرية عظيمة، وفى نيقوسيا وفاما غوستا انهارت الدفاعات بسبب إهمال الأتراك، والآن يتبقى من سوريا بأكملها مدينتان مهمتان وهما دمشق وحلب، وستلقيان نفس مصير مدن الساحل أو تنهار بانهيار تجارتها.

الفصل الثانى عشر

إذا ما تدخلت تركيا لنجدة مصر فإن ذلك لن يتم إلا متأخرًا وبكثير من العناء

بداية لن تشك تركيا أبدًا فى هدفنا الحقيقى من مصر، إلا إذا أفصحنا به نحن؛ فإذا ما رأت تركيا أسطولنا فى البحر فربما تخشى فقدان كريت أو جزر الدردنيل أو القسطنطينية. ثانيًا، إذا ما نزل الفرنسيون مصر، واحتلوا السواحل فلن يكون هناك أى علاج ممكن؛ لأنه اعتبارًا من تلك اللحظة ستكون السلطة ومقادير الأمور بين أيديهم.

أما بالنسبة للقاهرة وداخل البلاد، فإن المدد لا يمكن أن يصل إلا متأخرًا جدًا وبصعوبة بالغة، وذلك عن طريق البر لا البحر، مما يعنى ضرورة اجتياز الصحراء ؛ حيث يستطيع العرب البدو إغلاق الطريق على مائة ألف رجل بفرق متتابعة تضم عشرين ألف رجل، وهذا الطريق وعر ويصعب اجتيازه بسبب الرياح التى تحجب عنك البصر

برمالها، وخلال السنة لا يوجد سوى موسم واحد يمكن خلاله اجتياز الصحراء، وإن لم تمر خلاله اضطررت للانتظار حتى العام التالى.

ولن أتحدث عن إمكانية أخرى، وهى إمكانية الجيش المسيحى عند استيلائه على المناطق القريبة من سورية بالقرب من الإسكندرونة أن يقطع اتصالات سوريا وفلسطين مع آسيا الصغرى. وسيتخلى الجيش فى هذه الفرضية عن أطول الطرق وأوعرها الذى ستقطعه فارس بطريقة يسيرة؛ لأن الجيش التركى سيضطر لسحق أراضيه، وذلك لتجنب الصحراء والجبال، ولكن خلال هذه الفترة إذا ما انشغلت الميلشيات التركية فى أوروبا سواء فى المجر أو مع بولندا، سيكون أمام فرنسا الوقت للاستيلاء على مصر؛ فالحق أن تقدم الجيوش التركية إنما يتسم بالبطء الشديد ولا سيما فى المناطق الصحراوية ومثلما هو الحال بالنسبة لمعظم الأقاليم التابعة لهم، وذلك بالإضافة إلى مشكلات التموين من جهة والنقل البحرى من جهة أخرى، ولكن القوات التركية المتفرقة فى الأقطار الشرقية لا تملك القوة للدفاع عنها ضد الشيتيين الفرس والجورجيين. ولن تستطيع هذه القوات مقاومة كتيبة قوية لحماية مصر. ومن المحتمل أن تعانى تركيا من خسارة مزدوجة، من ناحية بفشلها إزاء مصر ومن ناحية أخرى بفقدها لبعض الأقاليم ذات الدفاعات السيئة. وهناك أخيراً مثال يمكن أن يثبت سهولة إغلاق مدخل مصر البرى أمام أعتى الأعداء؛ فبعد أن استولى تيمورلنك على سلطان الأتراك وأخضع آسيا بأكملها تقدم أمام أبواب بـ ١٢٠٠٠٠٠ رجل، ونجح ٣٠٠٠٠ مملوكى فقط فى هزيمته هزيمة مخزية.

الفصل الثالث عشر

انحطاط الإمبراطورية العثمانية

يعد انحطاط الإمبراطورية العثمانية أمراً ظاهراً حتى إن الجميع يعتقد ذلك. وأكثر ما تحتاج إليه هذه الإمبراطورية هى القوة البحرية لأنها تعوزها. ويهجرها السكان يوماً بعد يوم وتنهار تجارتها. والحق أن جسد الإمبراطورية يتنامى بشكل مبعثر، فآفة الإمبراطورية والسر الذى ينهش أحشاءها، والذى تحول إلى كارثة باتت تهددها أكثر من أى سبب خارجى آخر قد يضاف إليه هو أن الأتراك بطبيعتهم

عدوانيون ولذا فهم لا يمتلكون أية وسائل دفاعية، ومن هنا تأتى قوتهم وأهميتهم وتفوقهم، فلا شيء يمنعهم من وضع الموارد اللانهائية التى يمتلكونها ليهاجموا بطريقة ارتجالية، فقد اعتادوا منذ قرون طويلة الاعتقاد بأنه لا يوجد أى عدو بإمكانه تهديد جنبهم أو ظهرهم. ولعل القدر يثبت لهم قريبًا أن هذه الفكرة ليست إلا من قبيل الوهم! ولكن إذا ما أثرنا لهم متاعب جادة فى موقعين مختلفين فى آن واحد، فسيكون خرابهم محتومًا لا محالة. والحق أن السلطان شخص محدود الذكاء وهو رجل جشع ومنحل يترك للآخرين زمام الإمبراطورية ويكرهه الفرسان والانكشارية، أما المواطنون العاديون فهم فى معظمهم فقراء ولا يولون أى اهتمام لذرياتهم المسئولين عنها ومن هنا نشأت العادات السيئة من هجر النساء وتعدد الزوجات أما التجارة والصناعة والمصانع والثروة الحيوانية فيتحكم فيها اليهود، والأتراك لا يتبوأون إلا وضع الأرستقراطية المزعومة والتى تستخدم كغطاء للبطالة المقنعة وشأنهم فى هذا شأن الأسبان، وغالبية ثروة السلطان يحصل عليها من أوربا عبر مصر، ووفقًا للمضطلعين على بواطن الأمور فإن العقارات والثروات التى يملكها هؤلاء فى انحسار مستمر.

الفصل الرابع عشر

البحرية التركية لا يعتد بها

لست أدرى أى ذكاء هذا الذى أدى إلى ترك التعاليم الثمينة لسليمان العظيم التى لو اتبعها خلفه بالإضافة إلى كل مواردهم البحرية لكان اليوم لهم السيادة على الأرض كلها.

وكما رأينا، فقد طردهم اليوم البنادقة من الدردنيل وهم مرتدون مرتعدون خلف أسوار القسطنطينية، ليس عندهم ولا حتى شراع واحد .. ولأنهم يستخدمون حتى اليوم طريقة التجديف، فإن أى نوع من الخشب يناسبهم، لكن تنقصهم تمامًا السفن الضخمة. ويقال إن بعض بكوات الأرخبيل قد زودوا بحريتهم بمثل هذه السفن – لكن هذا لا يتجاوز الأربع عشرة سفينة – وهذه قوة لا يعتد بها خصوصًا مع عاداتهم فى القرصنة التى تجعلهم يحفلون بالغنيمة ولا يهتمون بالبقاء فى البحر فى بارجتين هما كل ما يملكون.

الفصل الخامس عشر

انحطاط القوات البرية بشكل عام

قديماً كانت القوات العسكرية للإمبراطورية تتركز فى القسطنطينية التى كانت تضم ترسانات عظيمة، أما اليوم فإن كل شيء يعمل لسد الاحتياجات اليومية، والباشاوات يتعاملون مع الأقاليم بمنطق البلاد المستعمرة، وأهل البلاد يرون أبناءهم وقد سيقوا كالعبيد البولنديين إلى القسطنطينية. وبسبب فساد القادة تشكلت ميليشيات مسلمة تتمتع بمزايا المحاربين، وفيما مضى كان جنود الانكشارية لا يتزوجون، أما اليوم فكلهم متزوجون يعملون بالتجارة والصناعة لإعالة أسرهم وأولادهم. وقد أثارتهم أخيراً حرب المجر، وكادت تشعل فتنة بينهم. وينطبق الحال على جنود سلاح الفرسان السباهية الذين ينحدرون من أصول آسيوية، ولا يرى السلطان الحالى الذى فيهم إلا قتلة أبيه؛ لذا فقد نزل بهم إلى مستوى الفقر بعد أن كانوا أغنياء، وهم اليوم مضطرون للتكاتف لمقاومة الأعداء. وقد كانت ثورة حسن باشا الحلبى بداية لخسارتهم؛ إذ إنهم أيدوه فى بادئ الأمر، ويبلغ تعداد هؤلاء - عدا ميليشيات مصر التى تخضع لنظام خاص بها - نحو تسعة آلاف جندى فى كل الإمبراطورية والانكشارية نحو عشرين ألفاً، وتشكل الميلشيات اليوم من انكشارية مسيحية الأمر الذى كان غير معتاد من قبل. كان نظام التجنيد قديماً يتطلب ستة أو سبعة أعوام. أما اليوم فإنه فى نهاية عام واحد يصبح المجند انكشارياً. وكانت المناصب القيادية العليا تمنح استحقاقاً، أما اليوم فهى تمنح لأبناء العائلات الذين تعلموا فى القسطنطينية. وقد سرت إشاعات مفادها أن حرب المجر ما قامت إلا للتخلص من الانكشارية والفرسان؛ ففى عام ١٦٦٤ قتل أكثر من ١٢٠٠ رجل به صفوة الجيش التركى فى موقعة سان جوتار Saint Gothare ، وكان هذا تدبير الوزير الأكبر الذى لا يتورع عن تعريض أمن الإمبراطورية للخطر من أجل سحق هذه الميليشيات على أمل استبدالها بأخرى أكثر طاعة وخضوعاً للنظام الجديد.

أما الجنود الإقطاعيون فهم يتكونون من عدد من أمراء الإقطاع ومعهم عدد من الخدم، أما الإقطاعيون التيماريون الأوربيون فعددهم يبلغ مائة ألف رجل موزعون كالآتى: ستون ألفاً من بيجلير بيايلك Begler Beylick فى بلاد الأناضول، ثم ثلاثون ألفاً فى قرمانيا Caramanie وسوريا وقبرص وما يجاورها، ثم ستة وثلاثون ألفاً فى أقطار أخرى فى بلاد الفرس وما يتاخمها.

ومن هذا كله نرى أنه لا القوات الموجودة فى أوربا ولا تلك المجاورة لبلاد الفرس تستطيع أن تهب لنجدة مصر؛ لأنه لن يبقى لهم إلا خمسون ألف رجل، فالتركى لا يغامر أبداً بكل موارده، ثم إننا تحدثنا عن صعوبة الطريق وسهولة إغلاق مدخل مصر، ثم سحقهم فى الصحراء. وفى هذه الحالة – وعندما تتم هزيمتهم وقطع أوصالهم فى الصحراء لن يبقى لهم أى أمل فى إعادة تشكيل جيشهم أو النهوض من جديد. وقد قال يوماً أحد العسكريين الممتازين وهو يازنوفيوس بوتوك Jarnoviers Potok فى عصر سليمان: إن الترك عندما يحشدون كل قواتهم لا يجمعون فى أفضل الظروف إلا ستين ألف رجل من القوات الخاصة.

الفصل السادس عشر

الانقسامات الداخلية عند الترك

فلنتكلم الآن عن مظاهر الانحطاط الوشيك؛ فعندما تفكر فى هذه الدولة الأكثر طغياناً والأكثر عنفاً التى يمكن أن يتخيلها عقل، وعندما تنظر إلى هذه السلطة المطلقة التى يمارسها رجل واحد، رجل غنى، وعندما تنظر إلى هذه العدالة التى يمكن شراؤها وإلى هذه الرعية التعيسة المغبونة إلى حد اليأس، وإلى كل هذه الشعوب الغاضبة والجوعى حتى الموت، وإلى هؤلاء الفقراء الهاربين إلى الصحراء من بطش أسيادهم، وإلى مشاهد الجريمة فى قطاع الخدمات حتى من جانب العسكريين الذين يتمردون دون عقاب، وعندما نرى هؤلاء الحكام غير الأكفاء الذين وصلوا لمناصبهم بمحض الصدفة أو عن طريق مفاضلات مفضوحة، وهم يعلمون جيداً عن طريق من سبقهم فيها أنها لا تدوم، وكذا فهم لا يعملون إلا للثراء فقط وبأسرع ما يمكن على الرغم من أنهم وأولادهم يعلمون أن اليوم آت لا محالة عندما يأمر الحاكم بجز أعناقهم وخراب بيوتهم.

وعند رؤية كل ما يحدث يتساءل العقلاء لماذا يترك الله إمبراطورية كهذه عدوة للمسيحية إلا لغرض لا نعرفه، وربما طفح الكيل وقرر الرب أن ينظر إلى شعبه بعين العطف. نعم، نعم حانت الساعة إذا أردنا فالسلطان فقد فى عين الناس سلطة ذاته المقدسة التى لا تمس، وقد رأينا هذا مرتين فى شخصى عثمان وإبراهيم وكل وزراء السلطان يعيشون كما فى الأحلام أو كما فى تمثيلية، وهم يشبهون النباتات الشيطانية

فى الأرض لا يعرف من أين يأتون وماذا يفعلون وفى أى شىء يستخدمون؟ وهؤلاء الرجال الذين لا قلب لهم يجهلون القلق النبيل بالمستقبل وبالغد وبالخلود. وقد رأينا بعضهم يحاول النهوض من هذا السبات العميق فكان أقل الجزاء الذى لا قوه هو الموت وهو يهدد كل من حاول نفس الشىء وبذات المصير. أما البعض الآخر فهمُ كالدواب الغبية تكاد تحنى رأسها دائماً مفضلة العبودية بثقلها وعارها على شرف الخطر.

ونتيجة لهذا لا تجد أبداً فى هذه الإمبراطورية اثنين من الباشوات يتآمران معًا، فتجد دائماً أحدهم يشى بالآخر. أما الذى كان فوق سلطة الباشوات فهم الانكشارية، وعندما حاول إبراهيم تعظيمهم قتلوه، وحتى السلطان الحالى حاولوا قتله عندما كان طفلاً.

وعندما أراد الوزير كوبرلى Coprogli التقرب من السلطان فإنه تخلص من الانكشارية بنقل العاصمة من القسطنطينية إلى اندريبول Andripole متذرعاً بمراقبة سفن البندقية، ثم شتتهم إما بإسكانهم فى مناطق بعيدة أو بإهلاكهم عن طريق إرسالهم إلى الحرب، لكن بإهلاك الانكشارية أضعف الدولة لأنهم كانوا قوة لها. ثم إن هناك شيئاً لم يسمع عنه من قبل فى هذه الدولة وهو أن هذا الوزير قد ترك فى شخص الوزير الحالى – وهو ابنه – وريثًا لهذه السياسة، وجعل السلطان يعتقد أن نجاته ترتبط أساساً بوزيره، ولهذا شكل الوزير حرساً خاصاً من مواطنيه الألبان المعروفين بهمجيتهم .. وكل هذا يمكن أن ينقلب ضد السلطان نفسه خاصة عندما ينهزمون فى مصر .. وقد قيل الكثير عن الخصام بين السلطان من ناحية وأمه وأخيه من ناحية أخرى، لكن ليس لدى ما أقوله فى هذا الموضوع.

وليس هناك شىء دائم الحدوث مثل تمرد الباشوات؛ فسمعنا عن تمرد جزيل Gazel وزيليب Zebib والمرابط Marabut فى إفريقيا، وفى عصرنا هذا رأينا التمرد الشهير لعلى باشا والى حلب الذى كان أول من سلح الصغهان Seghans والصيرغان Sergiens ليقاوم بهم جنود السباهية والانكشارية ومثله أيضًا فى هذا المضمار إنشى باشا Inchi Pacha وحسن باشا وجميعهم حذوا حذو على باشا. ويجب أن نذكر أيضاً تمرد والى بابليون الذى سلم مدينته إلى الفرس، وأخيراً نذكر توريس Tauris والى جورجيا الذى حرض كل جنود اسباهية آسيا الصغرى وكان يحذو فى هذا حذو حسن باشا ثم مرتضى باشا Mortaza Pacha والى بابليون، ولو أحكم حسن باشا خطته لخسر السلطان؛ إذ كان جيشه منهمكًا فى حرب المجر .. ومن حسن طالع تركيا أن اثنين من الباشوات

لا يتمردان أبداً معًا والسبب فى هذا أنهما لا يجرآن على أن يتصارحا بما يفكران فيه، كما أن الصداقة الحقيقية لا يمكن أن تنشأ بين روحين ولدا فى العبودية.

لكن إذا قام أمير من الخارج بمساعدة بعض الباشوات فى الداخل أى مجموعة من النابهين لعمل هذا المشروع؛ فسوف تكون هذه الوسيلة الوحيدة لإشعال النار فى مواقع مختلفة فى نفس الوقت، وهذا ما يجب أن يحدث بالضرورة أثناء الحملة التى اقترحها.

وفى الواقع لست أدرى اليوم كيف أمكن لولاة كثيرين فى أماكن كثيرة أن يتحرروا، فوالى البصرة يكاد يكون حاكمًا مطلقًا، وقد اضطر الباب العالى إلى وضع طرف ثالث بين والى حلب ووالى ديار بكر، أما والى كوشابا فقد ارتد إلى الجبال. ولقد بدأوا يتيقنون أن الهاجس الذى وصل إلى حد المرض الذى يسببه الحبل الذى يرسله السلطان لهم كى يشنقوا به أنفسهم ليس إلا وهمًا.

إن سلطة الباشوات اليوم تكاد تكون مطلقة فى كل مكان، والقوة الوحيدة التى تجمعهم هى ضعف شعوبهم ويأسها؛ لأن الجندى لا يستطيع أن يعيش بمفرده فإذا ما تجمعت قوى خارجية واحتلت الباب العالى؛ فثورة الباشوات ستكون حتمية حينئذ، وربما سيكون من السهل على جيشنا إقناع الجيش المصرى بتسليم مصر مقابل ترك ثرواتها له، ففى حقيقة الأمر ليس لدى هذا الجيش أى حب لمصر والوالى لا يحتفظ بالبلد إلا بسبب الخوف الذى يصل إلى حد العبودية من الحبل الذى ينتظره فى القسطنطينية، وهو لا يفكر أو يتعامل مع الأوربيين إلا بعد تفكير طويل، وهو فى هذا يعرف أنه يستطيع العيش معهم فى وداعة وأمان ولا يجب الاعتقاد بعداوتهم للمسيحيين لأنه ليس لهم دين.

الفصل السابع عشر

معاونة مسيحيى تركيا

هؤلاء سيكون لهم نصيب كبير فى هذا المشروع العظيم، وتضم كل من القسطنطينية والقاهرة والقدس وأزمير عدداً كبيراً من الأوروبيين المضطهدين والمستضعفين، الذين سوف يرحبون بالقادة الفاتحين، وهم لا يتكونون فقط من صناع وتجار ولكن أيضًا من مزارعين مسيحيين منتشرين فى كل أرجاء الإمبراطورية. وهؤلاء المزارعون يتجمعون فى الغابات والجبال والأماكن المنعزلة مثل أرمينيا وكابادوس

وسـوريا، ومـنهم الموارنـة والأكـراد فى أوربا، أمـا سكان البـيلوبونيـز والمورة والألبـان والبلغار فـهم شعوب قليلة الطاعة ولا ينقصهم إلا الزعماء والفرصـة للخروج من عزلتهم والمطالبة باستقلالهم. ولن أتحدث عن جزر قبرص، وليتبوس وليمنوس Lesbos et Lem-nos وكريت Candie وثيو Chio وبلاد بين الرافـدين ومـيديا La Media وأرمـينيـا المكتظة بالأكراد، أما الأقباط فـهم المسيحيون من أصل مصرى. وقد رأينا شـعوباً تعـانى تحت نير الاستعباد وقد خرجت لتغزو بحفنة من الرعاة إمبراطوريات واسعة. هكذا فعل العرب والتتار والأتراك أنفسـهم، وقد أعطانا جرجفيل Gargville الذى اعتزل فى صحراء أناضول جرامانيا فكرة جيدة عن حالتـهم وقوتهم، ومن هذا الوقت لم يتغير شىء اللهم إلا أخلاقهم التى أصبحت أكثر وحشية، وأصبح الولاة يعارضون تحول المسيحيين إلى أتراك حتى لا تنخفض موارد الدولة.

وفى موقـعة أجرا Agra وردت الأنباء عن هزيمة الأتراك، وفى الحال هرع الألبان والأبيروت واللاليرون إلى السـلاح، أما الترانسيلفانيا والفلاشى ومولـيافيا وجورجيا فـعينوا على رأسـهم زعـمـاء مـسيـحيين، وحكام كـروسـتـان يـعرفـون بالسنـاجق وهم مسيـحيون. ولنذكر هنا أن ملك البرتغال كتب إلى أكزينيس أن مـسيـحيى السـودان المصرى مستـعدون لعـمل أى شىء إذا مـا رأوا بريق سلاحـهم فى أرضـهم، ونعلم أن الموارنة تخلصـوا بالقوة من هيمنـة المسلمين أما جيرانهم الدروز فهم البقايا التى تركـها مـسيـحيـو أوربا عند حـملاتهم فى فلسطين ومنهم ينحـدر أمـراء صـور وصيـدا، وكلهم مستـعدون للنهوض لنصرة المسيـحيين ومنهم الأمير فخر الدين الذى رحل إلى إيطاليا من أجل هذا الهدف يسـأل أمراءهـم لأنهم أكثر شـجاعة للذهاب لغزو مصـر وقبله أمير من أمـراء العرب رأى أن ليس هناك بطل يضطلع بهذه المهمـة فأرسل الهدايا سـراً إلى ملك إسبانيا واضعاً فكرة التمرد بعين الاعتبار، وأخيراً أظهر أقرباء وخلفاء لفخر الدين الاستعداد الطيب وعندنا الدليل على هذا.

وأخيراً، فـاعلم أنه قد تسـرب إلى السـرايا نفسـها بين الانكشارية والفرسـان فئة نصف مسيحية والتى يراهـا الفطناء مبشرة بنتـائج طيبـة للإنسانيـة؛ لأن الرب الحقيقى بدأ يسود فى قلب الأعداء.

الفصل الثامن عشر

الانشقاق بين الأتراك في مصر نفسها

قبل أن نترك هذا الفصل عن الانشقاقات يجب أن أقول شيئًا عن هذه الخلافات: يوزع حكم مصر على اثنى عشر سنجقًا أو بك، ولما لم يكن من السهل انتزاع الحكم من العائلات القديمة، فقد أصبح وراثيًا. إن البكوات هم سادة الفرسان الإقطاعيين، وعندما يكتسبون القوة يسببون الآلاف من النزاعات الصغيرة ولا يتورعون عن الاستئثار بسلطات الباشا بل ووضعه في السجن ثم يطلبون واحداً غيره من السلطان العثماني الذي يضطر إلى التغاضي عن ذلك؛ لأنه لا يستطيع معاقبة مرتكبيه، وإلا أدى ذلك إلى تعريض السلطنة نفسها للخطر. والقلاقل دائمة الحدوث في مصر، ويشهد على ذلك تمرد أحمد باشا والى مصر العليا عام ١٦٦٠ .

والجدير بالذكر أنه أثناء الزلزال (وهو شيء نادر الحدوث في مصر) وعند ظهور المذنب عام ١٦٦٤ رأى الناس في هذه الظواهر علامات على قرب حدوث ثورة في مصر. وفي واقع الأمر فإنه في أثناء هذا حدثت مؤامرة العرب الذين كانوا يزودون الجنود الإقطاعيين وجيرانهم بالسلاح، وكانت هذه ميليشيات تزعج الأتراك أنفسهم فلا شيء يوقظهم ولا شيء يردعهم عن السرقة على طريقة التتار، كما كانوا مستعدين للاتحاد ضد أي عدو خارجي إذا ظهرت لهم غنيمة مشتركة وليس ضد هؤلاء الذين يدافعون عن أراضيهم ولا يقدمون لهم أي نفع لإرضاء أطماعهم. أما بالنسبة للانكشارية وبقية جنود الجيش المصري فلا يعادل عدم مقدرتهم على الطاعة شيء إلا خيبتهم في القتال. ومنذ مائة وخمسين عامًا لم تر مصر عدواً واحداً اللهم إذا احتسبنا هؤلاء الأعداء الذين يقضون مضجعها والذين يتباهون بأنهم يعادلون جيشاً رغم أنهم لا يتعدون العشرة آلاف رجل. ومع هذا يجب القول إنهم أقوياء إلى حد أنهم يجرؤون على وضع الباشا في الحديد وذبح البكوات ثم زعزعة القوات التي أرسلها السلطان لعقابهم .. من أذن الذي يشك في اندلاع تمرد شامل وعدم إمكان الترك نجدة مصر في حالة ما إذا وقع خبر الغزو الجديد؟ ..

الفصل التاسع عشر

عن جيران مصر غير الخاضعين لتركيا

لنر الآن فيما يخص هذا الجانب ما يجب أن نأمله أو نحذره. نجد فى جنوب الإمبراطورية التركية العرب والأحباش الدناقلة وأهل نومية وشعوب أفريقيا الأخرى، وفى غربها جورجيا وفارس ونعرف مسبقًا أن العرب يكرهون الأتراك الذين يسيئون معاملتهم وينتظرون يوم الخلاص منهم. وفى لاغى الواقعة على الخليج الفارسى كما فى البصرة على الخليج العربى لا يكترث بالباب العالى، حتى إن ملك العرب البدو يعتبر أن الأتراك أعداء له ولهذا فإنه بانتشاره فى الصحراء كل يوم يخفى آبار الماء حتى لا يستولى عليها الأتراك. أما سوريا والجزيرة وفلسطين ومصر؛ فالثورة فيها فى حالة اختمار. وقد تحدثنا مسبقًا عن المقترحات الذكية التى عرضها أمير عربى على ملك إسبانيا ثم اقتراحات أمير آخر مع أمراء إيطاليا، فالفرصة سانحة إذا ما استطعنا استغلالها. وكان النوبيون والدناقلة فى بادئ الأمر مسيحيين؛ فإذا كانوا قد فقدوا إيمانهم فمرد ذلك إلى خطأ المبشرين لا إلى عشق محمد، لذلك سيكون من السهل كسبهم إلى صفنا فى حالة تحركنا.

أما البلاد التى تتاخم دنقلة وسنار فهى بلاد الحبشة وهى بلاد ترخص فيها تجارة اللحم البشرى – أى الرقيق – وهى تقايضنا به مقابل الاحتياجات الصغيرة للصناعة الأوروبية، وبهذا سيكون لنا جيش إضافى نواجه به الصدمة الأولى للقائنا مع العدو؛ فالحبشة فى هذه الظروف تستطيع أن تساعدنا، والبرتغاليون يستطيعون أن ينقلوا لنا عن طريق البحر مساعدة هؤلاء .. يبقى شيء آخر هو أن الأحباش مرتبطون بالأقباط ارتباطًا أخويًا ودينيًا، هذا بالإضافة إلى ورعهم وحبهم للأرض المقدسة التى يشرفون بالحج إليها رغم ما يلاقونه من عنف واضطهاد الأتراك. وستزودكم كل أفريقيا بالرجال بالإضافة إلى أنكم ستملأون سفنكم بالمرجان واللؤلؤ الصناعى وبالسكاكين والمقصات وأشياء أخرى مماثلة. وليس من شك فى أن الأحباش سيزودوننا ببضعة آلاف من الرجال لمعاونتنا فهم يرسلون دائمًا – وفى يوم واحد – عدة مئات لسوق النخاسة فى القاهرة لبيعهم، هؤلاء العبيد رغم عدم إجادتهم لفنون الحرب يتميزون بتحمل الشمس والطقس، لذا يمكن استخدامهم فى صد الضربة الأولى للعدو بحيث إنه إذا كان عدد الجيش المسيحى خمسين ألفًا يمكن أن نرفعه إلى مائة ألف عند إضافة هؤلاء العبيد

أو عند إضافة العرب وأهل نومية الذين سيأتون إلينا آملين فى الغنائم؛ إذ إنه من العبث الاعتقاد بأن هؤلاء القوم يعاونوننا لأهداف دينية، أما الجيورجيون فى الحرب فإنهم سيفعلون ما يفعلونه الآن فى السلم ويفعله الفرس، فإنهم سينزلون بهم خسائر فادحة كما فعل الشاه عباس الذى هزمهم فى مواقع عدة ثم استولى على بابليون وهم يضمرون للأتراك ضغينة ولا ينتظرون إلا إشارة البدء من جيشنا.

الفصل العشرون

عن جيران فرنسا

تحدثنا عن جيران مصر، لنتحدث الآن عن جيران فرنسا؛ فممن يجب أن نخاف ونحذر؟ فلنر أولاً الإمبراطور وأقاليم الإمبراطورية. فالإمبراطور حاكم مستنير متزن وإيجابى يفضل التأنى على التسرع ولا تقف أمام أهدافه أية دعاية، وهو يثبت أنه ليس ضد حرية هذه الأقاليم، بل إنه قد ذوب سلطته فى المجالس النيابية، وهذا شىء طالما أخاف سلفه، وفى نفس الوقت أظهر لتلك الأقاليم أنه بدون سلطته تصبح إرادتها واهية .. بهذه الطريقة حول غيرته من أسرته نحو منافسه، وهو إذا ما شرع فى أمر أتمه، كما هب لنصرة حلفائه المظلومين، وانتصر على الترك والسويديين، بغزوه لمصر وبنجاح هذا الغزو ينهى أى خوف من أى عدو للإمبراطورية سواء كان أوربياً أو آسيوياً، ومن المؤكد أن لا أحد سيعارضه فى هذا المشروع؛ لأنه لا أحد يشك فى أنه يرغب فى صدام مع الأتراك وفرنسا لأنه يخشاهم، ولكن إذا لم يقف ضد مشروعات فرنسا، فهل سيعضدها ضد الأتراك؟ وبداية يتسنى للترك غزوه إذا ما ساعد الانتفاضات. وإذا ما حدث ذلك، فسيتحالف مع فرنسا على الفور. ولنفترض ألا يحدث ذلك، فأعترف بأنه سوف يكون من الصعب إقناعه بالذهاب إلى تركيا إن لم يكن مضطراً بغية الحوار مع بولندا. والمؤكد أنه سيطلب من فرنسا ضماناً، ولكن ليس هناك شىء أكثر تأكيداً من غزو الفرنسيين لمصر.

ولكن قد نتساءل: وإذا حدث أثناء هذا أن فرنسا زودت الإمبراطور ببعض العون ولو بالمال لزيادة عدد قواته فى المجر وذلك لمساعدته على سحق المتمردين؛ فإن الأتراك فى هذه الحالة سيكونون مجبرين على ترك آسيا. أما من ناحية بولندا فلا خطر أبداً،

ذلك لأنها مهددة من أصدقائها فى تركيا والقوقاز الذين تخلوا عنها؛ فهؤلاء الذين كسبوا الحرب ضد المسلمين فى موقعة شوتيم قد خسروا فى حرب السويد ما اشتهروا به من شجاعة وفداء، والقوقاز أصبحوا لا يطاقون تحت حكم الملك بيا الذى لا يطيقونه بدورهم قبل كل شىء، يبقى الآن الفرق الأخرى ومن العبث أن نخدع أنفسنا باعتقاد أن التتار والقوقاز أنفسهم لن يسمحوا بضرب بولندا خوفًا من أن يصبح الأتراك جيرانًا قريبين لهم. إن هذه الشعوب لا تعرف إلا مصالحها الآنية؛ فإذا لم تتعارض فإن الترك يستطيعون غزو بولندا كلها حتى فيستوك، وليس هناك – إذن – ما نخافه من بولندا بل يمكننا أن نأمل منها – إذا أرادت فرنسا أن تقاوم تركيا بصلابة، وهكذا فإن كل ما يتعلق فى هذا الموضوع بفرنسا يتلخص فى ضرورة مساندة الملك. وبهذا يمكن أن تنضم مملكة موسكو إلى الإمبراطورية وهنا لن يكون أمام تركيا إلا خيار ابتلاع قواتها فى حالة إذا ما هاجمناها من الخلف وعندها قليل من المال يكفى لمساعدة بولندا، وهذا المال سيكون فى مكان أفضل فى بولندا خيرًا من أن يقع فى أيدى الإنجليز الذين يمكن أن يتحولوا من يوم لآخر إلى أعداء لك؛ فمن مصلحة الإمبراطورية إذن أن تساعد بولندا إذا ما أرادت أن تعتمد على تماسك وإخلاص فرنسا.

أما مملكة موسكو فسوف تساعد بولندا، وهناك ما يدعو إلى الاعتقاد بذلك؛ لأنها سترى كل الشر فى احتلال الأتراك للمجر، ومن ناحية أخرى يمكن أن تعترض إنجلترا وهولندا على الحملة الفرنسية على مصر، فلنتكلم أولاً عن الهولنديين فهم على أكثر الاحتمالات يستطيعون الاتحاد مع الأتراك للوصول بسفنهم إلى المتوسط وهذا خطر عندما نعلم أن الأتراك لا يملكون صناعة بحرية؛ فالحاجة إذن ستكون حاجتهم كما حدث فى الماضى مع فرانسوا الأول، ثم إن إلحادهم الذى يرسخ فيما بينهم، والذى يصبح أقل عداء للتراث منه للكاثوليكية .. إن قوة هولندا تكمن فى تجارتها خصوصًا مع الشرق وسيكون من الصعب على فرنسا فى الظروف الحالية أن تنتزع منها هذه التجارة حتى فى الهند نفسها؛ فلنترك هذا لإنجلترا أو البرتغال. أما إذا امتلكت فرنسا مصر فسيكون هذا أفضل لها من امتلاك مدغشقر العقيمة، وهى أبعد من مصر سورانا فالأولى تمتلك مركزًا هشًا. أما الثانية فانطلاقًا منها يمكن السيطرة على الهند كلها لكن هذا ليس له قيمة لأنه ليس لها ممتلكات هناك، وهنا يكفى لها أن تحوز مصر التى توفر على السفن الدوران حول أفريقيا لكى تجذب إليها كل تجارة الهند .. وهذه هى الوسيلة الوحيدة لانتزاع عرش التجارة الهولندية؛ فبالقوة لن نستطيع عمل ذلك اللهم إلا إذا

اتحدنا مع إنجلترا والبرتغال، وهنا سيكون المكسب لهم والتكاليف علينا. وباستعراض تاريخ هذا التنافس نجد أن أية دولة لم تستطع أن تنافس هؤلاء الهولنديين المقترين إلى حد الشح، والذين يرزقون بالكاد شأنهم فى هذا شأن اليهود إلا ما يكاد يغطى نفقات حياتهم الفقيرة.

لم يبق إذا إلا وسيلة واحدة مباشرة لتحقيق هذا الهدف، وهى وسيلة نمتلك كل مقوماتها ألا وهى احتلال مصر والباقى معروف بشكل بديهى فلن يعارضوا حملتنا معارضة جادة وإن استطاعوا فلن يكون إلا بعد فوات الأوان، وثانيًا عندما تتحدد أوربا وأقصد البيتين الحاكمين فى فرنسا والنمسا ضد الإمبراطورية العثمانية لن تقف أية قوة أخرى فى وجه هذا المشروع، أضف إلى هذا ضعف الأسطول الهولندى فى البحر المتوسط. أما بالنسبة للغزو فلن يكون هذا شيئًا سهلاً فهم لا يملكون القوات البرية والضباط القادرين على القتال ولن يكون أمامهم إلا المقاومة العاجزة ضد فرنسا فى حرب لن تساندهم فيها أوروبا بإيجاز لا إنجلترا ولا هولندا ولا أية قوة أوروبية أخرى تستطيع منعنا من القيام بالغزو.

أما البرتغاليون فيساعدوننا فى البحر الأحمر عند النزول على الشاطئ وكذلك الإسبان بشكل مؤكد، وعلاوة على التفكير فى استبعادهم فإن سعادتهم ستكون كبيرة فى التخلص من الخوف من الأتراك ثم الإسهام فى خلاص الجنس البشرى والمسيحية والمساهمة فى إرساء دعائم وحدة صلبة دائمة بين القوتين العظميين فى أوروبا، وأكرر وحدة صلبة لأنها قائمة على وحدة المصالح. أما الدانمارك فلا يهمها إلا أمنها وأمن ألمانيا، وبالنسبة للسويد فستخضع لإرادة الملك المسيحى الراغب فى التجديد والتوسع، ولذلك ستقف إلى جانب فرنسا.

وبمناسبة ما يقال فى رغبة هذا البلد فى لعب دور كبير فى ألمانيا يجب ألا نصدق ذلك؛ لأن كل أمم أوروبا ستتسلح وتقف ضدها؛ فإذا ما قام البولنديون بقتال الأتراك بمساعدة الملك المسيحى هنا فستجد بولندا خلاصها والسويد مصلحتها وفرنسا النجاح وتركيا الخسارة.

الفصل الواحد والعشرون

الأمن العام للحملة ينشأ مما شرحنا منذ قليل

لأنه لا يخشى جانب أحد فى أوروبا إذا نسقت النمسا وفرنسا جهودهما؛ فالبابا ورجال الدين سيقومون بواجبهم وإيطاليا كلها ليس هناك ما يسعدها إلا هذا، لكن لنفترض الأسوأ، من يستطيع أن يمنع فرنسا من التخلى عن الموضوع عندما ترغب فى ذلك؟ وتركيا لن تلحق بها بشكل أو بآخر إلا بعد الاستيلاء على جيجلى ثم تموين كريت؛ ففرنسا رابحة فى كل الحالات، فقضيتها عادلة أمام الله وأمام الإنسانية، وسوف تعلن بشكل حاسم حسن نيتها، كما سيكون لها حق معارضة منافسيها، بل سيكون من السهل عليها استعادة رضاء الباب العالى؛ لأن هذا فى مصلحة الجانبين والعودة مأمونة والبحر مفتوح، بل فى حالة افتراض أسوأ الظروف مثلاً أى خسارة أسطول أو فقد جيش، أليست فرنسا أكبر من أن تتأثر بخسارة كهذه ؟ وبغض النظر عن حسابات الحيطة يمكن القول إن الفرصة فى انتزاع غنيمة كهذه تستحق تماماً المخاطرة بجيش بأكمله، وحتى هذا الفرض فهو مردود لأنه لن يبقى أحد على ظهر سفينة فى البحر بل ليس لنا أن نخشى ما جرى للكردينال بيلاج وللقديس لويس. إن مزايا النظام والطاعة والحيطة التى تتميز بها أركان جيشنا، والتى امتحنت بها فرنسا قدراتها عشرين مرة تجعل من الصعب المقارنة بين القدرات المتواضعة لعصر القديس لويس وقدراتنا اليوم، فقد كان مسلحاً بقوات محدودة، وكان الأعداء يحكمون السيطرة على البحر والنيل فلما دخل القديس لويس عمق الأرض المصرية فقد السيطرة على مؤخرته أى على الساحل ونقاط التراجع وأخيراً، فإن المقذوفات النارية كانت السر وراء انتصار العرب الذين كانوا ينحدرون فى معظمهم من الشراكسة العتاة، وقد تدربوا فى مصر على الحرب بشكل متواصل وكانت سواحل مصر منيعة، ولكن الأمر اختلف تماماً اليوم. أخيراً يجب القول إن الحملة ليست فقط فى مصلحة الدولة بل إنها الشرف نفسه اللهم إلا إذا رفض الملك نفسه الدخول فى عملية غير مضمونة، وعلى أية حال فإن سمعته لن تضار فى شىء، كما أنها لم تضر عندما تراجع فى ديجيلى وفى كريت، ولذا يجب المحاولة لمرة ثالثة فى مصر – وهذه المرة لدى اعتقاد بأنكم سوف تكونون أسعد حالاً ..

الفصل الثانى والعشرون

إن الوقت اليوم ملائم تمامًا للقيام بحملة على مصر وربما إذا ضاعت الفرصة فشلت الحملة

إن فرنسا تسعى إلى السيادة وامتلاك التجارة وخصوصًا خراب هولندا، ويطمح ملكها إلى مجد جدير بحاكم عظيم، وكل هذه الأمور مضمونة فى مصر، وعلاوة على هذا تبنى إمبراطورية فى الشرق، وهو ما يجب ألا ينسى بسبب نتائجه الكبيرة، إنها الحرب مقدسة الغايات حيث ترمى إلى إعمار الأرض، وهو شيء يرضى به مكيافيلى نفسه، وستدين له كل المسيحية وفى المقام الأول سيضم إليه إيطاليا وألمانيا، وهما دولتان تحتاج فرنسا إلى تقدمهما وتعاطفهما. إن الحاكم الذى يفكر فى مثل هذه الأهداف العظمى سيجذب إليه كل ما تملكه أوروبا من رجال عظام وعقول متميزة، وتصبح فرنسا مسرح المجد الحقيقى ومن يصبح بعدها هدفًا لشكوك أوروبا، ولكن ماذا عسانى أقول؟ لتتبع تطورات مثل هذا المفهوم، يجب أن تتوفر النظرة الثاقبة التى تمتد إلى ما لانهاية.

الفصل الثالث والعشرون

وأضيف أنه فى كل الأحوال يجب أن يكون المشروع ناضجًا

كل شيء جاهز للحملة البحرية؛ فالمناطق الساحلية تقدم من الموارد أكثر مما ينبغى، وإذا كنا نريد أن نتمتع بالسلام من أجل خير أوربا فيجب أن نولى الاهتمام لقيمة الحرب لنحفظها من التدهور، والملك اليوم هو حكم السلم والحرب، وربما يأتى زمن لا يكون فيه كذلك؛ فعلى سبيل المثال إذا ما اتحدت إنجلترا وهولندا مع النمسا سيمنع ذلك فرنسا من القيام بمثل هذا المشروع، لكن لنفترض أن الأشياء فى هذا الموضوع لن تتغير، وبالمقابل فإن مصر وتركيا ستتغيران؛ فمن المؤكد أن الأتراك – وعلى رأسهم الصدر الأعظم – يبذلون قصارى جهدهم للقيام بإصلاحات، وقد تعلمون مسبقًا فنوننا الحربية، وعندما سيتعلمون علومنا البحرية وتساعدهم الطبيعة على ذلك بوعدها سيستفحل شرهم، فإذا ما وصلت الأمور إلى هذه النقطة سيرتج العالم المسيحى،

وسيكون الوقت قد فات، وسيكون جهداً ضائعًا أن نفكر جديًا فى هذه المشاريع التى ننظر إليها بعدم اكتراث، فما المدهش فى هذا إذا ما ارتدى الأتراك عمامة أليس لهم رؤوس مثل رؤوسنا؟ فإذا ما خطر ببالهم مرة تحصين مصر - وهو أمر يستغرق عاماً من الزمن - سنقول وداعًا الأمل فى المسيحية التى أراها مهملة ووحيدة.

الفصل الرابع والعشرون

بعد هذه الإيضاحات هل أرانى فى حاجة للكلام عن مشروعية الخطة

لا يوجد شىء أكثر عدلاً من الحرب المقدسة؛ فهى مشروع لخير الإنسانية ومصلحة المسيحية وخلاص التعساء الذين يرجون مساعدتنا من أجل القبر المقدس ومن أجل الانتقام من غطرسة وإهانات البرابرة التى عانت منها فرنسا نفسها، ومن ناحية أخرى لا أعتقد أن هناك اتفاقات خاصة تربط فرنسا بالباب العالى؛ فإذا ما كانت الحملة على كريت و ديجلى مشروعة؛ فالحملة على مصر ليست أقل مشروعية. وفى الميزان الذى سوف تزن فيه حكمة الملك هذا المشروع يجب أن يفكر فى خلاص الآلاف من البشر، بل إن السماء نفسها تنتظر قراره، فها هنا المجد والمآثر والقيم والإيمان، وهنا التفكير عن سيئ الأعمال، هنا أخيراً الخلاص.

الفصل الخامس والعشرون

أعتقد أنه لم يكن أبداً شرف الرب وشرفنا هكذا معنيين، وأنه لم يكن أبداً لدينا هدف أكثر عدلاً ولا أكثر قداسة قد خطر على الفكر الإنسانى.

إن التعبيرات تعجز عن الخوض بعيداً فى هذا المجال، وتتوارد على الخاطر النتائج الهائلة التى ستثمر عنها هذه العملية بحيث تعجز عن التعبير عنا أية لغة. إن هذا لهو كمال الفطنة وهو على قدر النفوس الكبيرة التى تنير وتدير شئون الإنسانية، وعلى عاتق هؤلاء الذين يستطيعون بنظرة عين الإحاطة بكل شىء. وكما هو منطوق فى الكتب الكبرى ولم يبق لنا إلا أن نرجو الله أن يرشد عقولهم فى هذا الامتحان، فمن أجلنا، ومن أجلهم لم يكن الله ليقدم نعمة أكثر وضوحاً.

وكان مكتوباً على الظهر: "هذه النسخة نقلها همبل، أمين بالمكتبة الملكية بهانوفر عن مخطوط ليبنتز، وقد تم فحصها بعناية وقسمت إلى فصول وأضاف إليها ماتى Ma-thei فهرساً". وكان همبل أميناً للمكتبة عام ١٧٩٨، وعاش ماتى فى بداية القرن، وتوفى ليبنتز عام ١٧١٦ .

الهوامش

(١) Mémoire de Leibnitz à Louis XIV, sur la conquête de l'Egypte, etc., Paris, Garnot, éditeur, 1840, In - 8.

(٢) Mémoire sur le projet d'expédition en Egypte, présenté en 1672 à Louis XIV pas Leibnitz, par G. E. Guhraeur, lu dans les séances des 24 Février et 7 juillet 1383. Dans le recueil consacré aux savants étrangers in - 4 , 1841, pages 679-769.

(٣) Mémoires de l'Académie des Sciences morales et politiques, etc., deuxième série, t II. Paris, 1839 in - 4 , pages LXVIII - LXXXIII.

(٤) Kur-Mainz in der epoche von 1672 ; von Dr. G. E. Guhraeur. Hamburg, 1839, in - 8 , Zweiter theil, beilage V, (pages 153-174) et passim.

(٥) Thiers, Histoire de la Révolution française, 1836. In -8 , tx, Ch. 1er, p. 65.

(٦) كانت هذه التجهيزات معدة لاستخدامها ضد هولندا .

(٧) جنيهًا، بلا شك.

(٨) فى عام ١٧٩٨ قامت الحملة بناءًا على أوامر نابليون بالعبور فى أثنين وثلاثين يومًا، واستولت على مالطة فى الطريق. وفى يومنا هذا تعبر السفن التجارية هذا الطريق فى خمسة عشر يوماً.

(٩) Qui scilicet janizarum simiae sunt.

ملحق ٢

ما قالته الصحافة الفرنسية عن الكتاب

جريدة الفيجارو بتاريخ ١٥/٨/١٩٩٨ :

مصر من القديس لويس وحتى قناة السويس:

الصحفى أحمد يوسف يروى السحر الذى تمارسه الحضارة المصرية على الفنانين الفرنسيين:

الولع بمصر - كتاب لأحمد يوسف - دار نشر لارماتان :

على بعد ألف فرسخ من الولع السائد بمصر، يصف أحمد يوسف الأستاذ الجامعى والصحفى صورة لمصر فاتنة ملهمة لفنانين كبار ناطقين بالفرنسية، ويرجع هذا السحر إلى عهد القديس لويس الذى شن حملة صليبية ضدها، فكان أول من سحرته مقابر الفراعنة الساحرة، ثم تم التخلى عن مشروع الاكتشاف حتى حاول ليبنتز عام ١٦٧٥ إقناع لويس الرابع عشر باستكمال خطة الغزو، وذلك فى نص متميز يحمل عنوان "مذكرة عن غزو مصر Consilium Aegyptiacum . وهذه الوثيقة ملحقة بالكتاب، ويفسر فيها السبب فى كون مصر تتلاءم بصورة أفضل لمشروعات الغزو الفرنسية، والحق أن فكرته لم تنفذ إلا فى عهد بونابرت أثناء حملته عام ١٧٩٨ .

الحلم المصرى :

بيد أن هذه الأرض الشرقية لم تشعل طموح رجال السلطة فحسب؛ فقد كانت أيضًا مصدرًا لإلهام كتاب وموسيقيين وفلاسفة.

ويسرد أحمد يوسف فى فصول كتابه الحلم المصرى الذى عاشته الشخصيات الشهيرة من المفكرين الفرنسيين؛ فقد استسلم برليوز لسقم الموسيقى الشرقية بل واستوحى منها بعض أعماله مثل: موت كليوباترا، كما أحب فولتير بعنف الشعب المصرى، ويرهن على ذلك جيدًا فى كتابه صديق Zadig (١٧٣٢) بنقده لمعاصريه، وكان

ماكسيم دى كان Maxime du Camp يقول عن جيرار دى نرفال Gérard de Nerval : "كان قد سافر إلى الشرق، وكنت أحب أن أتحدث إليه عندما كنت أتمكن من إخراجه من الحلم، وهذا الأمر لم يكن دائمًا سهل المنال". وفى الواقع كان نرفال يعانى من اضطرابات عصبية نفسية كان قد قرر علاجها عن طريق السفر، ويبدو أن هؤلاء الفنانين كانوا قد فتنوا جميعًا بسحر مصر؛ فمن الصعوبة بمكان أن يشعر الإنسان بلا مبالاة تجاه هذا البلد وتأثيره على الثقافة الفرانكوفونية التى تختم الذاكرة الجمعية بختم لا يمحى.

M. B. P.

لوبوان Le Point – رقم ١٣٧٤ يناير ١٩٩٩ :

وأيضًا

ظلت مصر – تلك الذاكرة التى تأخذ شكل الأرض – من عهد القديس لويس الذى كاد أن يحكمها وحتى بونابرت الذى اغتصبها وأحبها كامرأة – تمارس سحرها على الفرنسيين الأكثر تخيلاً. وإذا كانت الأسماء من ماربيت وحتى شامبليون تشير إلى الحد الأقصى من الاهتمام الذى كان يوليه علماؤنا لمصر؛ فهل نمى إلى علمنا أن ليبنتز قدم مذكرة للويس الرابع عشر يقترح عليه الغزو الذى "أصبح حقًا لفرنسا"؟ وإذا كانت "شرقيات" هوجو أو "رحلات" جوتييه لا تقرأ اليوم فمازلنا نقرأ حتى يومنا هذا "رحلات فى بلاد الشرق" لنرفال الذى كان يرى فى مصر "مقبرة واسعة" تتفق واكتئابه، وقد أعطى الجميع لفلوبير حق الولع بكوتشك حنيم Kutchuk - Hanem عام ١٨٥١ فى وادى النيل. باختصار لم ينتظر أدبنا كرستيان جاك Christian Jacq ليستسلم لدوار الولع بمصر، والذى يعد الصورة الشعبية لعلاقة حب طويلة مع ما أسماه شاتوبريان "أجمل بقاع الأرض"، ولم تعف الموسيقى مع برليوز وفيلسيان دافيد من هذا السحر فما كان يطلق عليه آنذاك المشرق ظل طوال ثلاثة قرون مصدر إلهام وجمال سيطر على طراز المبانى والأثاث؛ فلم يستثن أحد الفنانين أو الكتاب من الخوض يومًا فى مجال عشق مصر وعلم المصريات وعبادة مصر، كما جعلت منها الجماعات السرية والسحرة (جوزيف بلسامو) أرضًا مختارة، وهذا الطريق المختصر لحلم طويل يملك كل مقومات

المفاجأة والسحر، وهذا الكتاب الذى ألفه صحفى مصرى وأستاذ بجامعة السربون يجسد صورة حب لا يستبعد أى سوء تفاهم أو إعطاء صور مثالية.

الولع بمصر من الحلم إلى المشروع

تأليف: أحمد يوسف

دار نشر: لارماتان - ٥٣٢ صفحة

إيكو دى لالوار - تصدر مرتين شهرياً Echo de la loire :

"الولع بمصر - من الحلم إلى المشروع" تأليف أحمد يوسف

يتمثل التفكير فى مصر - دون شك - فى رحلة لا شعورية يتخلى خلالها الواقع عن مكانه للخيال وللملجأ المثير واللازمنى الذى يرسمه فى العقول "بلد الفراعنة". ولم ينج أحد أسلافنا المشاهير سواء من الملوك أو الأباطرة أو الكتاب أو الفلاسفة من تأثير مصر؛ فقد فتنوا جميعًا بجمالية مصرية ظلت دومًا دافعًا للغزو لأكثرهم استنارة. وسطر أحمد يوسف المولود بالإسكندرية هذا الولع فى عمل علمى أضفى أسلوب تناوله التاريخى والتطبيقى بعداً جديداً على هذا الخيال الجمعى الفرنسى وقبل أن تمثل مصر مشروعًا لحملات - شنها ثلاثة ملوك متتالين وهم لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر ولويس السادس عشر ثم فى عهد إمبراطورية بونابرت - كانت مصر عبر الإسكندرية - عاصمتها آنذاك - تشكل كما يقول المؤلف ابتكاراً ثقافياً يمارس التأثير غير العادى والمطلق على العالم المتوسطة". وأسكر عطرها الغريب بعد ذلك رومانسيى القرن التاسع عشر، وكان شاتوبريان يرى فيها "أجمل بلاد الأرض" وأرسل جيرار دى نرفال إلى تيوفيل جوتييه ".. إن مصر هى أكثر البلاد التى أشعر بالمرارة على طردها من خيالى لإسكانها للأسف فى ذكرياتى". وتنحسر مصر إلهة الشعر تدريجياً لتفسح المجال لحب مصرى غذى كل أصول تجارة الطوائف "ذات الأثر المصرى" على حد تعبير المؤلف. وبطريقة أكثر تحديداً تحدث أحمد يوسف عن الماسونية بوصفها "ظاهرة أخرى تضرب بجذورها وروحها فى أرض مصر". تلك المظاهر المختلفة لحب مصر التى يستكشفها أحمد يوسف بحذر شديد أسهمت فى تغيير السحر الذى تمارسه الحضارة المصرية على الفرنسيين.

وفى يومنا هذا نجد لمصر تأثيراً فى فرنسا أكثر من أى وقت مضى، ومع ذلك يندد أحمد يوسف فى خاتمته "ببعض التقاليد الحديثة التى تتصل ببعض المتاحف وتظهر أن هذا الانجذاب الروحى النبيل يغير مساره حتى يصل إلى مركنتيلية قريبة من الحالة المرضية". وإذا كان الولع شيئًا يختلف عن العاطفة كما يثبت ذلك كتاب أحمد يوسف من خلال تحليل دقيق للمشروعات والأحلام التى اتخذت مصر مادة لها؛ فمع ذلك بعد كل من الولع والعاطفة مصدراً مشتركًا لحب مصر.

الولع بمصر من الحلم إلى المشروع - أحمد يوسف - دار نشر لارماتان - ٥٣٢ صفحة

سبعة قرون من الفتنة:

كتب جيرار دى نرفال لتيوفيل جوتييه (مؤلف رواية المومياء): "فقدت نصف العالم مملكة تلو الأخرى وقطراً تلو الآخر، وأوشك ألا أعرف أين عسانى أضع أحلامى، لكن مصر هى أكثر البلاد التى أشعر بالمرارة على طردها من خيالى لإسكانها للأسف فى ذكرياتى"، هذا الاقتباس يبرزه أحمد يوسف، ويمثل بصورة جيدة مشروع هذا الصحفى الذى يعمل بمكتب الأهرام بباريس والمتمثل فى "دراسة ظاهرة سحر مصر فى الذاكرة الجمعية الفرنسية"، وهو المشروع الذى أهمل فيه رجال الآثار والمؤرخين لصالح "الشخصيات" التى تأثرت بسحر مصر ثم مارسته. ومصر - فى هذا السياق - تأخذ شكل "فكرة" لا أثر فى معبد. وبالرغم من أن المحاولة تترك لدى القارئ الشعور بعدم الاكتمال؛ فالدراسة تكتظ بالاقتباسات الساحرة بحق.

ويبدأ تاريخ هذا الولع بحبس لويس التاسع، وكانت مصر مصدر إلهام كتاب وفنانى العصور الوسطى وعصر النهضة. وفى ٧ أبريل فى نهاية حملته أسر المماليك لويس التاسع، وكان هؤلاء المحاربون العبيد فى مصر قد قتلوا سلطانهم لتوهم ويبحثون عن ملك لهم، فعرضوا العرش على لويس التاسع، الذى تهرب من طلبهم وقابله بالصمت. وقال بونابرت لجنوده عند استيلائهم على الإسكندرية: "أمضى القديس لويس هنا ثمانية شهور فى الصلاة، وكان الأجدر به أن يقضيها فى السير والحرب والاستقرار

فى البلاد". ونجح بونابرت حيث فشل لويس التاسع فى مشروع غزوه، وقال بونابرت – وفقًا لما ورد فى كتاب شاتوبريان "ذاكرة المقبرة الأخرى: العزة لله! لا إله إلا الله محمد رسول الله، وأنا من أصدقائه".

وفى عصر التنوير، شكلت مصر لغزًا بالنسبة للفلاسفة؛ فكيف أمكن لهذا القدر من الحكمة ومن الأفكار المسبقة أن تتعايش معًا؟ وتعجب فولتير من مدح الأهرامات وقال: "فيم تفيد؟ فى حفظ – داخل حجرة – موميات بعض الأمراء أو الحكام أو القادة العسكريين التى يجب أن تعود الروح إليها بعد ألف عام، ولكن إذا كان المصريون يأملون فى هذا البعث؛ فلم يأخذون منها عقلها قبل تحنيطها؟ أيجب أن يبعث المصريون دون عقل؟ ولصالح مصر قال فولتير "إن الذين يعبدون فيها العجل لا يجبرون الذين يعبدون القرد إلى تغيير عبادتهم".

والغريب على الأقل ظاهريًا، هو أن نزول الجيش الفرنسى بقيادة نابليون فى مصر قد ولد صداقة عميقة بين فرنسا ومصر، "فبونابرت وعساكره – الفرنسيس – شكلوا الديوان وهو نوع من المجلس الذى يحكم مدينة القاهرة، ويشرح أحمد يوسف "لأول مرة منذ عصور طويلة أدار المصريون بلادهم بدلاً من الأتراك والمماليك". وفى منفاه بسانت هيلانه اجتر نابليون ذكرياته عن مصر قائلاً: "كنت أجد نفسى وقد تخلصت من قيد حضارة تسبب الضيق، وكانت أحلامى بلا حدود: كنت أبتكر دينًا، وكنت أرى نفسى على طريق آسيا على ظهر فيل وعلى رأسى عمامة وفى يدى قرآن جديد كتبته وفقًا لهواى. وكنت لأجمع فى (مشروعاتى – خططى) تجارب العالمين، باحثًا لمصلحتى مجال كل الروايات، مهاجمًا السلطة الإنجليزية فى الهند ومعيدًا بهذا الفتح علاقاتى مع أوروبا القديمة، وكان الوقت الذى أمضيته فى مصر هو أجمل أوقات حياتى؛ لأنه كان المثل الأعلى".

هل تعلمون أن تمثال الحرية كان من المفروض أن يوضع فى الأصل فى مدخل قناة السويس؟ وقبل أن يتحول مشروع المثال بارتولدى نحو برزخ نيويورك كان عبارة عن تمثال يبلغ ارتفاعه نحو ٢٨ مترًا ويرتدى جلابية، وعلى رأسه طرحة الفلاحة المصرية كرمز لمصر التى تحمل النور لآسيا.

وأما القناة فيرجع الفضل فى بنائها إلى الصداقة بين فردينان ديلسبس ونائب الملك سعيد، ونشأت هذه الصداقة عندما كان الأول يقدم أطباق المكرونة الشهية للثانى الذى كان والده (محمد على باشا) يجبره على اتباع نظام غذائى. والأحلام العظيمة تحتاج أحيانًا إلى تفاصيل غاية فى البساطة.

إيلى كيسيال Elie Cayssial

مجلة أومانييه L'Humanité **– مجلة أسبوعية**

العدد ٥١ من ١٩٩٨/٧/٣٠ إلى ١٩٩٨/٨/٥

المؤلف :

ولد الكاتب أحمد يوسف بمدينة الإسكندرية وأتم دراسته الثانوية بها ثم انتقل إلى القاهرة ودرس بكلية الألسن، وعمل بها معيداً ثم مدرساً مساعداً وحصل عام ١٩٩٢ على الدكتوراه من جامعة السربون عن "مصر فى الخيال الجمعى الفرنسى"، ويعمل منذ عام ١٩٩٥ بصحيفة الأهرام العريقه بمكتب باريس. وله مجموعة من المؤلفات، من أهمها: "كتوكتو المصرى"، و "الأسرار السبعة لمكتبة الإسكندرية"، و "نابليون و محمد"، وكلها نشرت فى فرنسا.

المترجمة :

حصلت أمل حسن الصبان على ليسانس كلية الألسن عام ١٩٨٢ وعينت معيدةً، ثم حصلت على ماجستير ثم دكتوراه الألسن فى الترجمة، وكان موضوع رسالة الدكتوراه: "دراسة للدلالات الاجتماعية والدينية لأعمال أندريه جيد المترجمة إلى العربية".

شاركت فى تأليف قاموس المصطلحات السياسية والمؤتمرات ١٩٩٥ وترجمت العديد من المؤلفات فى الصحف والمجلات المصرية والعربية مثل الأهرام، والعربى، وأصدر لها المشروع القومى للترجمة "الجمهورية العالمية للآداب".

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١- اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢- الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣- التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤- كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥- ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦- اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧- العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨- مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩- التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠- خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١- مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢- طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣- ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤- التحليل النفسى للأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥- الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦- أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف أحمد عتمان
١٧- مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨- الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩- الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠- قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت : يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١- خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢- مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣- تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤- ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥- مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦- دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧- التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨- رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩- الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠- الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١- مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢- الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣- التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤- الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥- الأسطورة والحداثة	پول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٣٦- نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧- واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت . جمال عبد الرحيم
٣٨- نقد الحداثة	آلن تورين	ت . أنور مغيث
٣٩- الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠- قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١- ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
٤٢- عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣- اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت : المهدى أخريف
٤٤- بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت : مارلين تادرس
٤٥- التراث المغدور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦- عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
٤٧- تاريخ النقد الأدبى الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨- حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتى
٤٩- الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠- ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١- مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
٥٢- العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣- الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤- المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
٥٥- ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
٥٦- الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧- الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨- مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩- المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠- التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١- موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
٦٢- لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣- تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤- برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥- فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦- خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧- مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
٦٨- نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩- العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠- ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١- السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود

١٠٨- ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من النقاد	ت : محمود علي مكي
١٠٩- حروب المياه	جون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠- النساء في العالم النامي	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١- المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢- الاحتجاج الهادئ	أرلين علوي ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣- راية التمرد	سادي پلانت	ت : أحمد حسان
١١٤- مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلي
١١٥- غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سمية رمضان
١١٦- امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧- المرأة والجنوسة في الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨- النهضة النسائية في مصر	بث بارون	ت : لميس النقاش
١١٩- النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهري سنبل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠- الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١- الدليل الصغيرعن الكاتبات العربيات	فاطمة موسى	ت : محمد الجندي ، وإيزابيل كمال
١٢٢- نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نينل الكسندر وفنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤- الفجر الكاذب	چون جراي	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥- التحليل الموسيقي	سيدريك ثورپ ديڤي	ت : سمحه الخولي
١٢٦- فعل القراءة	ڤولڤانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧- إرهاب	صفاء فتحي	ت : بشير السباعي
١٢٨- الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩- الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠- الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقي جلال
١٣١- مصر القديمة (التاريخ الاجتماعي)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢- ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣- الخوف من المرايا	طارق علي	ت : طلعت الشايب
١٣٤- تشريح حضارة	باري ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥- المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦- فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧- مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية	جوزيف ماري مواريه	ت : كاميليا صبحي
١٣٨- عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تاروني	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩- پارسيڤال	ريشارد ڤاچنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠- حيث تلتقي الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبوري
١٤١- اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢- الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومي
١٤٣- قضايا التنظير في البحث الاجتماعي	ديريك لايدار	ت : عدلي السمري
١٤٤- صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدوني	ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥- موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦- الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبدالرؤوف البمبى
١٤٧- خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبدالغفار مكاوى
١٤٨- القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠- التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت : منيرة كروان
١٥١- هوية فرنسا مج ٢ ، ج١	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٢- عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكتاب	ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣- غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت : فاطمة عبدالله محمود
١٥٤- مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥- الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦- المدارس الجمالية الكبرى	جى أتبال وآلان وأوديت فيرمو	ت : مى التلمسانى
١٥٧- خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	ت : عبدالعزيز بقوش
١٥٨- هوية فرنسا مج ٢ ، ج٢	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٩- الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت: إبراهيم فتحى
١٦٠- آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت: حسين بيومى
١٦١- من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت: زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢- تاريخ الكنيسة	يوحنا الآسيوى	ت: صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣- موسوعة علم الاجتماع	جوردن مارشال	ت: بإشراف: محمد الجوهرى
١٦٤- شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت: نبيل سعد
١٦٥- حكايات الثعلب	أ. ن أفانا سيفا	ت: سهير المصادفة
١٦٦- العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليڤمان	ت: محمد محمود أبو غدير
١٦٧- فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت: شكرى محمد عياد
١٦٨- دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت: شكرى محمد عياد
١٦٩- إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت: شكرى محمد عياد
١٧٠- الطريق	ميغيل دليبيس	ت: بسام ياسين رشيد
١٧١- وضع حد	فرانك بيجو	ت: هدى حسين
١٧٢- حجر الشمس	مختارات	ت: محمد محمد الخطابى
١٧٣- معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	ت:إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤- صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت: أحمد محمود
١٧٥- التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت: وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦- نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت: جلال البنا
١٧٧- أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	ت: حصة إبراهيم المنيف
١٧٨- مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	ت: محمد حمدى إبراهيم
١٧٩- حكايات أيسوب	أيسوب	ت: إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠- قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت: سليم عبد الأمير حمدان
١٨١- النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت ب. ليتش	ت: محمد يحيى
١٨٢- العنف والنبوءة	و.ب. ييتس	ت: ياسين طه حافظ
١٨٣- چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه چيلسون	ت: فتحى العشرى

١٨٤– القاهرة... حالمة لا تنام	هانز إبندورفر	ت: دسوقى سعيد
١٨٥– أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت. عبد الوهاب علوب
١٨٦– معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنوود	ت:إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧– الأرضة	بُزُرْج علوى	ت:محمد علاء الدين منصور
١٨٨– موت الأدب	الفين كرنان	ت.بدر الديب
١٨٩– العمى والبصيرة	پول دى مان	ت:سعيد الغانمى
١٩٠– محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت:محسن سيد فرجانى
١٩١– الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت: مصطفى حجازى السيد
١٩٢– رحلة إبراهيم بك جـ١	زين العابدين المراغى	ت:محمود سلامة علاوى
١٩٣– عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت:محمد عبد الواحد محمد
١٩٤– مختارات من النقد الأنجلو–أمريكى	مجموعة من النقاد	ت: ماهر شفيق فريد
١٩٥– شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت:محمد علاء الدين منصور
١٩٦– المهلة الأخيرة	فالنتين راسبوتين	ت:أشرف الصباغ
١٩٧– الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت: جلال السعيد الحفناوى
١٩٨– الاتصال الجماهيرى	ادوين إمرى وآخرون	ت:إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩– تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	ت: جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠– ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت: فخزى لبيب
٢٠١– الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت: أحمد الأنصارى
٢٠٢– تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٤	رينيه ويليك	ت: مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣– الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	ت: جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤– تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	ت: أحمد محمود هويدى
٢٠٥– الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى– سفورزا	ت: أحمد مستجير
٢٠٦– الهيولية تصنع علمًا جديداً	جيمس جلايك	ت: على يوسف على
٢٠٧– ليل إفريقى	رامون خوتاسندير	ت: محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨– شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	ت: محمد أحمد صالح
٢٠٩– السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت: أشرف الصباغ
٢١٠– مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	ت: يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١– فردينان دوسوسير	جوناثان كللر	ت: محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢– قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت: يوسف عبدالفتاح فرج
٢١٣– مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	ت: سيد أحمد على الناصرى
٢١٤– قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	ت: محمد محمود محى الدين
٢١٥– سياحت نامه إبراهيم بيك جـ٢	زين العابدين المراغى	ت: محمود سلامة علاوى
٢١٦– جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت: أشرف الصباغ
٢١٧– مسرحيتان طليعيتان	ص. بيكيت	ت: نادية البنهاوى
٢١٨– لعبة الحجلة (رايولا)	خوليو كورتازان	ت: على إبراهيم على منوفى
٢١٩– بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت: طلعت الشايب
٢٢٠– الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت: على يوسف على
٢٢١– شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت: رفعت سلام

العنوان	المؤلف	المترجم
٢٢٢- فرانز كافكا	رونالد جراى	ت نسيم مجلى
٢٢٣- العلم فى مجتمع حر	بول فيرابنر	ت السيد محمد نفادى
٢٢٤- دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت: منى عبدالظاهر إبراهيم السيد
٢٢٥- حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	ت: السيد عبدالظاهر السيد
٢٢٦- أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	ت: طاهر محمد على البربرى
٢٢٧- المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	موسى ماريديا ديف بوركى	ت: السيد عبدالظاهر عبدالله
٢٢٨- علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت:مارى تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
٢٢٩- مأزق البطل الوحيد	نورمان كيجان	ت: أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠- عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت: مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١- الدرافيل	خايمى سالوم بيدال	ت: جمال أحمد عبدالرحمن
٢٣٢- ما بعد المعلومات	توم ستينر	ت: مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣- فكرة الاضمحلال	آرثر هومان	ت: طلعت الشايب
٢٣٤- الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	ت: فؤاد محمد عكود
٢٣٥- ديوان شمس تبريزى ج١	جلال الدين مولوى رومى	ت: إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦- الولاية	ميشيل تود	ت: أحمد الطيب
٢٣٧- مصر أرض الوادى	روبين فيرين	ت: عنايات حسين طلعت
٢٣٨- العولمة والتحرير	الانكتاد	ت. ياسر محمد جادالله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩- العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلارافر - رايوخ	ت: نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠- الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	ت: صلاح عبدالعزيز محجوب
٢٤١- فى انتظار البرابرة	ج . م كويتز	ت: ابتسام عبدالله سعيد
٢٤٢- سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	ت: صبرى محمد حسن عبدالنبى
٢٤٣- تاريخ إسبانيا الإسلامية جـ١	ليفى بروفنسال	ت: على عبدالرؤوف البمبى
٢٤٤- الغليان	لاورا إسكيبيل	ت: نادية جمال الدين محمد
٢٤٥- نساء مقاتلات	إليزابيتا آديس	ت: توفيق على منصور
٢٤٦- مختارات قصصية	جابرييل جارثيا ماركث	ت: على إبراهيم على منوفى
٢٤٧- الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	والتر إرمبريست	ت: محمد طارق الشرقاوى
٢٤٨- حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	ت: عبداللطيف عبدالحليم عبدالله
٢٤٩- لغة التمزق	دراجو شتامبوك	ت: رفعت سلام
٢٥٠- علم اجتماع العلوم	دومنيك فينيك	ت: ماجدة محسن أباظة
٢٥١- موسوعة علم الاجتماع (ج٢)	جوردن مارشال	ت: بإشراف: محمد الجوهرى
٢٥٢- رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	ت: على بدران
٢٥٣- تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوڤا	ت: حسن بيومى
٢٥٤- الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥- أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٦- ديكارت	ديف روبنسون ، كريس جرات	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧- تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	ت: محمود سيد أحمد
٢٥٨- الفجر	سير أنجوس فريزر	ت: عُباده كُحيلة
٢٥٩- مختارات من الشعر الأرمنى عبر العصور	اقلام مختلفة	ت: فاروجان كازانجيان

٢٦٠- موسوعة علم الاجتماع ج٣	جوردن مارشال	ت: باشراف: محمد الجوهرى
٢٦١- رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢- مدينة المعجزات	إدوارد مندوثا	ت: محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٦٣- الكشف عن حافة الزمن	چون جريين	ت: على يوسف على
٢٦٤- إبداعات شعرية مترجمة	هوراس/ شلى	ت: لويس عوض
٢٦٥- روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصموئيل جونسون	ت: لويس عوض
٢٦٦- مدير المدرسة	جلال آل أحمد	ت: عادل عبدالمنعم سويلم
٢٦٧- فن الرواية	ميلان كونديرا	ت: بدر الدين عرودكى
٢٦٨- ديوان شمس تبريزى ج٢	جلال الدين الرومى	ت: إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩- وسط الجزيرة العربية وشرقها ج١	وليم چيفور بالجريف	ت: صبرى محمد حسن
٢٧٠- وسط الجزير العربية وشرقها ج٢	وليم چيفور بالجريف	ت: صبرى محمد حسن
٢٧١- الحضارة الغربية	توماس سى. باترسون	ت: شوقى جلال
٢٧٢- الأديرة الأثرية فى مصر	س. س والترز	ت: إبراهيم سلامة
٢٧٣- الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط	جوان أر. لوك	ت: عنان الشهاوى
٢٧٤- السيدة باربارا	رومولو جلاجوس	ت: محمود مكى
٢٧٥- ت. س إليوت شاعرا وناقدا وكاتبا مسرحيا	أقلام مختلفة	ت: ماهر شفيق فريد
٢٧٦- فنون السينما	فرانك جوتيران	ت: عبد القادر التلمسانى
٢٧٧- الچينات: الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	ت: أحمد فوزى
٢٧٨- البدايات	إسحق عظيموف	ت: ظريف عبدالله
٢٧٩- الحرب الباردة الثقافية	ف.س. سوندرز	ت: طلعت الشايب
٢٨٠- من الأدب الهندى الحديث والمعاصر	بريم شند وآخرون	ت: سمير عبدالحميد
٢٨١- الفردوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى	ت: جلال الحفناوى
٢٨٢- طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ولبيرت	ت: سمير حنا صادق
٢٨٣- السهل يحترق	خوان رولفو	ت: على البمبى
٢٨٤- هرقل مجنونا	يوريبيدس	ت: أحمد عتمان
٢٨٥- رحلة الخواجة حسن نظامى	حسن نظامى	ت: سمير عبد الحميد
٢٨٦- رحلة إبراهيم بك ج٣	زين العابدين المراغى	ت: محمود سلامة علاوى
٢٨٧- الثقافة والعولمة والنظام العالمى	انتونى كنج	ت: محمد يحيى وأخرون
٢٨٨- الفن الروائى	ديفيد لودج	ت: ماهر البطوطى
٢٨٩- ديوان منجوهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	ت: محمد نور الدين عبدالمنعم
٢٩٠- علم اللغة والترجمة	جورج مونان	ت: أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١- المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج١	فرانشسكو رويس رامون	ت: السيد عبد الظاهر
٢٩٢- المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج٢	فرانشسكو رويس رامون	ت: السيد عبد الظاهر
٢٩٣- مقدمة للأدب العربى	روجر آلان	ت: نخبة من المترجمين
٢٩٤- فن الشعر	بوالو	ت: رجاء ياقوت صالح
٢٩٥- سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل	ت: بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦- مكبث	وليم شكسبير	ت: محمد مصطفى بدوى
٢٩٧- فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس - يوسف الأهوانى	ت: ماجدة محمد أنور

٢٩٨- مأساة العبيد — أبو بكر تفاوابليوه — ت: مصطفى حجازى السيد
٢٩٩- ثورة التكنولوجيا الحيوية — جين ل. ماركس — ت. هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠- أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى مج١ — لويس عوض — ت: جمال الجزيرى وبهاء چاهين وإيزابيل كمال
٣٠١- أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى مج٢ — لويس عوض — ت: جمال الجزيرى و محمد الجندى
٣٠٢- فنجنشتين — جون هيتون وجودى جروفز — ت: إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣- بوذا — جين هوب وبورن فان لون — ت: إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤- ماركس — ريوس — ت: إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥- الجلد — كروزيو مالابارته — ت: صلاح عبد الصبور
٣٠٦- الحماسة - النقد الكانطى للتاريخ — چان - فرانسوا ليوتار — ت: نبيل سعد
٣٠٧- الشعور — ديفيد بابينو — ت: محمود محمد أحمد
٣٠٨- علم الوراثة — ستيف جونز — ت: ممدوح عبد المنعم أحمد
٣٠٩- الذهن والمخ — أنجوس چيلاتى — ت: جمال الجزيرى
٣١٠- يونج — ناجى هيد — ت: محيى الدين محمد حسن
٣١١- مقال فى المنهج الفلسفى — كولنجوود — ت: فاطمة إسماعيل
٣١٢- روح الشعب الأسود — وليم دى بويز — ت:أسعد حليم
٣١٣- أمثال فلسطينية — خايير بيان — ت: عبدالله الجعيدى
٣١٤- الفن كعدم — جينس مينيك — ت: هويدا السباعى
٣١٥- جرامشى فى العالم العربى — ميشيل بروندينو — ت: كاميليا صبحى
٣١٦- محاكمة سقراط — آ.ف. ستون — ت: نسيم مجلى
٣١٧- بلا غد — شير لايموفا- زنيكين — ت: أشرف الصباغ
٣١٨- الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة — نخبة — ت: أشرف الصباغ
٣١٩- صور دريدا — جايتر ياسبيفاك وكرستوفر نوريس — ت: حسام نايل
٣٢٠- لمعة السراج فى حضرة التاج — مؤلف مجهول — ت: محمد علاء الدين منصور
٣٢١- تاريخ إسبانيا الإسلامية ج٢ — ليفى برو فنسال — ت: نخبة من المترجمين
٣٢٢- وجهات غربية حديثة فى تاريخ الفن — دبليو يوجين كليتباور — ت: خالد مفلح حمزه
٣٢٣- فن الساتورا — تراث يونانى قديم — ت: هانم سليمان
٣٢٤- اللعب بالنار — أشرف أسدى — ت: محمود سلامة علاوى
٣٢٥- عالم الآثار — فيليب بوسان — ت: كرستين يوسف
٣٢٦- المعرفة والمصلحة — جورجين هابرماس — ت: حسن صقر
٣٢٧- مختارات شعرية مترجمة — نخبة — ت: توفيق على منصور
٣٢٨- يوسف وزليخا — نور الدين عبد الرحمن بن أحمد — ت: عبد العزيز بقوش
٣٢٩- رسائل عيد الميلاد — تد هيوز — ت: محمد عيد إبراهيم
٣٣٠- كل شىء عن التمثيل الصامت — مارفن شبرد — ت: سامى صلاح
٣٣١- عندما جاء السردين — ستيفن جراى — ت: سامية دياب
٣٣٢- القصة القصيرة فى إسبانيا — نخبة — ت: على إبراهيم على منوفى
٣٣٣- الإسلام فى بريطانيا — نبيل مطر — ت: بكر عباس

٣٣٤- لقطات من المستقبل	آرثر.س كلارك	ت: مصطفى فهمى
٣٣٥- عصر الشك	ناتالى ساروت	ت: فتحى العشرى
٣٣٦- متون الأهرام	نصوص قديمة	ت: حسن صابر
٣٣٧- فلسفة الولاء	جوزايا رويس	ت: أحمد الأنصارى
٣٣٨- نظرات حائرة (وقصص أخرى من الهند)	نخبة	ت: جلال السعيد الحفناوى
٣٣٩- تاريخ الأدب فى إيران جـ٣	على أصغر حكمت	ت: محمد علاء الدين منصور
٣٤٠- اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيربيروجلو	ت: فخرى لبيب
٣٤١- قصائد من رلكه	راينر ماريا رلكه	ت: حسن حلمى
٣٤٢- سلامان وأبسال	نور الدين عبدالرحمن بن أحمد	ت: عبد العزيز بقوش
٣٤٣- العالم البرجوازى الزائل	نادين جورديمر	ت: سمير عبد ربه
٣٤٤- الموت فى الشمس	بيتر بلانجوه	ت: سمير عبد ربه
٣٤٥- الركض خلف الزمن	بونه ندائى	ت: يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦- سحر مصر	رشاد رشدى	ت: جمال الجزيرى
٣٤٧- الصبية الطائشون	جان كوكتو	ت: بكر الحلو
٣٤٨- المتصوفة الأولون فى الأدب التركى جـ١	محمد فؤاد كوبريلى	ت: عبدالله أحمد إبراهيم
٣٤٩- دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	آرثر والدرون وآخرون	ت: أحمد عمر شاهين
٣٥٠- بانوراما الحياة السياحية	أقلام مختلفة	ت: عطية شحاتة
٣٥١- مبادئ المنطق	جوزايا رويس	ت: أحمد الانصارى
٣٥٢- قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	ت: نعيم عطية
٣٥٣- الفن الإسلامى فى الأندلس (الزخرفة الهندسية)	باسيليو بابون مالدوناند	ت: على إبراهيم على منوفى
٣٥٤- الفن الإسلامى فى الأندلس (الزخرفة النباتية)	باسيليو بابون مالدوناند	ت: على إبراهيم على منوفى
٣٥٥- التيارات السياسية فى إيران	حجت مرتضى	ت: محمود سلامة علاوى
٣٥٦- الميراث المر	بول سالم	ت: بدر الرفاعى
٣٥٧- متون هيرميس	نصوص قديمة	ت: عمر الفاروق عمر
٣٥٨- أمثال الهوسا العامية	نخبة	ت: مصطفى حجازى السيد
٣٥٩- محاورات بارمنيدس	أفلاطون	ت: حبيب الشارونى
٣٦٠- أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ت: ليلى الشربينى
٣٦١- التصحر: التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	ت: عاطف معتمد وآمال شاور
٣٦٢- تلميذ بابنيبرج	هاينرش شبورال	ت: سيد أحمد فتح الله
٣٦٣- حركات التحرير الأفريقية	ريتشارد جيبسون	ت: صبرى محمد حسن
٣٦٤- حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	ت: نجلاء أبو عجاج
٣٦٥- سأم باريس	شارل بودلير	ت: محمد أحمد حمد
٣٦٦- نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	ت: مصطفى محمود محمد
٣٦٧- القلم الجرىء	نخبة	ت: البرّاق عبدالهادى رضا
٣٦٨- المصطلح السردى	جيرالد برنس	ت: عابد خزندار
٣٦٩- المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	ت: فوزية العشماوى
٣٧٠- الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	ت: فاطمة عبدالله محمود
٣٧١- المتصوفة الأولون فى الأدب التركى ج٢	محمد فؤاد كوبريلى	ت: عبدالله أحمد إبراهيم

٣٧٢- عاش الشباب	وانغ مينغ	ت وحيد السعيد عبدالحميد
٣٧٣- كيف تعد رسالة دكتوراه	أمبرتو إيكو	ت على إبراهيم على منوفى
٣٧٤- اليوم السادس	أندريه شديد	ت. حمادة إبراهيم
٣٧٥- الخلود	ميلان كونديرا	ت: خالد أبو اليزيد
٣٧٦- الغضب وأحلام السنين	نخبة	ت: إدوار الخراط
٣٧٧- تاريخ الأدب فى إيران جـ٤	على أصغر حكمت	ت: محمد علاء الدين منصور
٣٧٨- المسافر	محمد إقبال	ت: يوسف عبدالفتاح فرج
٣٧٩- ملك فى الحديقة	سنيل باث	ت: جمال عبدالرحمن
٣٨٠- حديث عن الخسارة	جونتر جراس	ت: شيرين عبدالسلام
٣٨١- أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	ت: رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢- تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد إسفنديار	ت: أحمد محمد نادى
٣٨٣- هدية الحجاز	محمد إقبال	ت: سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٨٤- القصص التى يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	ت: إيزابيل كمال
٣٨٥- مشترى العشق	محمد على بهزادراد	ت: يوسف عبدالفتاح فرج
٣٨٦- دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى	جانيت تود	ت: ريهام حسين إبراهيم
٣٨٧- أغنيات وسوناتات	چون دن	ت: بهاء چاهين
٣٨٨- مواعظ سعدى الشيرازى	سعدى الشيرازى	ت: محمد علاء الدين منصور
٣٨٩- من الأدب الباكستانى المعاصر	نخبة	ت: سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٩٠- الأرشيفات والمدن الكبرى	نخبة	ت: عثمان مصطفى عثمان
٣٩١- الحافلة الليلكية	مايف بينشى	ت: منى الدروبى
٣٩٢- مقامات ورسائل أندلسية	نخبة	ت: عبداللطيف عبدالحليم
٣٩٣- فى قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	ت: نخبة
٣٩٤- القوى الأربع الأساسية فى الكون	بول ديفيز	ت: هاشم أحمد محمد
٣٩٥- آلام سياوش	إسماعيل فصيح	ت: سليم حمدان
٣٩٦- السافاك	تقى نجارى راد	ت: محمود سلامة علاوى
٣٩٧- نيتشه	لورانس جين	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٨- سارتر	فيليب تودى	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٩- كامى	ديفيد ميروفتس	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٠٠- مومو	مشيائيل إنده	ت: باهر الجوهرى
٤٠١- الرياضيات	زيادون ساردر	ت: ممدوح عبد المنعم
٤٠٢- هوكنج	ج. ب. ماك ايفوى	ت: ممدوح عبدالمنعم
٤٠٣- ربة المطر والملابس تصنع الناس	تودور شتورم	ت: عماد حسن بكر
٤٠٤- تعويذة الحسى	ديفيد إبرام	ت: ظبية خميس
٤٠٥- إيزابيل	أندريه جيد	ت: حمادة إبراهيم
٤٠٦- المستعربون الإسبان فى القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	ت: جمال أحمد عبد الرحمن
٤٠٧- الأدب الإسبانى المعاصر بأقلام كتابه	أقلام مختلفة	ت: طلعت شاهين
٤٠٨- معجم تاريخ مصر	جوان فوتشركنج	ت: عنان الشهاوى
٤٠٩- انتصار السعادة	برتراند راسل	ت: إلهامى عمارة

٤١٠- خلاصة القرن	كارل بوبر	ت: الزواوى بغورة
٤١١- همس من الماضى	جينيفر أكرمان	ت: أحمد مستجير
٤١٢- تاريخ إسبانيا الإسلامية جـ٢	ليفى بروفنسال	ت: نخبة
٤١٣- أغنيات المنفى	ناظم حكمت	ت: محمد البخارى
٤١٤- الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوفا	ت: أمل الصبان
٤١٥- صورة كوكب	فريدريش دورنيمات	ت: أحمد كامل عبدالرحيم
٤١٦- مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	ت: مصطفى بدوى
٤١٧- تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٥	رينيه ويليك	ت: مجاهد عبدالمنعم مجاهد
٤١٨- سياسات الزمر الحاكمة فى مصر العثمانية	جين هاثواى	ت: عبد الرحمن الشيخ
٤١٩- العصر الذهبى للإسكندرية	جون مايو	ت: نسيم مجلى
٤٢٠- مكرو ميجاس	فولتير	ت: الطيب بن رجب
٤٢١- الولاء والقيادة	روى متحدة	ت: أشرف محمد كيلانى
٤٢٢- رحلة لاستكشاف أفريقيا ج١	نخبة	ت: عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣- إسراءات الرجل الطيف	نخبة	ت: وحيد النقاش
٤٢٤- لوائح الحق ولوامع العشق	نور الدين عبدالرحمن الجامى	ت: محمد علاء الدين منصور
٤٢٥- من طاووس إلى فرح	محمود طلوعى	ت: محمودد سلامة علاوى
٤٢٦- الخفافيش وقصص أخرى	نخبة	ت: محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧- بانديراس الطاغية	باى إنكلان	ت: ثريا شلبى
٤٢٨- الخزانة الخفية	محمد هوتك	ت: محمد أمان صافى
٤٢٩- هيجل	ليود سبنسر وأندرزجى كروز	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠- كانط	كرستوفر وانت وأندزجى كليموفسكى	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١- فوكو	كريس هوروكس وزوران جفتيك	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢- ماكيافللى	باتريك كيرى وأوسكار زاريت	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣- جويس	ديفيد نوريس وكارل فلنت	ت: حمدى الجابرى
٤٣٤- الرومانسية	دونكان هيث وجودن بورهام	ت: عصام حجازى
٤٣٥- توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زربرج	ت: ناجى رشوان
٤٣٦- تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوبلستون	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧- رحالة هندى فى بلاد الشرق	شبلى النعمانى	ت: جلال السعيد الحفناوى
٤٣٨- بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	ت: عايدة سيف الدولة
٤٣٩- موت المرابى	صدر الدين عينى	ت: محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠- قواعد اللهجات العربية	كرستن بروستاد	ت: محمد الشرقاوى
٤٤١- رب الأشياء الصغيرة	أروندهاتى روى	ت: فخرى لبيب
٤٤٢- حتشبسوت (المرأة الفرعونية)	فوزية أسعد	ت: ماهر جويجاتى
٤٤٣- اللغة العربية	كيس فرستيغ	ت: محمد الشرقاوى
٤٤٤- أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	ت: صالح علمانى
٤٤٥- حول وزن الشعر	پرويز ناتل خانلرى	ت: محمد محمد يونس
٤٤٦- التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير	ت: أحمد محمود
٤٤٧- نظرية الكم	ج. پ. ماك إيڤوى	ت: ممدوح عبدالمنعم

٤٤٨- علم نفس التطور	ديلان إيڤانز - أوسكار زاريت	ت: ممدوح عبدالمنعم
٤٤٩- الحركة النسائية	مجموعة	ت: جمال الجزيرى
٤٥٠- ما بعد الحركة النسائية	صوفيا فوكا - ريبيكا رايت	ت: جمال الجزيرى
٤٥١- الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن - بورن ڤان لون	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢- لينين والثورة الروسية	ريتشارد إيجناترى - أوسكار زاريت	ت: محى الدين مزيد
٤٥٣- القاهرة: إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	ت: حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤- خمسون عاماً من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	ت: سوزان خليل
٤٥٥- تاريخ الفلسفة الحديثة (مج٥)	فردريك كوبلستون	ت: محمود سيد أحمد
٤٥٦- لا تنسنى	مريم جعفرى	ت: هويدا عزت محمد
٤٥٧- النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان موللر اوكين	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨- الموريسكيون الأندلسيون	خوليو كارو باروخا	ت: جمال عبد الرحمن
٤٥٩- نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	ت: جلال البنا
٤٦٠- الفاشية والنازية	ستوارت هود- ليتزا جانستز	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١- لكان	داريان ليدر- جودى جروفز	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢- طه حسين من الأزهر إلى السوربون	عبدالرشيد الصادق محمودى	ت: عبدالرشيد الصادق محمودى
٤٦٣- الدولة المارقة	ويليام بلوم	ت: كمال السيد
٤٦٤- ديمقراطية القلة	ميكائيل بارنتى	ت: حصة منيف
٤٦٥- قصص اليهود	لويس جنزبرج	ت: جمال الرفاعى
٤٦٦- حكايات حب وبطولات فرعونية	فيولين ڤانويك	ت: فاطمة محمود
٤٦٧- التفكير السياسى	ستيفين ديلو	ت: ربيع وهبة
٤٦٨- روح الفلسفة الحديثة	جوزايا رويس	ت: أحمد الأنصارى
٤٦٩- جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	ت: مجدى عبدالرازق
٤٧٠- الأراضى والجودة البيئية	نخبة	ت: محمد السيد النئة
٤٧١- رحلة لاستكشاف أفريقيا ج٢	نخبة	ت: عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٧٢- دون كيخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	ت: سليمان العطار
٤٧٣- دون كيخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	ت: سليمان العطار
٤٧٤- الأدب والنسوية	بام موريس	ت: سهام عبدالسلام
٤٧٥- صوت مصر: أم كلثوم	فرجينيا دانيلسون	ت: عادل هلال عنانى
٤٧٦- أرض الحبايب بعيدة: بيرم التونسى	ماريلين بوث	ت: سحر توفيق
٤٧٧- تاريخ الصين	هيلدا هوخام	ت: أشرف كيلانى
٤٧٨- الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج و لى شى دونج	ت: عبد العزيز حمدى
٤٧٩- المقهى (مسرحية صينية)	لاوشه	ت: عبد العزيز حمدى
٤٨٠- تساى ون جى (مسرحية صينية)	كو مو روا	ت: عبد العزيز حمدى
٤٨١- عباءة النبى	روى متحدة	ت: رضوان السيد
٤٨٢- موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير جاك تيبو	ت: فاطمة محمود
٤٨٣- النسوية وما بعد النسوية	سارة جامبل	ت: أحمد الشامى
٤٨٤- جمالية التلقى	هانسن روبيرت ياوس	ت: رشيد بنحدو
٤٨٥- التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	ت: سمير عبدالحميد إبراهيم

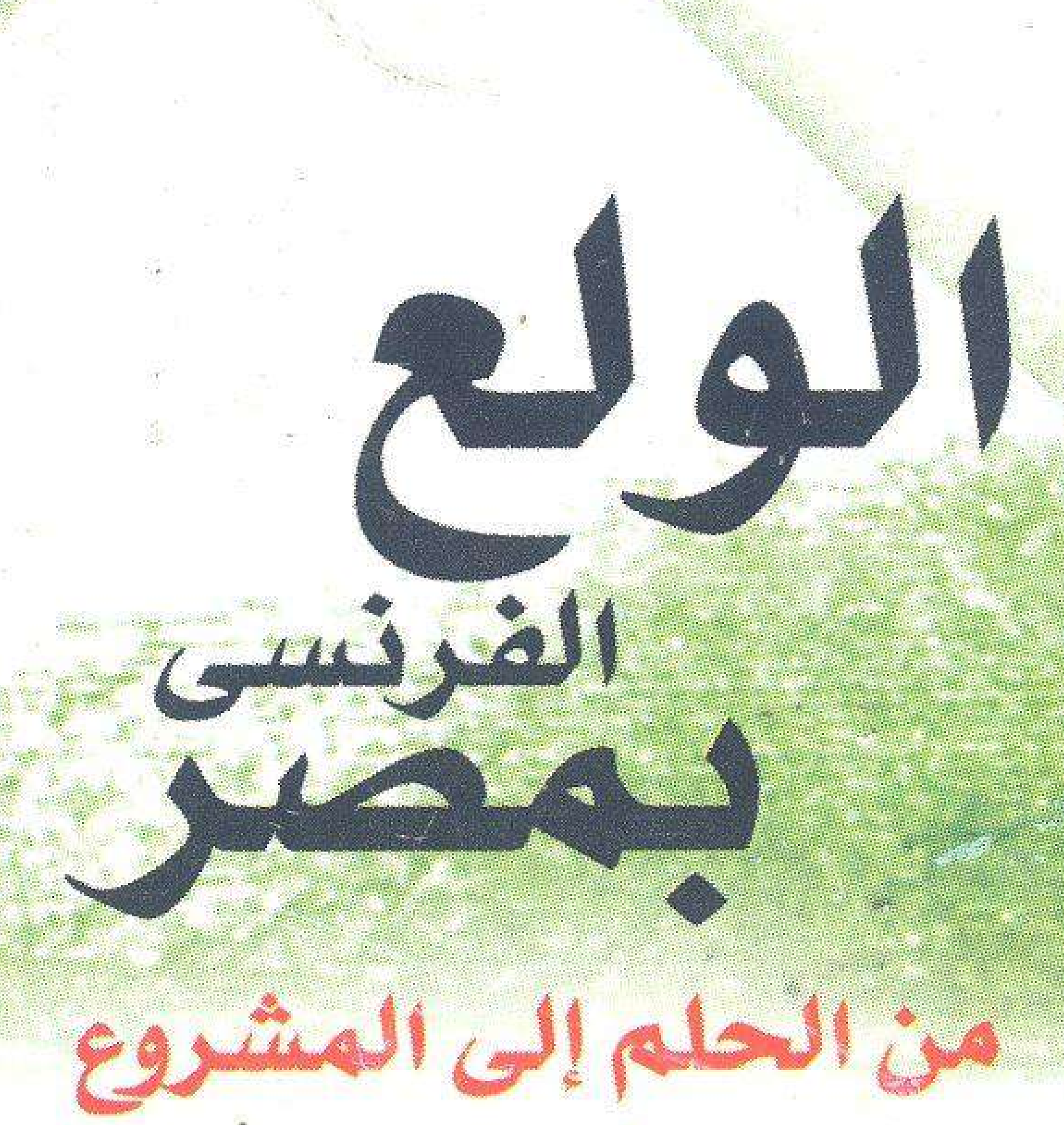
٤٨٦- الذاكرة الحضارية	يان أسمن	ت: عبدالحليم عبدالغنى رجب
٤٨٧- الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد آبادى	ت: سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨- الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	ت: سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩- هُسِّرل: الفلسفة علمًا دقيقًا	هُسِّرل	ت: محمود رجب
٤٩٠- أسمار الببغاء	محمد قادرى	ت: عبد الوهاب علوب
٤٩١- نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقى	نخبة	ت: سمير عبد ربه
٤٩٢- محمد على مؤسس مصر الحديثة	جى فارجيت	ت: محمد رفعت عواد
٤٩٣- خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	ت: محمد صالح الضالع
٤٩٤- كتاب الموتى (الخروج فى النهار)	نصوص مصرية قديمة	ت: شريف الصيفى
٤٩٥- اللوبى	إدوارد تيفان	ت: حسن عبد ربه المصرى
٤٩٦- الحكم والسياسة فى أفريقيا	إكوادو بانولى	ت: مجموعة من المترجمين
٤٩٧- العلمانية والنوع والدولة فى الشرق الأوسط	نادية العلىّ	ت: مصطفى رياض
٤٩٨- النساء والنوع فى الشرق الأوسط الحديث	جوديث تاكر ومارجريت مريودز	ت: أحمد على بدوى
٤٩٩- تقاطعات: الأمة والمجتمع والجنس	نخبة	ت: فيصل بن خضراء
٥٠٠- فى طفولتى (دراسة فى السيرة الذاتية العربية)	تيتز رووكى	ت: طلعت الشايب
٥٠١- تاريخ النساء فى الغرب	أرثر جولد هامر	ت: سحر فراج
٥٠٢- أصوات بديلة	هدى الصدّة	ت: هالة كمال
٥٠٣- مختارات من الشعر الفارسى الحديث	نخبة	ت: محمد نور الدين عبدالمنعم
٥٠٤- كتابات أساسية ج١	مارتن هايدجر	ت: إسماعيل المصدق
٥٠٥- كتابات أساسية ج٢	مارتن هايدجر	ت: إسماعيل المصدق
٥٠٦- ربما كان قديسًا	آن تيلر	ت: عبدالحميد فهمى الجمال
٥٠٧- سيدة الماضى الجميل	بيتر شيفر	ت: شوقى فهيم
٥٠٨- المولوية بعد جلال الدين الرومى	عبدالباقى جلبنارلى	ت: عبدالله أحمد إبراهيم
٥٠٩- الفقر والإحسان فى عهد سلاطين المماليك	أدم صبرة	ت: قاسم عبده قاسم
٥١٠- الأرملة الماكرة	كارلو جولدونى	ت: عبدالرازق عيد
٥١١- كوكب مرقّع	آن تيلر	ت: عبدالحميد فهمى الجمال
٥١٢- كتابة النقد السينمائى	تيموثى كوريجان	ت: جمال عبد الناصر
٥١٣- العلم الجسور	تيد أنتون	ت: مصطفى إبراهيم فهمى
٥١٤- مدخل إلى النظرية الأدبية	جونثان كولر	ت: مصطفى بيومى عبد السلام
٥١٥- من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فدوى مالطى دوجلاس	ت: فدوى مالطى دوجلاس
٥١٦- إرادة الإنسان فى شفاء الإدمان	أرنولد واشنطون- ودونا باوندى	ت: صبرى محمد حسن
٥١٧- نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	ت: سمير عبد الحميد إبراهيم
٥١٨- استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	ت: هاشم أحمد محمد
٥١٩- محاضرات فى المثالية الحديثة	جوزايا رويس	ت: أحمد الأنصارى
٥٢٠- الولع بمصر من الحلم إلى المشروع	أحمد يوسف	ت: أمل الصبان

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٢١٠٢٨ / ٢٠٠٢







ظلت مصر دائمًا ملهمة لصورة ساحرة لحلم فرنسى يمتد عبر الزمان؛ فقد تسابقت نحوها مشروعات سياسية عديدة بطريقة تتسم بالسرية والحذر. وبالنسبة للمغامرات العسكرية لم يسجل التاريخ الحديث سوى اثنتين: حرب القديس لويس الصليبية فى عام ١٢٥٠، وحملة بونابرت عام ١٧٩٨.

أما عن مشروع ليبنتز غير المنشور، والذى قدمه للويس الرابع عشر عام ١٦٧٥ تحت عنوان «مذكرة عن غزو مصر» المنشور فى ملحق الكتاب؛ فقد كان فى الوقت نفسه نتيجة لحرب القديس لويس الصليبية و«أساسًا» حملة بونابرت العلمانية. وهذه الحملة - التى أجهضت عسكريًا - أفسحت المجال لإنجازات فنية وعلمية وصناعية. ويرسم لنا هذا الكتاب المسيرة غير الملموسة لتطور حب مصر فى فرنسا اعتبارا من جذوره القديمة وحتى الحلم.

ويقدم هذا الكتاب أيضا تفاصيل غير معروفة فى مجال العلاقات بين البلدين؛ فتمثال الحرية - على سبيل المثال - كان من المفروض أن يوضع فى الأصل فى مدخل قناة السويس؛ فقبل أن يتحول مشروع المثال بارتولدى صوب برزخ نيويورك كان عبارة عن تمثال يبلغ ارتفاعه ٢٨ مترًا ويرتدى «جلابية» وعلى رأسه «طرحة» الفلاحة المصرية كرمز لمصر التى تحمل النور لآسيا وأفريقيا.

تصميم الغلاف: أسامة العبد